

"ترى ماذا يخبئ لنا العام الجديد ؟! .."
(لوحة فوتوغرافية للمصور الفنان "جارو")

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدرها : حلمى مراد
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

قمـار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب الثانى والثمانون (السنة السابعة) : يناير ١٩٥٩
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها الان اثنان وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالاعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

وثمن النسخة ١٠قروش ، عدا الاعداد : ١و٤و٧و١٩و٢٢و٣٤ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ ومن ٢٨ الى ٣٢ ومن ٣٥ الى ٣٧ ، و ٤٠ فثمن النسخة ١٣ قرشا - والاعداد ٣ و ٥ و ٦ - ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

محتويات الكتاب


حلمي مراد
يهنئك بالعام الجديد، ويهديك في
مستهله أخلص التحية وأطيب التمنيات!

بوادر التفاؤل فى العام الجديد

عزيزى القارىء :

ما أشبه العالم ، وهو يخطو الى العام الجديد ـ عام ١٩٥٩ ـ بالطفل الحائر ، المتسائل ، الذى تطالعك صورته على غلاف هذا العدد .. فالعالم يتطلع موجسا الى هذا العام الجديد ، كما يتطلع الى كل مجهول ، متسائلا : **أتراه يحمل فى طياته خيرا ، أم ترى عناصر الشر قد تتغلب ، فتكون الطامة الكبرى ، التى تؤدى بالبشرية جميعا ؟ ! ..**

لقد قضى العالم عامه المنصرم (١٩٥٨) وهو واجف القلب ، محتبس الانفاس ، ازاء السباق الرهيب بين الدول الكبرى .. السباق فى استغلال الطاقة الذرية فى ميدان الاسلحة .. ولكن بوادر الرجاء لاحت فى الافق فى أواخر العام ، اذ أوشك مندوبو هذه الدول ، فى « مؤتمر وقف التجارب الذرية » ، أن يصلوا الى تفاهم يفضى الى الاتفاق المرجو ، الذى يقى الحضارة والانسانية شرور دمار جائح ، شامل ، لا يبقى ولا يذر .. كما جاءت زيارة « ميكويان » ـ نائب رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى ـ لامريكا ، بشرى طيبة بأن الرؤوس الكبرى ، المسيطرة على السياسية العالمية ، قد بدأت تدرك أن التقارب ، والسعى الودى الى التفاهم ، قد يجديان حيث لا تجدى التهديدات والانذارات والتعنت والعناد ..

وهكذا نرى أن فجر العام الجديد يقبل وفى أفقه خيوط من ضياء الامل والرجاء .. ولو أن البشر تخلصوا من الجشع والطغيان ، لحصدوا الهناء والاطمئنان .. فان الحرب والسلام انما ينعكسان حقا عن نفوس أهل العالم ، كما تجد فى المقال المنشور على صفحة (٢٠) .

* * *

و ((كتابى)) ينتهز مقدم العام الجديد ، ليقدم اليك – يا عزيزى القارىء – والى الانسانية جمعاء ، والامة العربية بوجه خاص ، وجمهوريتنا العربية المتحدة بوجه أخص ، أطيب التهانىء ، وأصدق التمنيات ..

* * *

ولقد كان العدد – الذى بين يديك – من ((كتابى)) معدا ليصل الى يديك مع مطلع العام . **ولكن الحرص على موافاتك بحلقة جديدة من السلسلة التى يكتبها لك الزميل الاستاذ حلمى مراد – صاحب ((كتابى)) ورئيس تحريره – من أوربا ، حملنا على أن نفسح فى الانتظار أياما** . واذ خشينا أن يطول تأخرنا عنك ، دفعنا بالمواد الى المطبعة .. وفجأة ، وصلت الرسالة المرتقبة ، وقد أخرتها زحمة البريد الاوربى ، فى موسم الاعياد .. ولم نشأ أن نحرمك من حديث المحرر ، كما أشفقنا من تأخير جديد ، فاقتصرنا على أن نقدم جزءا منها اليك ، تقرأه فى الصفحات التالية ، مرجئين بقيتها الى العدد القادم ان شاء الله ..

فالى اللقاء .. وعام سعيد

أسرة التحرير

* * *

رأيت و"سهرت" لك فى .. مدريد !
فى ليلة رأس السنة

عزيزى القارىء ..

• فى الشهر الماضى ، كتبت لك هذا « الباب » والشمس تشرق على عروس الشمال ، (ستوكهولم) .. لكنى فى هذا الشهر أكتبه والضباب يلف عروس الجنوب ـ (مدريد) ـ بغلالة من الابخرة الباردة ! .. أكتبه فى غرفة بالطابق التاسع من أحد فنادق المدينة ، تطل على شارع « خوزيه أنطونيو » ، شريان (مدريد) النابض بالحركة والحياة ..

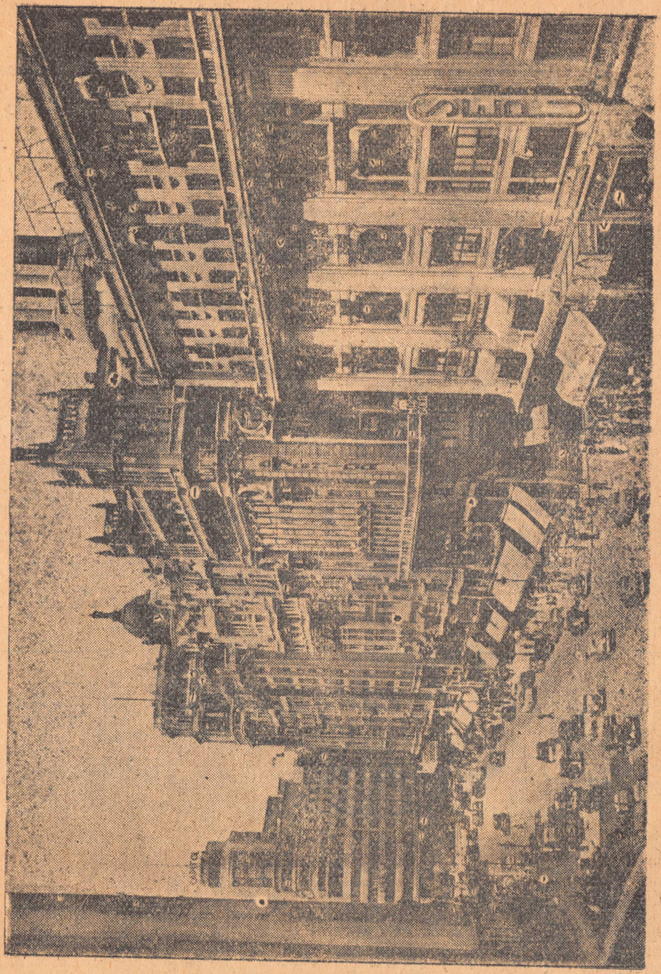
.. وهو الليلة أنبض بالحركة والحياة منه فى أية ليلة أخرى .. فالليلة ليلة رأس السنة !.. لقد شاءت المصادفة أن أصل الى عاصمة الاسبان وهى تتهيأ لتوديع العام الراحل واستقبال العام الجديد . لم يبق من عمر العام المنصرم سوى ثلاث ساعات ، لكنها ساعات حافلة بالمرح والصخب . **ان الناس ـ عادة ـ يودعون كل راحل عن دنياهم بالبكاء والنحيب . الا هذا الراحل ، فانهم يودعونه بالضحك والرقص والغناء !.. ولا سيما هنا فى اسبانيا !** فالاسبان شعب يتقن « فن الحياة » ، ويعرف كيف يستمتع باللحظة التى تمر ، الى غير رجعة . ان لسان حاله يقول : « نحن فقراء نسبيا ، لكننا نحب الحياة ، ونحرص على الاستمتاع بكل ما تستطيع أن تقدمه لنا من أسباب اللهو والمرح ! » .. ومن هنا تلمس الفرق الشاسع بين

الاسبان والالمان مثلا فى هذا الصدد : فالالمان يستيقظون عادة مع الفجر ليبدأوا أعمالهم فى ساعة مبكرة من النهار ، وينفقون اليوم كله فى العمل والانتاج المتواصل ، بلا هوادة .. حتى اذا ما أقبل الليل ، ثم يعودوا صالحين لغير النوم المبكر ، سواء بتأثير التعب ، أو بحكم الاستعداد ليوم آخر حافل بالنشاط والعمل ، ولا شيء غير العمل .. !

أما الاسبان ، فهم على النقيض من ذلك تماما : **لايستيقظون أو يبدأون يومهم الا بعد التاسعة صباحا ، ولا ينامون قبل الثالثة أو الرابعة صباحا ! .. والشريان الرئيسى الذى يعج بالصخب فى الساعات المتأخرة من الليل ، تراه فى التاسعة صباحا ساكنا هادئا ، بل شبه مهجور !**

فتعال نهبط الآن الى شارع « خوزيه أنطونيو » لنتعرف عليه ، وعلى الطبع الاسبانى الاصيل كما يبدو على سجيته فى هذه المناسبة المرحة . ان الارصفة تضيق بالمارة ، من جميع الطبقات ، وفى جميع الازياء : بعضهم بملابس السهرة ، فى طريقهم الى أحد المراقص التى أوقفت جميع برامجها الاستعراضية العادية فى هذه الليلة الخاصة ، واقتصرت على مجرد الرقص وتوزيع الهدايا التقليدية ، مقرونة بقبلات منتصف الليل ! .. والبعض الآخر من الشباب ذى الميزانية المحدودة ، أو الوالدين ذوى الدخل المتواضع ، أو العجائز والشيوخ الذين تركوا حلبات الرقص لاولادهم وآثروا استقبال العام الجديد فى احد المقاهى ، فى صحبة قدح من النبيذ .. أو فى دار للسينما ، فى

الى اليسار : شارع « خوزيه أنطونيو » قلب (مدريد) النابض . ويتميز بالمبانى الشاهقة الضخمة ، وطابعه الاسبانى الاصيل



صحبة قصة جيدة وعدد من نجوم الشاشة المفضلين ..

وأمام احدى دور السينما ، رأيت طابورا طويلا يتحرك ببطء نحو شباك التذاكر ، وحشدا كبيرا خلفه يتجمع ثم ينخرط بدوره فى الطابور . ولم أعجب لهذا التهافت على هذه الدار بالذات ، فقد كانت تعرض فيلما جمع أكثر من سبب لتشويق، فقصته من تأليف الروائية المشهورة « أجاثا كريستى » ، وبطولته يتنازعها اثنان من الممثلين القديرين والمحبوبين، هما : « تشارلس لوتون » ، والمرحوم « تيرون باور » الذى استشهد فى ساحة الفن فى (مدريد) بالذات ، منذ شهر واحد .. **ولا تنس أن الاسبان قوم عاطفيون ، يحرك أشجانهم ولا شك أن النجم المحبوب قد فقد حياته وهو « ضيف » فى بلادهم !**

ويقترب منتصف الليل ، ويزداد الشارع ازدحاما بالمارة ، والمتسكعين ، وباعة « البالون » الذين ترتفع عناقيد ملونة من بضاعتهم فوق الرؤوس كل بضعة أمتار .. وباعة «الطراطير» المختلفة الاشكال والالوان ، و « الزمارات » و « الصفارات » المتنوعة الاصوات والنبرات .. وأمام كل مرقص أو مقهى امرأة بدينة، تحمل طفلا نائما ، تنادى على بعض أقراص النعناع، أو تمد يدها بالسؤال ، وقد رسم البؤس والاسى على وجهها طابعا يذكر بلوحات «جويا» أو «ال جريكو» ، و «فيلاسكويز»، وغيرهم من كبار الفنانين الاسبان !

ويتعانق العام الراحل والعام الوليد على عتبة منتصف الليل ، فتطفأ الانوار لحظات .. ثم تضاء .. فاذا شعب بأسره يتبادل قبلات ، تحمل أطيب التمنيات .. وألطف من رؤية

الى اليسار : تمثال الاديب الاسبانى الاشهر « سرفانتس » ، مؤلف « دون كيشوت » . ويحتل أحد ميادين (مدريد) الهامة



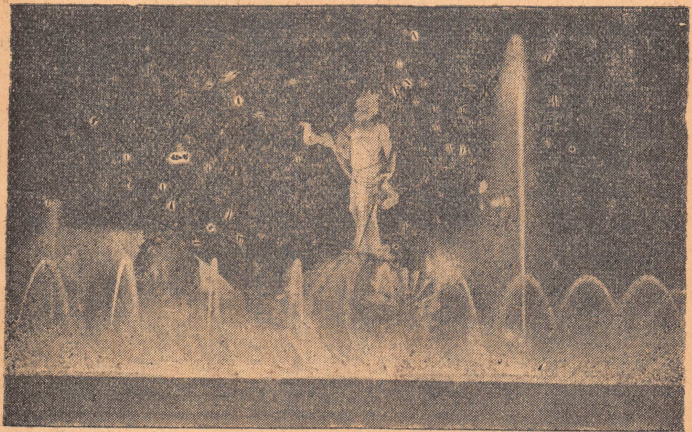
قبلات رواد المرقص أو المقهى أن ترى سقاة المكان وساقياته يهرعون نحو بعضهم البعض - وقد جمعت بينهم الزمالة فى العمل ، والكد - فيطبع كل على خد زميلته قبله كانها دعاء لها بان يرزقها الله فى العام الجديد ب « ابن الحلال » الذى لم يعد ازواج الآن « طوق يريحها من هذا الشقاء .. (وان النجاة » الذى يعصم الزوجة من العمل !)

الحانة التى سهر فيها « روبن هود » أسبانيا

• **وعلى** مسافة قريبة من شريان مدريد النابض ، يقع قلب المدينة الذى يسمى « بوابة الشمس » - بويرتا دل سول - وهو مبدان تتفرع منه عشرة شوارع هامه ، وبه ساعة كبرى تقود العاصمه كلها من حيث تحديد الوقت ، كما تفعل ساعة جامعة القاهرة .

على أن الميدان ذا المكانة التاريخية فى العاصمة الاسبانية - والذى يعتبر قلب مدريد القديمة - هو (بلازا مايور) ، الذى يرجع تاريخه الى القرن السابع عشر ، وقد شيدت أكثر مبانيه فى عهد الملك فيليب الثالث ، (الذى أقيم تمثال ضخم له فى وسط الميدان) . **ومنذ ذلك التاريخ شهد الميدان احداثا كثيرة خطيرة وبالغة الاهمية فى تطور اسبانيا : ففيه توج ملوك ، وعمد قديسون ، وأعدم مجرمون !** .. وفيه أقيمت - فى مناسبات خاصة - حلبات مصارعة الثيران ، التى تقام عادة فى ملعبين آخرين ، والتى لم يتح لى أن أشهدها لانها توقف فى الشتاء .. وحول الميدان ترى البيوت القديمة التى تحف بها نحو خمسمائة شرفة ، تتسع لاكثر من خمسين ألف متفرج ، فى المناسبات ..

فاذا تركت هذا الميدان التاريخى ومرقت من بوابة « كرنيليروس » الاثرية ، رأيت عددا من الحانات القديمة ذات الطابع العتيق ، العريق ، مثل حانة « ال بولبيتو » و « كويفا



تمثال الاله ((نبتيون)) يتوسط النافورة الجميلة التى تزين بمياهها المضيئة ميدانا من اهم ميادين العاصمة الاسبانية .. (مدريد)

دى لويس كانديلاس » ، حيث كان الفارس المغوار « لويس كانديلاس » — « روبن هود » القرن السابع عشر — يقضى سهراته ، كلما عاد من احدى مغامراته !

متحف .. ومتحف !

• **ولعل** مدريد هى المدينة الاوربية الوحيدة التى تقيم ملاهيها الليلية وكباريهاتها حفلات « ماتينيه » باكرة ، تبدأ من الساعة السابعة وتنتهى فى التاسعة والنصف ، **والغرض منها اتاحة فرصة مشاهدة برامجها الاستعراضية لفتيات الاسر المحافظة ، اللواتى لا يسمح لهن بالسهر بعد الساعة العاشرة .**

ومن أعجب أندية الليل فى مدريد بار « تشيكوتى » ، الذى يضم « متحفا » فريدا فى نوعه ، به سبعة عشر ألف زجاجة خمر مختلفة الاصناف ، من شتى بلاد الدنيا . ويعتقد الاسبان ان هذه المجموعة هى أكبر « تشكيلة » من نوعها فى العالم !

على ان « جوهرة » مدريد ، والمتحف الذى تفخر به حقا . هو متحف « ال برادو » ، الذى يعتبر من أغنى متاحف العالم بالكنوز الفنية ، ففيه أكثر من ثلاثة الاف لوحة زيتية لاشهر الفنانين — الاسبان والاجانب — أمثال : رمبرانت ، فان دايك . روبنز ، ليوناردو دا فنشى ، تيسيان ، فيرونيز ، ال جريكو جويا ، فيلاسكويز .. الخ .. كما أن به نحو أربعة آلاف رسم — بغير الزيت — ومئات من التماثيل والقطع الفنية النادرة . بل أن به قاعات فسيحة تغطى جدرانها بأكملها لوحات ضخمة لاتقدر بمال !

أما التحفة « الحديثة » التى تفخر بها مدريد أيضا فهى فندق « هيلتون » الفاخر — ويطلقون عليه هنا « كاستيلا هيلتون » ، (كما سيطلق على مثيله فى القاهرة مثلا « هيلتون النيل ») .. وهناك فنادق كثيرة جديدة تضاف الى القائمة كل عام ، بحكم تزايد اقبال السائحين على زيارة اسبانيا .. **وهو الاقبال الذى يزيد الاسعار ارتفاعا فيها سنة بعد سنة ، (كما حدث فى ايطاليا من قبل) ، بحيث لم تعد اسبانيا « أرخص البلاد ذات الشهرة السياحية » ، كما كان « اقبها » فى السنوات الماضية** ، بل انها نزلت عن هذا العرش الآن لدولة أخرى قد يجهل أكثر أهلها نبأ هذا التاج الذى آل اليهم ، لانهم لن يحسوا بمدى انخفاض الاسعار فى بلادهم حتى اليوم — رغم كل الاعتبارات — الا اذا خرجوا منها الى أى قطر آخر ، وقارنوا ! .. وهذه الدولة التى أعنيها ، هى .. **مصر** !

كوب اللبن بثلاثين قرشا :

• **أجل** .. ان انخفاض الاسعار لم يبلغ فى أى بلد مبلغه فى .. مصر !

.. مصر التى واجهت حربا اقتصادية رهيبة من أعتى دول الارض ، ومع ذلك خرجت منها والاسعار فيها مازالت دون مستواها فى جميع دول الغرب والشرق على السواء ! .. **بل لعلك تعجب اذا علمت أن الادوية الامريكية والانجليزية مازالت تباع فى مصر بأقل من سعرها فى جميع الدول الاخرى بلا استثناء ، بما فى ذلك الدول التى تنتجها ذاتها !** .. فدواء « التيراماسين » مثلا ، يباع فى مصر ــ ذات العملة الصعبة المحدودة جدا ــ بأقل من سعره فى **جميع** دول أوربا ! .. وفى النرويج ، مثلا ، بحثت عن أنبوبة اسبرين « باير » ، أو « أسبرو » ، فلم أجد أثرا لغير الاسبرين النرويجى المحلى الذى لا أسم له ولا « ماركة » معروفة ! .. وفى تركيا لا تجد غير الاسبرين التركى البسيط ، ويتعذر عليك أن تجد دواء مستوردا من أمريكا أو انجلترا ! .. وفى ألمانيا ذاتها ، تباع الادوية الالمانية بأغلى من سعر بيعها فى مصر !

.. وفى جنيف ، يعرض رغيف الخبز فى فترينات المخابز ، بخمسة وستة أضعاف سعره في بلادنا ! .. **(وفى كل بند من بنود الطعام على العموم ، لن تجد بلدا فى الدنيا أرخص من مصر ! .. ولن أنسى كوب اللبن الذى دفعت فيه فى بروكسل نحو ثلاثين قرشا !)**

.. وما يسرى على الطعام ، يسرى على أسعار الفنادق ، ونفقات الانتقال . فالمسافة التى يقطعها القطار فى السويد فى ساعة واحدة ــ بين ستوكهولم وأوبسالا .مثلا ــ يدفع فيها الراكب فى الدرجة الثانية ما يساوى جنيها مصريا كاملا ! .. وتذاكر الترام أو الاتوبيس فى دول أوربا جميعا ، تبلغ ثلاثة

أضعاف ثمنها فى مصر . بل وما قولك فى زجاجة الكولونيا البسيطة التى تعبأ محليا فى الصيدليات للاستعمال العادى ، سواء للوجه أو الجسم أو تطهير الذقن بعد الحلاقة مثلا ؟ انك تدفع فيها فى كوبنهاجن أو أوسلو أو زيوريخ نحو خمسة أمثال ثمنها فى مصر ! .. وقص الشعر ، يكلفك بين ثلاثين وخمسين قرشا ! .. الخ .. الخ .

حاجتنا الى دعاية « مادية » ، لا .. شاعرية !

• بقى أن تعرف تلك الشعوب كل هذه الحقائق عن بلادنا ، كى يتهافت السياح عليها كما يتهافتون الآن على اسبانيا وهم يلهجون بالحديث عن أسعارها التى « فى رخص التراب » ! .. **ولا أدرى لماذا لاتتضمن نشرات مصلحة السياحة التى توزع فى الخارج اشارة أو تنويها عن أسعار الاقامة فى فنادقنا ، وأسعار الوجبات فى مطاعمنا ؟ ! .. ان دعاية من هذا النوع أجدى لنا عند تلك الشعوب ذات العقلية « المادية » من مجرد الاشادة الشاعرية بعراقة تاريخنا وأهمية آثارنا !**

أعود من هـذا الاستطراد الى حيث كنت أتحدث عن مدريد . ولكن ، كفى مدريد هذا القدر من الحديث اليوم ، فتعال نودع ـ الى حين ـ هـذه العاصمة التى تموج بمليون ونصف مليون من البشر المرحين .. هذه المدينة التى تتيه دلالا بنفسها وهى تتمطى فى تكاسل فوق روابيها الخضر ، على ارتفاع ألفى قدم عن سطح البحر .. ولنهبط من « أعلى عواصم أوربا » ، الى .. الى أين ؟

ولكن .. لنستكمل الحديث فى العدد القادم ! .. فالى اللقاء !



قراءات ومشاهدات



الحرب .. فى نفوسنا !

عام جديد يبدأ ، ونذر الحرب تخيم على العالم، وتبث الخوف فى البشرية .. فهل من أمل فى أن يحمل العام الجديد من الاسباب ما يبدد غيوم الحرب ، وما يمحو الخوف عن قلوب البشر ؟ .. ما أحلى أن نتجه - فى هذه المناسبات - الى الناحية الروحية ، وأن نقرأ معا هذا التحليل الرائع للحرب وأسبابها ، نقتطفه لك من كتاب ((الحياة تستحق أن نحياها)) ، لفولتون شين .. وهو من القادة الدينيين الذين يجاهدون فى أمريكا ضد الجشع والانانية وروح الطغيان، التى بثتها المادية فى نفوس الناس:

للسلام عام .. وللحرب ١٤ عاما !

• **عكف** أحد أساتذة التاريخ فى (بروكسل) - منذ أعوام - على دراسة جميع الحروب التى شهدتها الدنيا منذ سنة ١٤٩٦ (ق . م) الى سنة ١٨٦١ بعد الميلاد ، فاذا بالحروب تشغل ٣١٣٠ سنة من هذه الفترة التى تبلغ ٣٣٥٧ سنة .. **أى أن السلام الشامل لم يسد العالم لاكثر من ٢٢٧ سنة ، وبمعنى آخر ، ان كل عام من السلام ، كانت تقابله ١٤ سنة من الحروب !** .. ولقد لاحظ البحاثة - أثناء الدراسة - ان الفترات بين الحروب تزداد قصرا باطراد . فقد كانت الفترة بين حروب نابليون ، وحروب فرنسا وبروسيا ٥٥ سنة .. وكانت الفترة بين هذه الاخيرة وبين الحرب العالمية الاولى ٤٣ سنة .. والفترة بين هذه وبين الحرب العالمية الثانية ٢١ سنة. **وها نحن أولاء نعيش فى خوف من انتحار شامل ، ولما تنقض على النهاية الحقيقية للحرب الثانية ١٤ سنة !**

وإذا ما تحولنا الى دراسة وسائل تحقيق السلام ، وجدنا

أن معاهدات السلام التى أقرتها عصبة الامم بين سنتى ١٩٢٠ و١٩٣٩ – عند بداية الحرب الثانية – بلغت ٤٥٦٨ معاهدة .. فى ١٩ سنة ! .. وقد أبرمت ٢١١ معاهدة منهـا فى الشهور الاحد عشر التى سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة . أفليس هذا دليلا على أنها انما سجلت على الورق دون القلوب ؟

الحرب انعكاس لشر فى نفوسنا

• **ان** الحروب تنبعث عن الانانية والجشع .. كل الحروب ترجع فى أصلها الى حروب تدور فى نفوس ملايين وملايين من الافراد . فما جدوى الغاء الظروف الخارجيـة المؤدية الى الحروب ، اذ ظلت الظروف الداخلية فى طوايا النفوس ، من أنانية ، ومن بغضاء للجـار ، ومن تعصب دينى ، وتعصب عنصرى ، ومن نسيان لله ؟

ان العدوان والبغى لا يقومان ما لم تكن روح الانانية كامنة فى بعض العقول . **فما من شىء يحدث فى الدنيا ، ما لم يحدث أولا فى دخيلة قلوب البشر ، وما الحرب – فى الواقع – سوى انعكاس للشر الذى فى نفوسنا . وعلاقة الحرب بنسياننا الله أعظم مدا نتصـور !** .. ذلك لان الله قد أودع الـكون قوانين معينة ، يتسنى للامور بمقتضاها أن تبلغ الكمال اللازم . وهذه القوانين تنقسم – بوجه عام – الى نوعين : قوانين طبيعية ، وقوانين خلقية . فالطبيعية – مثـل قوانين الفلك ، وعـلم الطبيعة – تعتبر فى الواقع صورا منعكسة عن الحكمة الالهية ، فقد خلق الله الاشياء لتسير بشكل معين .. فالحصاد جزاء البذرة التى غرست

الحرية تغرى الانسان بتحدى خالقه

• **ولكن** الله لم يخلق الانسـان ليكون كالشمس ، تشرق وتغرب فحسب . وانما خلقه ليكون حرا ، ومنحه قانونا فوق

القانون الطبيعى .. ذلك هو القانون الخلقى . فاذا خرق الانسان هذا القانون ، كانت النكبات والحروب جزاءه !

((ابتسامة ما)) .. بين الفيلم والقصة

• **عرضت دور السينما – فى الشهر الماضى – فيلمين مأخوذين عن قصتى الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان : ((صباح الخير يا حزن !)) – التى سبق أن قدم لك ((كتابى)) ملخصها فى العدد ٤٩ – و ((ابتسامة ما !)) .. وبينما ظفر الفيلم الاول بنجاح كبير ، لا يقل عن نجاح القصة عند نشرها لاول مرة ، اذا بالفيلم الثانى يصدم كل من شهده ، فقد عجز المخرج عن أن ينقل – خلال مناظر الفيلم وحواره – ((جو)) القصة وفكرتها ، وأوحى الى من لم يكن قد قرأ القصة من قبل ، أنها قصة ضعيفة فارغة ، فى حين أنها تصور خير تصوير ، ذلك الفراغ الذى تعانيه الفتيات المراهقات ، كما تبين لنا الانحلال الذى أصاب الاخلاق فى المجتمع الفرنسى .. ولعل عجز المخرج نجم عن أن قصة ((ابتسامة ما)) ، تعتمد على التحليل أكثر منها على الاحداث .. كما تستطيع أن تلمس من هذا الملخص :**

كنا نقضى الامسية فى مقهى صغير بشارع (سان جاك) ، حين تولانى الضيق ، فنهضت الى آلة التسجيل ، ورحت أرقب ((الاسطوانة)) وهى ترتفع قليلا ثم تهبط ، ملتقية بالابرة فى رفق ، وكأنها خد ناعم .. وشعرت بسعادة هادئة ، لم أدر مأتاها . ولكنها لم تدم طويلا ، اذ اعترانى هاجس غريب بأننى سأموت يوما ، وبأن يدى ستبلى ، ولن يقدر لعينى أن ترى الشمس بعد ذلك !

وفطنت الى أن ((برتران)) كان يرقبنى ، ثم لم يلبث أن



نهض مبتسما ، وسعى الى .. لقد التقيت به فى العام الماضى ، ونحن نؤدى الامتحان ، فعشنا أسبوعا كله قلق واضطراب .. وفى الليلة الاخيرة — قبل أن أرحل لاقضى المصيف مع أهلى — قبلنى ! .. وتوالت رسائله بعد ذلك ، عادية — فى بادىء الامر — ثم أصبحت تدور حول الحب .. وتصارحنا الحب ، ونعمنا به !

ووقف « برتران » خلفى — ملتصقا بى — وقال : « أتحبين هذه الاسطوانة ؟ .. لشد ما أحبها ! » . فقد سمعناها سويا عندما التقينا أول مرة . **ولكنى تضايقت لهذا التلميح ، فى الحديث العاطفى ، والاشارات الى الماضى تشعرنى بأننى .. تافهة ،**

ولم يلبث « برتران » أن دعانى الى أن أرافقه ، اذ كان ذاهبا للقاء خاله ، الذى عاد من الخارج أخيرا .. ولم أكن أعرف هذا الخال ، ولكنى كنت أنساق للغير دائما ! ..

وراح « برتران » يحدثنى عن خاله ، ونحن فى الطريق .. تكلم عن رحلاته ، ومغامراته التى يعتبرها مجرد تظاهر فارغ تافه ! .. وكنت أستمع اليه ضاحكة ، فهو يحاول دائما أن يكشف تظاهر الناس ، وأن يحلل نفسياتهم !

* * *

ووجدنا خاله — فى انتظاره — الى منضدة خارج المقهى ، فما أن رأيته ، حتى صارحت « برتران » بأن مخايل الطيبة والهدوء تبدو عليه . وقال له برتران : « لوك .. لقد أحضرت معى صديقتى دومينيك ! » . **واضطربت قليلا وهو يقدمنى الى خاله .. كانت له عينان رماديتان ، وعلى وجهه امارات**

الاسى والتعب . ولكنه كان جميل الطلعة .. وما لبث «برتران» أن ذهب لشراء سجاير ، فسألنى خاله : « وماذا تفعلين الى جانب الامتحانات ؟ » . فقلت : « لا شىء ! »

ورفعت يدى لكى لا أشجعه على الكلام ، ولكنه أمسك بها ، فنظرت اليه ذاهلة .. وفى لحظة قصيرة ، حدثتنى نفسى بأننى أحبه .. انه يكبرنى حقا ، ولكنى أحبه ! .. ولفرط لطفه تمنيت أن يكون صديقا لى .. وتملكتنى الحيرة عندما دعانا — بعد عودة برتران — الى العشاء معه هو وزوجته ، بعد ذلك بيومين .. وقضيت اليومين فى قلق وضيق ، وأنا حائرة فيما ينبغى أن أفعله فى الحياة : هل أعمل للامتحان الذى لن يوصلنى الى شىء ما ؟ .. أو أقنع بحياة الدعة والخمول وأترك « برتران » يحبنى ؟ .. قد كنت حقيقة معجبة به .. وهل ينكر الانسان الثقة ، والرقة ، والتقدير ؟ .. ولكنى — مع ذلك — كنت اشعر بالوحدة والضيق والتعب .

* * *

وفى يوم الدعوة الى منزل لوك ، ذهبت الى صديقتى « كاترين » لزيارتها .. كانت كاترين حلوة وجميلة ، لا تعيش بلا حب . ولم أختر صداقتها ، ولكنها فرضتها على فرضا ، اذ كانت تعتبرنى ضعيفة لا حول لى ولا قوة .. ولقد حدثتها عن العشاء مع خال برتران . وفى نفس اللحظة ، فطنت الى أن « لوك » تسلل من ذاكرتى فتضايقت وتألمت ! .. ولم أعد متحمسة لزيارة « لوك » ، بل اعترانى شىء من الخوف وأنا ذاهبة اليه . فقد كنت مضطرة الى أن أتكلم ، وان أبدى ما يعطى مضيفى صورة عنى !

وكانت زوجة خاله لطيفة ، مشرقة الوجه ، طيبة الروح ، رقيقة ، تميل الى السمرة والبدانة .. ولم يكن جمالها صارخا . فقلت فى نفسى : انها من ذلك النوع من النساء الذى يحب

الرجال الاحتفاظ به . وقارنتها بنفسى ! .. ووددت و أن برتران طمأننى ، فأمسكت يده .. ولم أرفع صوتى أبدا ، بل رحت أربت شعره ، فان يدى تحب شعره الدافىء الكثيف !

وأصبحت « فرانسواز » صديقة لى منذ البداية ، فسرعان ما زال عنى الاضطراب الذى تملكنى منذ دخول المنزل ! .. وما لبث « لوك » أن جاء ، فبدا لى أنيقا ووجيها .. وآلمنى أنه لم يكن لى . وهفت نفسى الى أن أحتوى وجهه بين يدى ، وان أضغط على شفتيه الجميلتين بشفتى .. لم يكن لوك جميلا جدا ، ولكن شيئا فى ملامحه وشكله جعل هذا الوجه — الذى لم أره سوى مرتين — أحب الى من وجه « برتران » الذى ألفته .. فلما فرغنا من العشـاء ، وجدتنى ألازمه ، وقد كدت أنسى « برتران » !

والتقينا — نحن الاربعة — بعد ذلك كثيرا . ثم قدر لفرانسواز أن تتغيب عن باريس لعشرة أيام ، فذهبنا لوداعها فى محطة ليون .. وفى طريقنا العودة ، توقف برتران ليشترى بعض الصحف ، فنظر الى لوك ، وقال بسرعة : « هل تتناولين العشاء معى غدا ؟ » . وكنت على وشك أن أستمهله ريثما أسأل برتران ، ولكنه قال بنفس السرعة : « سأكلمك تليفونيا ! » .. وفى تلك الاثناء ، عاد برتران ، فأمسك بذراعى قائلا : « هيا يا دومينيك ، فقد حان موعد الدرس .. يجب أن نسرع ! » .. وتبادل مع « لوك » نظرات مريبة غامضة !

ووقفت فى استخذاء ، وقد شعرت بأن رحيل فرانسواز سيجعل موقفى محرجا .. ولم أفقه شيئا من المحاضرة — التى كان موضوعها « الاخلاق عند أبيقور » — فقد كنت أفكر فى لوك .. انه يريد أن يكون معى ، بمفردى !.. وشعرت بغبطة !

* * *

وكان موعد العشاء فى اليوم التالى ، فرحت أتصور « لوك » وهو مقبل على فى اضطراب يشى بعاطفته وحبه ! .. ولم يصل

الا متأخرا ، وكان شارد العقل .. ووددت من كل قلبى لو حدثنى عن عاطفته ، ولكنه لم يفعل ، وان راح يكلمنى فى سهولة بددت عنى الحرج . واقترح أن نذهب الى مكان حيث نستطيع أن نرقص بعد العشاء ، فذهبنا الى ملهى «سونى» . وما كدنا ندخل الملهى ، حتى اندفع اليه بعض أصدقائه ... لكم كنت غبية عندما ظننت أننا سنكون وحيدين .. وعندما نظرت الى النساء الجالسات معنا ، تأكدت من أننى لا أزال أفتقر الى الاسلوب والذوق والرقة .. وعند منتصف الليل كانت شخصيتى – التى كنت أحملها طول اليوم – قد تضاءلت فى نظرى .. ورحت أرقب نفسى فى خجل ، وفكرى ينادى « برتران » الذى كنت أبدو لعينيه جميلة !

وبعد أن تركنا ملهى « سونى » ، أخذنى « لوك » الى بار أنيق فى شارع (ماربيف) . وهناك شرع يتحدث عن الحب ، قائلا انه شىء جميل ، وان أساس السعادة هو أن تحب وأن يحبك الناس ، وانه سعيد لانه يحب « فرانسواز » ، وهى تبادله هذا الحب .. ثم استدرك قائلا انه – مع ذلك – لا يمانع فى أن يكون بيننا شىء ما ! .. وضحكت مشدوهة ، وسألته : « وفرانسواز ؟ »

ولا بد أن منظرى كان يدعو للرثاء ، اذ انه انحنى فقبل خدى قائلا : « لكم أرثى لك، ولكنك لست أكثر تمسكا بالاخلاق منى .. انما أنت رقيقة ، ومعجبة بفرانسواز .. وآمل ان لا تضيقى بى كما تضيقين ببرتران » . وانفجر ضاحكا ، فتألمت . ولكنه عاد يقول : « لا تهتمى ، فأنا أحبك ، ومن أجل هذا نضحك معا ، ونلتقى .. وحسب ! » . فقلت : « اننى احتقرك ! » .. وتعمدت أن أبدو جادة، ولكننا لم نلبث أن انفجرنا ضاحكين .

وعندما خلوت الى نفسى – فى بيت الطالبات – وجدتنى أفكر فى الامر .. كان ما اقترحه «لوك» مجرد تسلية ، ولكنها تسلية تهدد عواطفي نحو «برتران» . وكان ثمة شعور داخلى

يعارض الامر ، ويذكرنى بما فيه من خطورة . وعولت على أن أكف عن التمادى ، ولكنى تذكرت ما قالته لى فرانسواز مرة ، من أن من العسير أن أنسى « لوك » أو أنأى عنه ، اذ أنا ألفته .. ورأيت أن من العبث أن أتحكم فى الامور ، فتركتها تسير فى مجراها !

واصبحت شاردة الفكر ، حتى وأنا مع « برتران » وأصدقائنا الآخرين .. كنت فى حيرة اليمة جعلتنى اشعر بتخاذل ووهن . فقد كانت حياتى تنقضى دون أن أنعم بشىء ! .. وتمنيت لو كان الى جانبى انسان أضمه الى صدرى بعنف .. وحسدت أولئك الذين يعيشون فى بهجة الحب وهناءته !

وخرجت مرارا مع « لوك » ، فى الاسبوعين التاليين . ولكن أصدقاءه كانوا يحيطون بنا فى كل مرة ، فلم يشر الى اقتراحه السابق ، مما أراحنى وخيب أملى .. حتى اذا عادت « فرانسواز » الى باريس ، ذهبت للقائها مع « لوك » .. ولم يرافقنا « برتران » ، اذ كان قد بدأ يتجنبنى ! .. **ووصلت « فرانسواز » فاذا بها متهللة الوجه . لكم كانت شديدة الود ، حتى اننى سررت لان شيئا لم يحدث بينى وبين « لوك » ، ومن ثم فقد كان لعلاقتنا ـ نحن الثلاثة ـ أن تدوم !**

واستطاعت « فرانسواز » أن تغرينى بأن أذهب معها ومع لوك الى مزرعة أم برتران ، لنقضى عطلة آخر الاسبوع ، فلما حاولت أن أعتذر متعللة بأننى لم أتلق دعوة ما ، وان العلاقة بينى وبين برتران غير طيبة ، أكدت لى أن الشاب طلب الى والدته دعوتى ، ليزيل كل فتور بيننا .. وهكذا انطلقنا ـ نحن الاربعة ـ فى الطريق الزراعية ، بعد ظهر يوم بديع ..

واذ وصلنا ، قادتنى « فرانسواز » نحو المنزل الكبير .. ورحت أفكر فى أننى أحبها ، حتى لاود أن أذهب الى أى مكان بعيد ، كى لا اكون سببا فى أى الم أو تعاسة لها .. وأقبلت أم برتران تستقبلنا ، فراحت تتأملنى فى امعان ، كأى أم يدعو

ابنها الى دارهما فتاة لاول مرة ! .. ولما تبين برتران أننى أعجبت بالمنزل ، قال : « أن حجرتى بجوارك مباشرة ! » . ثم احتوانى بين ذراعيه ، وقبلنى بحنان .. وأدركت أن لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى منزل أمه ، قيمة خاصة لديه !

وكان ثمة ضيوف من أصدقاء أم «برتران» ، لم أرتح اليهم . وما فرغنا من العشاء ، حتى قال لى لوك : « تعالى نتنزه فى الحديقة ! » . فقلت : « أفى الظلام ؟ .. ماذا يقول برتران ؟ » .

وقادنى الى جزء مظلم من الحديقة ، فأخذت أرتجف موجسة ، وتمنيت لو كنت بين أهلى وأسرتى . واذ قلت للوك اننى أرتجف ، ضمنى بين ذراعيه دون أن يضحك ، فتمنيت أن يكون هكذا دائما ، صامتا ، صارما ، متسلطا .. وملت على كتفه ، وقد أغمضت عينى .. وبدت لى الايام الماضية مجرد لحظة عابرة ، ازاء اللحظات التى رحنا نعيش فيها ، ويدا « لوك » تمسحان على وجهى برفق ، وفمه الرقيق الدافىء مطبق على فمى .. واشتدت قبضته ونحن نتبادل القبل .. ولففت ذراعى حول عنقه ، والتصقت به ، اذ داخلنى الخوف من كل شىء ، حتى من نفسى ! .. وما لبث أن انفلت منى ، فسرنا فى الحديقة دون أن نتكلم .. ورحت أتصور مدى سعادتى لو انه ظل يقبلنى حتى الصباح !

وآويت الى مخدعى وانا أتلهف الى ان اخلو الى نفسى فى الظلام ، لاستعرض اللحظات الحلوة .. وتمنيت لو أننى جئت الى الحياة قبل ذلك بعشر سنوات .. قبل أن تدخل فرانسواز حياة « لوك » ، فكنا نستمتع بالحياة معا ، بدل أن نجد أنفسنا فى طريق مسدود .. أجل ، مسدود ! .. وربما كان هذا هو السبب فى أننا لم نخترقه ، ولم نمض فيه رغم جرأتنا ! .. اذن فلا بد من أن أهرب من لوك ، وأبتعد عنه !

على انه لم ينقض يومان على عودتنا الى باريس ، حتى وجدتنى أخف للقاء « لوك » فى الساعة السادسة مساء ، فى

مقهى على خليج (فولتير) . ودهشت اذ تبينت على أساريره معالم الاضطراب والضنى . وسألنى عما اذا كان برتران مستاء ، فسألته متغابية : « ولماذا يستاء ؟ » . فقال : « لانه ليس غبيا ! » .. وسألته عن فرنسواز ، فقال : « لقد تزوجنا منذ عشر سنوات ، فانفسحت لدى الفرص لارى فرانسواز تتألم ! » وصمت برهة ، لعلنا رحنا نتصور - خلالها - ما تقاسيه فرانسواز . ثم أردف قائلا : « لقد أحببت أخريات ، فلم تعلم فرانسواز عنهن شيئا . وليس الامر خطيرا بالنسبة اليك ! .. لا شيء فى هذه الحياة يبدو خطيرا .. ولا شيء يهمنى سوى .. فرانسواز » .. ولم أشعر بألم أو ضيق ، وكأننى أنصت الى فيلسوف لا تربطنى به صلة . وواصل حديثه قائلا : **« ولكن الامر يختلف بالنسبة اليك .. كنت أريدك - فى أول الامر - كما يريد المرء قطة برية يود أن يروضها ، ولم أكن أحسب .. أننى سأحبك ! .. اننا متشابهان الى حد كبير ، ولكنها مخاطرة أن تتصلى بى ، مسلمة نفسك للالام ..** على أن هذا أفضل بكثير من الضيق الذى يلازمك .. كونى سعيدة مرة ، ولن يهمك ما تتعرضين له من شقاء بعد ذلك ! »

وأسرعت - بعد أن فارقته - الى مقهى (سان جاك) ، واندفعت الى « برتران » ، الذى كان يجلس وحيدا ، وتجلى عليه السرور ، وهتف : « لقد كنت أفكر فيك .. اننا لم نرقص معا منذ مدة طويلة ! » .. ولم يكن فى قاعة الرقص كثيرون ، فشعرت بأنها كانت قاعة خاصة بنا .. ورقصنا حتى الفجر !

ولم أر « لوك » فى الاسبوع التالى سوى مرة واحدة ، اذ أقبل لزيارتى فى « بيت الطالبات » .. ودخل حجرتى - وانا أستذكر دروسى - فركع الى جوارى ، واحتضننى دون أن يتكلم .. وعندما أطبقت شفتاه على شفتى ، شعرت بأننى لم أعرف أحدا قبله .. وتمنيت ان أسلم رأسى الى كتفه ، وأبثه أساى وضناى لاننا لانستسلم للحب !

وانتهى العام الدراسي، فرحلت الى منزلنا الكبير، على ضفة نهر (اليون) .. لكم كنت أحب الاشجار الظليلة ! .. وكان أخى قد مات — منذ خمسة عشر عاما — فأثرت الصدمة فى أمى، وأصبحت الكآبة تسيطر على البيت كله !

ولم ألبث أن تلقيت من «برتران» رسالة غريبة، غامضة، أدركت منها أنه شعر بأننى لم أعد أحبه، فأخذ يسعى ورائى، مما آلم نفسى ! .. أما « لوك »، فقد ظل طويلا دون أن يكتب الى . حتى كان ذات يوم، واذا بالخطاب المرتقب يصل، ليبشرنى بأنه سيكون فى (افنيون) فى الثانى من سبتمبر . فقررت أن أذهب اليه، واستعنت بزميلتى « كاترين » لاقنع أهلى بأننى ذاهبة الى (الريفيرا) فى ضيافتها !

ووجدت « لوك » فى انتظارى، فاستقبلنى فى سرور، نزلنا فى غرفة واحدة فى فندق يطل على البحر .. على أن نقضى أسبوعا واحدا، ولكنا قررنا أن نمكث أسبوعا آخر .. وشعرت بأننى لن أرتاح مع أى انسان غير « لوك » .. لقد خلق كل منا للآخر، ولكن القدر كان يأبى الا أن أعيش وحيدة، أصارع نوبات اليأس والخيبة .. **ولكن اللحظات التى كنا فيها معا، كانت لحظاتنا .. كانت ملكا لنا . ولم يهمنى أن كان ما ربط بيننا حبا أو صداقة، وانما المهم أننا كنا معا !**

وعدنا الى باريس، فبلغناها فى ساعة متأخرة من الليل .. ونظرت الى وجه « لوك »، فاذا به مكفهر . ولكننى كنت مسرورة لاننا عدنا من مغامرتنا فى خير حال، وكنا عاقلين !..

وانقضى يومان لم يتصل خلالهما « لوك » بى، فرجح عندى أنه قد تشاجر مع « فرانسواز »، وتولانى خجل طاغ .. ولم أطق — فى اليوم الثالث — صبرا، فأرسلت اليه مذكرة رقيقة، واذا به يحدثنى تليفونيا، معتذرا بأنه كان فى الريف . ودعانى الى مقابلته، فعجبت اذ وجدته هادئا رزينا، بينما كنت مرحة

وبعد يومين ، ذهبت لتناول الغداء معه ومع فرانسواز فى مسكنهما . وكنت مضطربة ، ولكن ابتسامة فرانسواز ردت الطمأنينة الى نفسى .

وفيما كنا نتكلم ، أدار « لوك » اسطوانة لحن كنا قد سمعناه معا ، على شاطىء البحر ، فتولانى الاضطراب .. وودت ان أجرى مبتعدة عن الزوجين ! .. ووجدتنى أسأل فرانسواز : « لماذا تحبيننى ؟ » . فقالت : « لأن لك عين روح لوك .. روح قلقة ، لا تلقى السعادة والراحة الا فى صحبة الآخرين ممن على شاكلتى ! »

وانتهى الصيف ، واستقر بى المقام فى باريس ثانية . وعندما التقيت ببرتران ، صارحنى بعلمه بما بينى وبين لوك ، وقال انه يأبى أن يتقاسمنى مع رجل آخر ..

وتركته وأنا أشعر بأن العام الدراسى بدأ بداية محزنة .. كنت متعبة ، والحياة تبدو لى كدوامة مظلمة .. وشعرت بأننى فى حاجة ماسة الى « لوك » ، ولكنى عولت على أن لا أسأله شيئا ! .. فلقد تبينت أن غرامى به محفوف باليأس !

وزاد الامر سوءا ان أخبرنى « لوك » بأن فرانسواز علمت بعلاقتنا ، وانها جد حزينة .. ولم أدر ماذا أفعل .. ولكنى كنت أحبه ، ولم يكن يملك ازاء حالى شيئا ! .. لم يكن يستطيع أن يتخلى عن زوجته ، فقد كان يحبها .. ورحت أتعذب فى صمت !

والتقيت بلوك فى احدى الامسيات ، فمضينا — فى سيارته — موغلين فى الغابة .. وأخبرنى بأنه اعتزم أن يقضى فى أمريكا شهرا ، أنساه خلاله .. وتطلعت اليه ، فاذا وجهه مربد حزين ، وقد شعر بما أقاسى .. لم يكن مجرد رجل لى ، بل كان صديقا كذلك .. **وتعلقت بعنقه ، وأنا أهتف : « لا .. لا تتركنى .. لن أستطيع العيش بدونك ! » . واحتوى رأسى بين راحتيه ، وقبلنى فى رفق قائلا : « يا حبيبتى الحلوة .. الشقية ! » .**

وكانت فى صوته عاطفة صادقة ، فتشبثت به ، وودت لو أنصهر وأمتزج به !

وسافر ! .. فلزمت الفراش اعياء وضنى .. وبدأت فى أعماقى معركة حامية ، يذكى أوارها الخيال والذاكرة .. وكنت أنبه نفسى الى أنه لم يكن حبا متكافئا ، ولكن هذا لم يخفف من حزنى ، ولوعتى ، وهذيانى .. ثم نشط عقلى ليغالب عاطفتى ! .. وتغلبت على المرض أخيرا .

واذ بدأت أسترد صحتى ، دعتنى « فرانسواز » الى مسكنها يوما . واستقبلتنى وعلى شفتيها شبح ابتسامة ، ولكن الاضطراب الذى سادنا ، جعلنى أوقن من أن الود الصادق الذى كان بين ثلاثتنا ، قد ولى وانقضى .. وراحت تتأملنى طويلا ، ثم قالت : « كنت أريد أن أتحدث اليك قبل الآن ، لان « لوك » طلب الى هذا .. وكم تألمت لانك هنا — فى المدينة — وحيدة .. انك لا تبدين بخير ! » . ووجدتنى أقول لها وأنا أرتجف : « وكنت — أنا الاخرى — أريد التحدث اليك ، لاننى .. لاننى وحيدة .. كنت أتوق الى أن أحضر ، وأستلقى على هذا الانبساط ، لتعيدى الى الطمأنينة والابتهاج .. انك الشخص الوحيد الذى ألجأ اليه! »

وحملقت فى ، ثم تمتمت : « اننى أغار ! » . وكنت أتوقع كل شىء ، سوى هذه الكلمة .. وعادت تقول : « انها سخافة منى .. اننى أعرف أن ما حدث بينك وبين لوك لم يكن خطيرا » .. وبدا عليها أنها كانت تتألم . واستطردت : « ولكننى لم أعد صغيرة .. ولا مرغوبة ! » . ولم أكن أتوقع أن ينقلب الامر الى هذا الاتجاه المؤثر . ونهضت اليها ، فجلست الى جوارها ورأسى بين يدى ، وفى أذنى دوى مزعج ، وقد شعرت بأننى جوفاء . خاوية ! وتمنيت أن أنكمش بجانبها ، وأن انبئها بأننى أريدها أما ، لتزيل عنى شقائى . وقالت : « لسوف يعود لوك بعد عشرة أيام » . واهتز قلبى .. يجب أن تسترده



« فرانسواز » ، وأن تستعيد هناءها المفقود .. يجب أن أضحى !

ولكنى لم أكد أعود الى حجرتى ، وارتمى على سريرى ، حتى رحت أتصور « لوك » بعد عودته .. سيحتوينى بين ذراعيه ، ويضمنى الى صدره .. **سيكون قريبا منى ، ولو لم يكن يحبنى !**

ولكنه عاد ، ولم يتصل بى .. لم يكلمنى رغم أنه غاب شهراً .. وشعرت باليأس يفرى فؤادى .. وفى اليوم الخامس عشر تنبعث من « راديو » أحد الجيران .. **كان لحناً بديعا لموازر ، ينادى فيه الفجر والموت .. وابتسامة ما !..** واستلقيت على السرير دون حراك ، أنصت الى اللحن ، وقد غمرنى ارتياح عجيب .

وفجأة ، دعيت الى « التليفون » . وببطء ، ودون ما لهفة ، هبطت .. كنت أظن أنه « لوك » ، **ولكنى لم أعد أهتم .. انه شىء قد انتزع منى .. أفلت !**

ولا أدرى لم شعرت بالهدوء والطمأنينة ، حين سمعت صوت « برتران » .. ودعانى الى أن أتناول معه بعض الشراب فى اليوم التالى ، فقلت بلا تفكير : « أجل ! » . ثم عدت الى حجرتى ، وكلى اصغاء .. **ولكن اللحن كان قد انتهى ، فأسفت لاننى لم أسمع ختامه ! .. ونظرت الى المرآة ، فاذا بى أبتسم .. ابتسامة لم أحاول أن أكبحها ، وما كنت لاستطيع !**

ومرة أخرى ، شعرت بأننى كنت وحيدة ، وحيدة ، وحيدة ! .. ولكن .. ماذا يهم ؟ .. لقد كنت مجرد فتاة عشقت رجلا .. قصة بسيطة ، أليست كذلك حقا ؟!



وغاص فى الماء حتى أبطيه ، ثم أطلق النار على راسه .. وشبحا المدير والخادم لا يفارقه !

صورة من قسوة الاستعمار يرسمها ((سومرست موم)) فى ((أرواح هائمة)) .. فترقب ((مطبوعات كتابى)) بعد أيام .. واحجز نسختك من الآن .


قصة مصرية : بقلم : محمد بدر الدين خليل
فجر حياة جديدة

في مطلع العام الجديد .. عندما تدق الأجراس ، وترتفع الأصوات من الأعماق هاتفة : « المجد لله في الأعالي .. وعلى الأرض السلام .. وللنـاس المسرة » .. ما أحوج كلا منا ، الى أن يستقبل :

فجر حياة جديدة ..

ـ والآن .. عدت يا طارق ؟

ـ عدت .. وأية عودة يا راقية ! ؟ . عدت لاعتكف ..

ـ تعتكف ! ؟ .. أين ؟

ـ في معبد الذكرى !

ـ ولماذا ؟

ـ لاكفر عن خطيئتى ..

ـ هه ! .. الآن أدركت حاجتك للتكفير ؟

ـ رفقا يا راقية ، فما بك حاجة الى لومى . ألا يكفيك أنك أرسلت عينيك الساحرتين ، العاتبتين ، تتبعانى عاما بطوله ، وأنا عاجز عن التحرر من قيودهما ، والتخلص من سياط لومهما ؟

ـ كفى تلاعبا بالالفاظ ! .. محال ياشاعرى أن أغتر ثانية بلهجتك الساحرة ! .. كيف ترسف في اغلال عينى كما تزعم ، ثم تظل في الغواية سادرا !

ـ الامر بسيط .. أرأيت الغريق مكمم الفم ، مكبل اليدين ، موثوق الساقين ، يحمله السيل في تياره الجارف .. كذلك كنت أنا والغواية !

ـ رائع ! .. أسلوب شاعر ، وتعليل أديب لا تعوزه الحيلة .. ولعلك جئت اليوم تطلب التوبة ، وتستغفر لذنبك ، اذ كتبت اليك أطلب رسائلى ؟ ! .. أم تراك طمعت في أن تغرينى بأن أرفض الخطيب الجديد ، كما رفضت سواه من قبل ؟ .. ولكنك لن تفلح يا فتاى ، فلقد أيقنت أن ما زعمته حبا ، لم

يكن سوى لهو ، فودعت أحلام الهوى محسورة ، واستكنت للواقع الملموس ..

– كفى يا راقية ، فلن تدركى مدى اساى .. ان حديثك القاسى ينكأ جراح الفؤاد ، فتنزف عصارة أحاسيسى وأعصابى .. كفى ، فقد كنت مجنونا ، فلما ثبت الى رشدى ، أصابتنى صدمة خطبتك ، فأوشكت أن تسلمنى الى جنون أعتى وأقوى ..

وألقى الشاعر الشاب مسماع المسرة من يده، كى لا يستمع الى مزيد من لوم فتاته « راقية » .. الحسناء الحبيبة ، التى أعشى عينيه بريق الغواية فهجرها .

وغاص فى مقعده متهالكا ، وهو يلهث ، وكأن على صدره عبءا ثقيلا جاثما .. ومد يده فى وهن الى درج من مكتبه ، فأخرج مجموعة من رسائل زرقاء ، ضمها شريط حريرى من لونها .. وشرع ينشر الوريقات ، فيرسل نظرة اثر خطوطها ، يعيد تلاوتها وكأنه يتزود بنظرة أخيرة اليها .

وتحول يفكر .. شد ما كان يعانى الشوق والحنين فى انتظار كل خطاب من هذه الخطابات الغالية ! .. ولكم كان يتلقاه فى لهفة ، اذا وافاه أخيرا ، فينفرد بنفسه ، ويفض غلافه فى رفق وعناية ، كفنان يزيح الستر عن تحفة ثمينة ! .. ثم يقبل فى عطش على تلك العبارات المنسابة كجدول رقراق صاف ، يحمل اليه رحيقا يطفىء ظمأ الروح والفؤاد .. **كانت كل عبارة وحيا يتغلغل فى أعماقه ، لتحوله حرارة الوجد الى بخار يظل يتصاعد حتى يزحم رأسه فتوشك جدرانه أن تنفجر تحت ضغطه .. واذ ذاك ، كان يسارع الى قلمه ، فما هو أن يمسكه ، حتى يندفع الوحى يجريه ، ليسطر شعرا يفيض حياة وتعبيرا !**

كم من قصيدة أوحت اليه بها رسائل « راقية » ولقاءاتها ، فأذاعت اسمه ، ورقت به سلم المجد !

وعادت قوافل الذكرى الضاربة فى بيـداء عواطفه ـ التى أجدبها اندفاعه فى العبث خلال العام الاخير ـ تتقهقر باحثة فى الماضى عن واحات تحط بها . تذكر حياة البادية التى طلقها من أمد بعيد .. كان قد ألف الحياة الصاخبة فى القاهرة ، حيث وجد عملا يربطه بالمدينة .. وأخذت روحه الشاعرة تحلق فى سماء المجد الادبى، وأومضت قصائده ترصع صفحات المجلات ، ثم .. **تعرف الى ((راقية)) ، فاذا قوة خفية تدفعه اليها .. ولم يدرك حتى يومه لم اختارتها روحه ، دون سواها من فتيات المجتمعات التى كان يغشاها ، فراحت تحوم حولها ! .. ولكنه شعر بعاطفة لا قبل له بمقاومتها ، فاستسلم لمشيئة الروح الهائمة ، وأسلمها زمام قلبه !**

وأحب «راقية» .. وأحبته ، لا لانه كان يختلف عن شباب المدينة الذى أسرف فى التنعم ، ولا لسمرته الخشنة ، وقوامه الفارع ، ورجولة البدو التى لازمته .. وانما لروحه الحالمة ، و .. لسبب لم تدرك كنه تفسيره هى الاخرى .. لعله كان نداء تردد فى آفاق خيالها ، فأنصتت له روحها فى لهفة ، ثم استجابت لدعائه !

وفنى العاشقان فى غرام برىء رفيع ، كان يسمو بهما الى عالم تشيع فيه موسيقى قدسية ، ويعبق جوه بشذى عطرى، يتصـاعد من بخور روحيهما ، يحـرقانه ليتعالى فى صـلاة صامتة ، الى أعتاب الحب !

ولكن الحال لم تدم ! ..

خيل للشاعر أن قلبه مل الحياة السائرة على وتيرة واحدة .. لا لنكران ، ولا لجحود ، وانما لغريزة فى نفسه .. **غريزة البدوى لا يستقر فى مضرب طويلا ، بل هو دائما فى تنقل وراء الماء والمرعى !**

وغره سراب اللهو والغواية ، فتابعه ! ..

عبثا نادته ((راقية)) ليرجع .. وعبثا حذرته من الطريق



الذى شاء أن يسلكه ، فقد أصم أذنيه . ومضى يقود الجمل الذى كان يحمل هودج قلبه فارغا ، مع الابل التى أطلقتها قافلة الفنانين والشعراء ، تضرب فى صحراء الحب ، بحثا عن واد بوهيمى موعود ..

ومر عام .. وأضنى المسير الجمل الذى حمل القلب الفارغ .. وانجابت الغشاوة عن عينى الشاعر ، فاذا به يرى هودجه الخاوى ، فيتحسر اذ يذكر الحبيبة التى كانت تشغله .. ويداعب بصره طيفها تحيط به غوانى الذكريات !

وحن البدوى الهائم الى واحته الناعمة .. بل تاق الطائر المحلق الى قفصه الذهبى ، ولكن صاحبة القفص صدته عن بابه ، فقد عن لها أن تعده لطائر يكون أكثر استقرارا ، فلا يهجره !

* * *

وجالت دمعة حزينة فى عينى الشاعر ، فتناول قلمه ، وراح يبث وريقة أمامه هموم القلب البائس النادم .. ومضى يسجل الوحى الذى واتاه فى غمرة الاسى ، فلم يحس براقية وهى تتسلل الى المسكن ، فتطرق باب غرفته طرقا هينا ، تستأذنه فى الدخول ..

وفطن الى مقدمها ، فغشيه ألم لاستئذانها .. وأحس فى هذا الاستئذان لوما قاسيا ، فما عهد المسكن براقية أن تتهيب دخول أى من حجراته !

وجلست بعد الحاح .. ثم بادرته فى جد لاح أنه كلفها عناء وألما : « هل أعددت الرسائل .. ؟ »

وود لو يذكرها بغرامهما ، ويتوسل اليها بذكرياتهما الخاليات ، عساها تقبل توبته ، وترضى بعودته .. ولكن كبرياءه طغت على حنين قلبه ، فقدم الرسائل الى الحبيبة الغاضبة .. ولاحظت « راقية » اضطرابه .. وخفق فؤادها وهى تلحظ هزة الاسى تسرى فى كيانه .. وعلى غير وعى منها ، سمعت نفسها تسائله :

ـ طارق .. أحزين أنت حقا لفراقنا ؟

ـ وفيم يهمك أن تعرفى ؟ .. بربك دعينى يا « راقية » .. ما كان لى أن أطمع فى أن تربطى مصيرك وهناءك بنزوات شاعر ، متقلب .. لست أحقد عليك ، بل أنا أرجو لك السعادة ، وان كانت فى أحضان سواى !

وبسط يده بالخطابات ، فأمسكت طرفا منها . ولم يجسر أحدهما على أن يفلت أوريقات ليدعها للآخر ، بل ظلا مطرقين برهة ، حتى اذا رفعا رأسيهما ، تلاقت نظراتهما فى عتب صامت متبادل .. ولاحظت الدمع يتجمع حائرا فى مقلتيه .. ولاحظ مقلتيها تتواريان خلف طبقة رقراقة .. وقالت أخيرا فى رجاء :

ـ طارق .. ألا يمكن أن نبقى صديقين رغم ذلك ؟

ـ ولم لا ؟! .. كرم كدت أسبقك فألتمسه ، ولكنى خشيت أن لا يكون للمذنب أن يطمع !

ولاحت له أطياف الهناء الذى يوشك أن يحرم منه ، فهفت نفسه الى رغبة أخيرة ، تهدج صوته وهو يحاول مترددا أن يعرب عنها :

ـ راقية ! .. لكم يسعدنى أن .. لو سمحت ..

ولم يقو على أن يتم رجاءه ، فأطرق برأسه ، وراحت أصابعه تعبث بالوريقة التى أسر اليها بشجونه . وتابعت عينا

« راقية » بعض الابيات الحزينة ، فخفق قلبها لوعة ، وفارقها جدها المصطنع ، فتهالكت فى مقعدها ثانية .. وعاد يقول :

ـ راقية ! هذا لقاؤنا الاخير .. أفلا ترين أن من حق قلبينا علينا .. أعنى من حق هوانا الذى نختتمه ، أن نسبغ على اللقاء الاخير جوا من لقاءاتنا السالفة ؟ .. تعالى يا راقية نعش لحظة فى عالمنا المحتضر !

وطفحت أساريرها بفيض من حنان وحنين .. وتحشرج صوتها بغصة مكبوتة، وقالت : «طارق!هلا حدثتنى كما اعتدت أن تحدثنى فى الماضى .. حدثنى عن صحرائك ! »

ـ لقد هجرتها منذ سنوات عشر ، فتقطعت بينى وبينها الاسباب ..

ـ ولكن فى ذهنك صروحا من الذكرى .. أو على الاقل ، أطلالا ..

ـ طالما حدثتك عنها حتى لم يبق موضوع لحديث جديد

ـ ولكنى أحب سماع هذا الحديث المعاد مرة أخرى ..

ـ أو أخيرة .. يا الهى ! كدت أنسى أنه لقاؤنا الاخير !

وسيطر عليه وجوم مرير ، وهو يتصور الحرمان الذى كان موشكا على معاناته .. وروعه أنه لن يلبث ـ اذا فقد« راقية » ـ أن يغدو وحيدا فى الحياة ، فغص بريقه فى أسى ، وراح يفتش فى ذهنه عن رفيق يؤنس وحشته .. وأحس بقلبه يحن الى الصحراء .. لم يبق من يتلقاه بين ذراعيه ، ويضمه الى صدره ، سواها !

واستعاد رؤى الحياة التى كان يحياها قبل مجيئه الى المدينة الصاخبة .. كانت حياته هادئة ، صافية ، خالصة .. حياة طابعها طهر ، وصراحة ، واخلاص !

★ ★ ★

وكالحالم اذا ما تكلم فى نومه ، انبعث صوته يقول :

ـ انصتى يا راقية ! .. ها هوذا المؤذن يوقظ رجال

« النجع » فى هدأة الكون ، يدعوهم الى صـــلاة الفجر .. يا للصوت العذب الحنون ، الذى حرمت منه زمنا ! .. وهذا هو أبى يفارق مرقده ، ليمثل بين يدى الله ، يستقبل يومه بتقديم فروض الطاعة لسيد الكون ..

وخيل الى « راقية » أنها تنتقل معه ، فتقف الى جواره على كثيب من الرمال ، تشرف على نجع القبيلة .. ثم خيل اليها من جديد أنه ينأى عنها ، ليرتد الى الماضى .. وواتاها صوته وكأنه ينبعث من واد بعيد :

ـ ها هى ذى أمى توقظنى بقبلاتها الحنون .. وها هن أولاء نساء القبيلة يتسابقن الى البئر يملأن أوعيتهن .. ما كانت أمى تنطلق معهن، فقد كانت سيدة بينهن! .. آه يا « راقية » ! ليتك كنت معى ! .. يا للطبيعة الرائعة ! .. الشمس تبزغ فترسل أشعتها تحمل الدفء والخير والحياة .. وها هم أولاء رجال النجع ينشطون الى ابلهم ، فيربطون اليها محاريثهم ، ليفلحوا الارض .. ان هذه الارض التى يصفونها بالجدب تنبت خيرا وفيرا ! .. ألا ترين يا « راقية » هذه السحب التى تتجمع وتتكاثف فى السماء ؟ .. انها مزن هتون . يا لفرحة البدو بموسم الامطار ! .. ها أنذا أرى نفسى طفلا صغيرا ، أخلع عن قدمى « البلغة » الصغيرة الموشاة .. ان لها قصة ، ككل ذكرى من ذكريات الصـــحراء .. كان أبى يقسم أنهـــا صنعت فى « فاس » ، البلدة البعيدة القابعة وراء تلال تونس ، والتى كان أبى يروى لى الحكايات عنها .. **كان لها أمير شاب ، خرج يوما فى رحلة الى مراكش متخفيا ، ليعود فى فجر يوم ـ بعد شهر ـ حاملا على صهوة جواده ، فتاة فرنجية ، ذات شعر أشقر ، وبشرة ناصعة البياض ، وعينين زرقاوين .. يا للذة الذكريات ! .. لطالما حذرنى والدى من نساء الفرنجة ، وفتيات المدن !**

ـ أو تراك آسفا أنت اذ أحببتنى زمنا ! ؟

وبهت لسؤالها المفاجىء ، فصاح :

ـ لا يا « راقية » ، بل آسف اذ انسقت لغواية أشباه العذارى من نساء المدينة ، فتحولت عنك ، وألقيت بنفسي فى حمأة اللهو الآثم . لا .. **بل أجل .. انني آسف اذ أحببتك ، فقد تبينت أنني غير أهل لهذه الحظوة ! .. ولولا هذا الحب ، ما قدر لى أن أعكر عليك هناءك ، وأبعثك على الغضب ، وأذيقك الشقاء .. ولما حز فى نفسي أن أراني عاجزا عن أن أستعيد قلبك الغاضب .. وا حسرتاه ! ..**

ـ أنت قاس ! ولكن .. استمر !

وارتد الى ماضيه ، فاستطرد يقول :

ـ وها أنذا أخلع العباءة المصنوعة من وبر الابل ، فاستقبل المطر مع « سلمى » ، رفيقة صباى .. نرتع تحت وابله مرحين ، بينما تتعالى صيحات الفرح من الرجال ، وتملأ الجو زغاريد النساء .. فالمطر بشير الحياة والرخاء لاهل البادية !

وأطرق ، وكأنه يجتر الذكريات المختزنة .. ثم قال فى لهجة شابها الاسف :

ـ لو لم أفد على المدينة ، لكنت اليوم أعيش فى مضارب العشيرة .. ولكنت زوجا لسلمى ! ..

وهتفت « راقية » وقد وخزتها الغيرة : « أما قلت لك أنك نادم اذ أحببتني ؟ ! »

وأجفل .. وتطلع اليها وكأنه كان غافلا عما قال ، وهتف :

ـ هل ساءك ما قلت ؟ .. آه ، حديث « سلمى » .. كوني منصفة ، ولا تغضبي ! فما كان مقدورا أن نلتقي لو انني بقيت فى البادية ..

* * *

وعاد يتابع ركب الذكريات : « لولا كلمات نطق بها « مأمور المركز » اذ زار يوما مضاربنا ! .. فلقد نصح والدي أن

يرسلنى الى المدينة لاتلقى العلم .. وبكت أمى اشفاقا على من الغربة ، واشفاقا على نفسها من فراقى ، **ولكن أبى لامها فى رفق . فقد كان حفيا بها ! .. ما كان أجمل تلك العاطفة التى كانت تربط بينهما ! .. عاطفة صادقة ، سامية ، قوامها احترام متبادل ، واخلاص مشترك لا تجدينه فى غير البادية ! »**

وسرح بصره فى أفق الغرفة ، ثم قال : « ها هم أولاء شيوخ العشيرة يمتطون جيادهم يحفون بى وبأبى ، ونحن ننطلق الى أقرب محطة على الخط الحديدى الذى كان ينتهى الى الاسكندرية .. وها هو ذا القطار يقبل مترنحا ، يزحف فى بطء ، كرائد من رواد الصحراء لا يستبين طريقه .. وها أنذا أنحنى على يد أبى أقبلها ، ثم أرفعها الى جبينى ، علامة الاحترام والطاعة والخضوع .. وانحنى الشيخ الحنون فاحتوانى فى أحضانه ، وقبلنى .. **لكأنى بى أحس على بعد الزمن الرجفة التى تولته ، وهو يغالب أساه ويكبته .. كان رجلا ولا كل الرجال .. لم ينل منه سوى الموت ! »**

وشهقت « راقية » ، فتطلع اليها لحظة فى شرود . ثم استطرد يقول :

ـ وكانت حياة القسم الداخلى بالمدرستين الابتدائية والثانوية ، أشبه بالاسر ، فلم أسترد حريتى الا حين التحقت بكلية الآداب .. وقضيت سنى الدراسة الجامعية كلها فى القاهرة ، فلم يقدر لى أن أعود الى باديتى الا بعد أن نلت شهادتى . حتى اذا عدت ، كانت فى انتظارى صدمات متلاحقة .. كانت أمى قد توفيت فى غيابى فتكتموا عنى النبأ . ولم يكد دمعى عليها يرقأ ، حتى مات والدى . وكأنما كان فى ارتقاب أوبتى ليلحق بها ! .. ووجدتنى وحيدا .. وزاد من وحشتى أن القوم شرعوا فى النزوح الى مديريات الوادى ، اذ أمسكت السماء الامطار عنهم أعواما متوالية ، فجفت الارض وقست وأبت أن تنبت شيئا من خيراتها .. **ووجدتنى ولا**

شيء يحبب لى البقاء ، فشددت رحالى الى المدينة من جديد .. أواه ، كم أحن الآن الى صحرائى !

ـ وكم أتوق الى رؤيتها أنا الاخرى !

وحملق فيهـــا ، لا يكاد يصـــدق أذنيـــه ، ثم هتف : « « راقية » ! .. أحقا ما تقولين ؟ »

* * *

وقفز عن مقعده ، فأحاطها بذراعيه ، واذ هم أن يضمها الى صدره ، انتبه الى أنه لم يعد ذا حق فى ضمها ، فأفلتها من ذراعيه .. ورمقته فى ألم ، فنكس رأسه ، متمتما : « معذرة ! .. كدت أنسى ! »

وصاحت فى أنــين لائم : **« قاس .. حرمتنى لذة لحظـة هنيئة ! »**

وكأنما خشى أن يضعف أمامها ، فتعمد أن يغادر الغرفة لبرهة تمكنت « راقية » خلالها من قراءة الابيات التى نفث فيها شجونه .. وذابت نفسها أسى ، وخفق قلبها اشفاقا .. فلما طالت غيبته ، قامت تبحث عنه فى غرف البيت .. ووجدته مستلقيا على « شيزلونج » ، وقد دفن وجهه فى ثنايا ذراعيه ، وأخذ جسده يهتز .. وعصف بها الالم والاشفاق ، فربتت ظهره فى رفق ، ومسحت على شـــعره وهى تهمس عاتبة : **« طارق ، ماذا بك ؟ .. أتبكى ؟ ! »**

وارتجف ـ فى هذه المرة ـ قلبه . وعاودته الرغبة الملحة فى أن يسرى عن نفسه بالبكاء .. ولكنه غالب دمعه ، ليقول فى حسرة : « لست أستحق حنانك فدعينى .. لقد غدرت بك ، وخنت حبك ، فدعينى أكفر عن ذنبى فى وحشة الوحدة ، ومرارة الحسرة »

وانهمرت دموعها حنانا .. واقترب وجهها من وجهه .. وتلاقت جداول الدموع فخيل اليه أن سـيل دمعها يجرف



الاثم الذى خالط دمعه، فيطهره .. وارتمت على صدره ، ولكنه ارتد قائلا : ((لا يا راقية ! .. لم يعد من حقى أن أسعدبهذا!))

فصاحت ملتاعة : ((وهل صدقت يا طارق ؟ ! . . إيه يا شاعرى المجنون ! أو ظننت أننى أستمرىء العيش ولست الى جوارى ؟))

وصاح مكذبا أذنيه :((راقية ! هل تعنين .. ؟))

— ... أننى صفحت .. وأننى ما زلت لك .

— وهل تراك .. ؟

— .. عائدة اليك !

— أواه ، أيتها العائدة المحبوبة ! .

* * *

وضمها الى صدره فى قوة كادت تحطم ضلوعها الرقيقة ، وكأنما كان يخشى أن تفلت من أحضانه . وتوارى العالم عن أفقهما، فلم يعودا يسمعان سوى وجيب روحيهما المتشاكيتين وقد خيل الى ((طارق)) أن حرارة قلب فتاته تصهر قلبه الخاطىء لتعيده الى طهره الفطرى .. وتناسيا كل شيء ، الا أن كلا منهما عاد الى صاحبه .. **وتلاقت شفاههما فى قبلة أسدلا بها على الماضى ستارا .. وانجابت مرارة الاسى عن نفس ((طارق)) !**

وعادت ((راقية)) تسأله أن يحدثها عن صحرائه ، فصاح ضاحكا : ((يا مجنونة ! ألم يكفك كل ما قلت ؟ .. أو لا تكفين عن طلب المزيد ؟))

ـ انني أحبها يا ((طارق)) ، فليتك تحملني اليها ! .. لقد كرهت المدينة مذ سلبتني غوانيها اياك .. ليتنا نهجرها الى صحرائك الساذجة ، الصافية !

ـ أو تعيشين فى بيت من الوبر ؟ .. خيمة ! ..

ـ ما ألذه من عيش !

ـ بل أشـفق عليك من خشونته .. أشـفق على اليدين الرقيقتين الرخصتين من عناء العمل .. وعلى الهيكل الناحل ـ الذى يضم قلبك النبيل ، وترفرف بين حناياه روحك ـ من ثورة الرياح ، وصلابة الارض اذا ما افترشتها .. وعلى قدميك أن تؤذيهما الحصباء ، وتلهبهما الرمال وقد ألهبتها الشمس !

ـ سينسيني حبك كل عناء وضنى ، وسأكون سـعيدة يا طارق ! .. كم يلذ لى أن أتصورنى وقد استيقظت على صياح ديكتى ، وثغاء نعيجاتى ، لارى طلائع الفجر تنسل خلال فرجات الخباء ، فأقبل أوقظك بسيل من قبلات هنيئة . يبعث فيهـا الحب حـرارة وحنـانا .. فاذا فتحت عينيك احتويتنى بين ذراعيك !

ـ .. فنغيب فى عالم غير العالم ، حتى تغافلينى فتنهضى جارية ، فأعدو وراءك ..

ـ .. وأن أبالى اذ ذاك بالحصباء تدمى قدمى، حتى أسبقك الى البئر فأغتسل واحمل الماء الى الخيمة !

ـ .. وعندما تعودين ، تجدينني قد استبقتك اليهـا فأوقدت نارا ..

ـ .. وبينما يغلى الماء عليها لاعداد الشاى ، أنهمك فى اعداد فطيرة الصباح الشهية من دقيق الشـعير الذى تكون قد ساعدتنى فى سحقه بين قرصى الرحى !

ـ .. فاذا ما فرغنا من الفطور ..

ـ .. ودعتك بقبلة ، وبينما تسوق ابلنا لتحرث الارض..

ـ .. تسوقين نعاجك وخرافك الى المرعى ..

ـ .. يا للحياة ! .. ما أجملها !

وحلق فى سماء الاحلام ، وهو يضمها اليه .. ثم تطلع الى عينيها وتساءل : « أحقا أنت جادة يا « راقية » ؟ »

ـ .. فاذا حل الشتاء ، ووقفت ذات صباح أرقب السماء وأتابع السحب وهى تتجمع فى كبدها ، فسأتريث حتى أسمع قصف الرعد ، ثم أناديك فى هلع .. فتقبل مهرعا خشية أن يكون قد مسنى ضر .. **حتى اذا اقتربت ، استقبلتك ضحكاتى المرحة ترددها التلال المحيطة .. وتصـــيح : « ماذا بك يا حبيبتى ؟ » ، فأقول لك : « لقد جاء الغيث يا رجلى ! » . وتقبل على تضمنى بينما ينصب السيل انصبابا .. ما أجمل العناق تحت المطر الهطول !**

ـ .. أو ترينا كبرنا على أن نتسابق كالاطفال لنخوض البحيرات التى يخلفها الغيث ؟

ـ .. ما ينبغى لنا أن نعترف بالزمن فى عالمنا الحبيب ! . ولسوف أسوق خرافى فى الربيع فتؤنسنى وأؤنسها فى غيابك . فاذا تلاقينا بعد عناء اليوم ، وجدتنى قدأعددت لك من الزهور البرية تاجا أضعه على مفرق ملكى الحبيب .. ووجدتك قد نضدت من نرجس الصـحراء الفطرى قلادة تحيط بها عنق جاريتك الوفية ..

* * *

وصمتا ، ليسبحا فى غيبوبة من الخيـال . وفجأة ، بدد شمل السكون الذى اكتنفهما وحدهما ـ وسـط ضجيج المدينة الساهرة تستقبل فجر العام الجديد ـ دقات أجراس الكنائس ، فصاحت « راقية » : « هيا يا راعى الحبيب ، فقد انتصف الليل ، وبدأ العام الجديد ! »

ـ الى أين يا بدويتى الحسناء ؟

ـ الى الصحراء .. نستقبل فجر حياة جديدة تواتينا مع طلائع العام ..

وسابقت سيارته الريح ، تطوى الطريق الصحراوى ، حتى اذا اقتربت من بلدة (العامرية) ـ القابعة عند بداية صحراء (مريوط) ـ انحرفت نحو الغرب ، تشق طريقها وسط الدروب الملتوية بين كثبان الرمال ، على هدى مصباحيها اللذين تولاهما الكلال لطول مكافحتهما الظلام .

ولم يشعرا بالوقت ، فقد كانا يعيشان فى عالم لا يعترف بالزمن . وراح نسيم الصحراء البارد ـ فى نهاية الهزيع الاخير من الليل ـ يربت وجناتهما فى لطف رفيق .. والسيارة تضرب بهما فى جوف الصحراء ، حتى أوقفها طارق بين سلسلة من الكثبان .. وغمرهما الصمت هنيهة ، وقد هامت روحاهما فى وديان الاحلام !

والتفت اليها ، والتفتت اليه .. وتلاقت نظراتهما ، فراح يحدق فى عينيها كأنما هو يود أن يكشف ما فى أعماقها .. واقبلت تحدق فى عينيه تستجلى ما فى القلب الذى ضم عليه جوانحه .. وسبحا فى خضم من العواطف .. وغابا فى قبلة قفزت بعدها « راقية » من السيارة ، فقفز يتبعها .. وانطلقا يجريان حتى وهنت ساقاها لفرط التعب ، وتتابعت أنفاسها لاهثة ، فارتمت على الرمال .. واستلقى الى جوارها !

* * *

وقال الشاعر العاشق : « راقية ! ان وجودك فى الصحراء يقصيها عن فؤادى ، فليس لها فيه مكان وأنت تملئينه .. **لا ، لن نعيش فى الصحراء ، فاننى أضن بشبابك الغض ، أن يضيع فى شيخوختها الخالدة ! »**

ـ صه ! ألا يروعك ليل البادية الفاتن ! .. أنصت ! ان عزيف الريح يرتل ترانيم الهوى .. والصحراء الراقدة ،

ألا ترى أن صدرها يتهدج .. **انها تحلم ، وانها لتهمس فى أحلامها بنجوى وغرام ! .. حتى الليل يطوى جوانحه على فـؤاد يخفق بالحب .. كل شىء يدعو الى الحب .. فلنفن نفسينا فيه !**

ـ لبيك يا راقية ! .. وليكن حبا خالدا ، لا ينضب ، ولا يفنى ! ..

وبدأت السماء تزيح الستار الذى أسدلته علي العالم أوسنان، فنهضت « راقية » ، وهب فى أثرها « طارق » .. وهتف :

ـ وبعد يا « راقية » .. الى أين ؟ ..

ـ ألا ترى النور يسفر عن محياه ؟

ـ .. بلى ، وانه ليطغى على الظلام الذى يكتنف الافق ..

ـ حسنا .. الى الامام !

ـ ولكن ، الى أين ؟ .. أنسير .. ؟

ـ نحو النور .. تعال نستقبل الفجر الجديد !

ولف خصرها النحيل بذراعه القوية . وغابا فى فيضـــان الظلام الذى بدأ ينحسر عن وجه الصحراء ، يسيران .. نحو النور ، حيث فجر حياتهما الجديدة ! ..



المسيح ..

بين الشعراء ودعاة الحرية والإصلاح

دراسة تحليلية رائعة للكاتب الانجليزى : ريتشارد روبرتس



المسيح بين الشعراء وأنبياء الفكر

• ان مولد السيد « المسيح » – الذى احتفل به العالم أخيرا – عيد عالمى .. فان الأديان والأقوام جميعا تعترف بالمسيح رسولا للانسانية والحرية والفضيلة .. و « كتابى » اذ يقدم أصدق التهانىء بهذا العيد الى الانسانية جمعاء ، والى قرائه بوجه خاص ، يعرض فى الصفحات التالية تلخيصا وافيا لكتاب من أطرف الكتب التى صدرت عن شخصية السيد المسيح .. انه محاولة للكاتب الانجليزى « ريتشارد روبرتس » لاستخلاص صورة المسيح ، خلال أعمال بعض الشعراء والمجاهدين المصلحين ، والثوار المكافحين من أجل الانسانية والحرية .. محاولة فيها تحليل أدبى طريف ، وفيها استعراض مبسط لحياة نفر من الشعراء والمصلحين تركوا آثارا باقية فى الفكر البشرى

الشخصية التى بدلت اتجاهات الادب والفن

• **لو** قدر لنا أن نرسل رجلا مجردا من أية معرفة سابقة بالإدب خلال القرون الخمسة والعشرين الاخيرة ، وعهدنا اليه بأن يفحص الادب فى مختلف قرونه ، فان أقوى أثر ينطبع على ذهنه ، هو **ان شخصيةفذة فى غناها ونفوذها ، قد فرضت نفسها على حياة الانسان ، فبدلت من اتجاهات الادب ، واكتسبت سلطانا دائما عليه ..** ولو أن هذا الرجل نفسه أوفد الى معرض للفن الحديث ، يحتوى على بعض اللوحات الفذة ، لتبين أن اهتمام أهل الفن – بدورهم – قد تركز على تلك الشخصية التى رسمت فى عدد لا حصر له من الاوضاع ، كلها تدل – بسهولة – على : **يسوع المسيح** .. ولاكتشف – فى الوقت ذاته – ان نمو سلطان المسيح على الادب والفن لم يكن مطردا بقدر واحد ، فقد رانت على الميدانين – خلال العصر المسيحى – فترات ركود واجداب عجيبة ..



احدى صور المسيح ، فى مقابر (روما) الاثرية

ولقد دامت احدى هذه الفترات ألف عام ـ من القرن الرابع الى القرن الرابع عشر ـ لم يقدم لنا خلالها الادب والفن جديدا يذكر عن معنى المسيح وقيمته ! .. **وما كان ذلك راجعا الى انصراف الناس عن التفكير فى المسيح ، وانما لان الاتجاه الرئيسى لاهتمامهم تركز حول الكنيسة أكثر منه حول المسيح**. وفى تلك الاعوام الالف، كان تاريخ الكنيسة سجلا لصراعها فى سبيل فرض نفوذها على الدولة .. وبعدت كثيرا روحانيتها، ففقدت جلاء بصيرتها! .. على أن هذه الفترة لم تخل من أفراد صانوا الشعلة الروحية ـ مثل القديس « أوجستين » و « بنيدكت » . وكانت أولى علامات الخلاص من هذه الحال ، ممثلة فى « دانتى » ، الذى كان يبشر بالفصل بين الكنيسة والدولة .

« الراعى » الذى جدد حياة العالم

• **ومن** المعروف أن الفن كان يسعى ـ منذ البداية ـ لتمثيل المسيح للناس برمز بسيط . ومن المشكوك فيه أن هذه اللوحات الاولى كانت تنطوى على شبه حقيقى بالمسيح ، **ولكن هذا الشبه غير ذى قيمة كبرى ، فان العبرة بما تمثله اللوحات ذاتها ، من أن الفن ضمن تلك اللوحات ما يعتبر اعترافا حقيقيا بفشله فى أن يبث اللوحات ما كان يدرك أن من الواجب أن يكون موجودا فيها !** .. ولعل أعظم ما فى قصة الفن المسيحى،

هو ذلك الانقلاب الكامل الذى طرأ على نظرية « المسيح فى الفن » ، عقب انقضاء السنوات الألف القاحلة . فمع اليقظة الكبرى التى اتسمت بها النهضة الحديثة فى القرن الرابع عشر ، ظهر فريق من الرسامين ، أوتوا من جلاء الفكر والالهام ، ما لم يؤته سابقوهم ..

ولا تزال المحاولات المتعثرة الاولى ، التى أقدم عليها الفن المسيحى لتمثيل المسيح ، قائمة فى المقابر الاثرية فى (روما) ، ويرجع عهدها الى القرنين الثانى والثالث .. **وكثيرا ما كان المسيح يمثل فيها بالراعى الطيب ، الذى يتسم بالشكل الجميل ، الجليل الذى ينم عن الجدة والازدهار .. وهما الطابعان اللذان اتسم بهما العالم فى أنظار المسيحيين الاوائل** . اذ كان العالم — قبل مقدم المسيح — قد شاخ ، ورانت عليه الكلالة والكآبة وصفرة الموت .. كانت اليهودية تحتضر ، والفلسفة الاغريقية قد استحالت أطلالا ، فاذا ظهور المسيح يبث الحياة من جديد فى الدنيا المتداعية ، ويبعث فيها مسرة وأضواء جديدة !

تعبيرات .. على وجه المسيح

• **واذا** نحن تأملنا تلك الصور الاولى من ناحية أخرى ، أعيانا البحث عن أى تعبير على وجه المسيح . فان وجهه لم يتسم بالتعبير الا على أيدى رسامى عهد النهضة . **أفلا ينم هذا عن انهم كانوا أعمق من سابقيهم فهما للمسيح ؟**

ولقد بدأت النهضة فى القرن الرابع عشر ، فجاءت لنا بدانتى ، وبترارك ، ولانجلاند ، ليبدأوا عهدا جديدا للأدب . كما بدأ الفن عهدا جديدا ، عنى فيه الرسامون باظهار ما كان الالهام يصوره لهم من تعبيرات لوجه المسيح . وفى لوحة « العشاء الربانى » ، صور « دافينشى » ما قرأه فى معالم وجه المسيح من أسى أبرزه فى جمال خالد لا يموت . ورسم لنا « ميكيل أنجلو » كراهية المسيح للخطيئة . وقادنا « رافاييل »

الى المواطن الخفية لتأثير شخصية المسيح . وصور لنا « كوريجيو » المخلص الذى يتحمل الآلام ..

وكل هذه تحدثنا عن جلال المسيح ورقته ، وطهارته ، وقداسته ، وجلده على تحمل العذاب فى سكون

وحذا من جاءوا بعدهم حذوهم .. ففى وحة « الصلب » يتيح لنا « فيلا سكويز » نظرة الى وجه المسيح لنطالع عليه كل ما نستطيع أن نطالع من حب ساذج عميق لا قرار له ! ..



الراعى الذى يتسم بالنضارة والطهر .. فى عالم شاخ وفسد !

الانسان الذى تنشده الانسانية

• **ولعل** أبرز عنصرين كشف عنهما الفن فى شخصية المسيح ، هما : البساطة الباعثة على الغبطة والجلال الآسى والوقار الساجى . وقد اتجه الادب عين الاتجاه .. ثم جاء الدكتور بيبودى – فى كتابه « يسوع المسيح والمسألة الاشتراكية » – فنقل أقوالا عن العمال الالمان ، مؤداها : « **كان المسيح صديقا صادقا للعمال .. ليس بأقواله فحسب ، وانما بأفعاله أيضا** » . ونقل الدكتور آبوت عن العمال الانجليز : « أعتدنا أن ننظر الى المسيح كخيال من ابتداع القساوسة .. **ولكنا نتبين الآن انه كان انسانا مثلنا ، قبل كل شىء .. انسانا عاملا فقيرا ،**

يحب الفقراء .. انه الانسان الذى ننشده)) !

وفى ذلك يقول ((ارثر بوريل)) فى مقدمته لملحمة الشاعر الانجليزى ((وليم لانجلاند)) :

((المسيح رجل الشعب ، مسيح الشعب . انه الانسانية الفقيرة مزدانة بالحب .. الانسانية الكادحة مسلحة بالعزة .. الانسانية المتعاطفة ملتفة بالذكاء الذى يدرك كل شىء .. انه يشجع دائما الخاطىء التائب ، ويساعد الضعيف .. **انه المسيح ممثلا فى الانسانية ، والانسانية ممثلة فى ثوب المسيح .. فهو ليس المسيح دائما ، وانما هو يتلاشى ليعود للظهور فى كافة صور قداسة الانسانية)) !**

وعندما ندرس ((ماتزينى)) ــ فيما بعد ــ سنجد انه كان متشبعا بهذه الافكار عينها .. ومنذا الذى يخفق فى مطالعتها مرة أخرى ، فى قول ((تورجنيف)) الروسى ؟ :

((رأيت نفسى فتى ــ بل غلاما تقريبا ــ فى كنيسة منخفضة ، من الخشب المطلى بالقار .. وكان يقف أمامى كثير من الناس ، كلهم من الفلاحين ذوى الرؤوس الشقراء .. وعلى حين غرة ، أقبل رجل من ورائى ، ووقف بجانبى . ولم ألتفت اليه ، ولكنى شعرت بأن الرجل كان .. المسيح ! . وسيطر على الانفعال ، والفضول ، والخشوع . وجاهدت حتى استطعت أن أنظر الى جارى ، فاذا هو وجه ككل وجه .. وكانت العينان تتطلعان الى أعلى بعض الشىء ــ فى سكون واستغراق ــ والشفتان مغلقتين مطبقتين ، واليدان مكتوفتين ساكنتين ، والملابس التى فوق جسمه كملابس كل فرد آخر .. **وقلت لنفسى : ((أى مسيح هذا الذى يشبه انسانا عاديا تماما ؟ .. هذا غير محتمل !)) . ولكنى لم أكد أحول عينى عن هذا الانسان العادى ، حتى شعرت ثانية بأنه لم يكن ــ فى الواقع ــ سوى المسيح ، يقف بجانبى .** وفجأة غاص قلبى .. وتبينت أن وجه المسيح ليس سوى وجه كهذا .. وجه ككل وجوه البشر !))

شاعر اليقظة : دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١)

• يعتبر «هوميروس» و «دانتى» و «شكسبير» أعظم ثلاثة شعراء عالميين، ولكن دانتى يمتاز عن زميليه بأنه بلغ مصاف الانبياء، فقد كانت له رسالة لم ين يبشر بها طيلة حياته، وكان من امارات عبقريته الشعرية أن رسالته هذه لم تتعارض مع عظمة انتاجه الشعرى .. ان «الكوميديا الالهية» **- وقد قدمها لك «كتابى» ملخصة فى اعداده من ١٣ الى ١٥ -** ليست مجرد أطهر وأسمى تذكار للحب فى الادب كله، وانما هى أيضا ذات هدف خلقى روحى، وذات غاية سياسية .. تماما كالتوراة .. **ان «بياتريس» التى تؤنسه وتقوده فى رحلته الغريبة الى الجنة، ليست مجرد غادته الحبيبة، وانما هى أيضا رمز للفلسفة القدسية !** .. ولقد كانت ايطاليا منقسمة على أمرها، نهبا للدسائس والاحقاد والكراهية والفساد، بينما كان الحكام الفرنسيون يتربصون الفرص ليحققوا أغراضهم على حساب ايطاليا .. وكان الفساد يدب فى الكنيسة هى الاخرى، وقد أضعف سلطانها الروحى شبق البابوات الى السلطان الدنيوى .. **فسما «دانتى» - بفضل حبه لايطاليا والكنيسة - على كل هذا الفساد، وراح يدعو الى ظهور «مسيح سياسى»، يعمل على أن تستعيد الكنيسة روحانيتها المجردة من معوقات المادية، وأن تتحد ايطاليا وتتخلص من الاحقاد والمنازعات .. وكانت «الكوميديا الالهية» أسمى تعبير عن كل هذا !**

لقد امتزج حبه الطاهر لبياتريس بادراكه الخلقى، وايمانه الدينى الوثيق، مما رفعه الى مصاف الانبياء، حتى انه ليقاس بيوحنا المعمدان وبولس الرسول .. ولقد تألفت «الكوميديا الالهية» من ثلاثة أقسام : الجحيم، والمطهر، والجنة .. وفى الاولين، اهتدى الشاعر بارشاد «فيرجيل»، الذى رمز به

الى « الفلسفة الانسانية » . أما فى القسم الاخير ، فقداهتدى ببياتريس التى ترمز الى « الفلسفة السماوية » . وكانت نظرته الى الماضى والحاضر والمستقبل من العمق والصفاء ، بحيث لمس الصلات الوثيقة بين العالمين المادى والروحى ، وبحيث ألم الماما واسعا بالنظام الخلقى ، وبالتاريخ البشرى ، وبحياة الانسان ، فمزج كل هذه المعرفة فى براعة ، واستخلص منها فلسفته ونظريته اللاهوتية .

كان سلطان الكنيسة — فى رأيه — روحيا محضا ، فلما دخلت الكنيسة مضمار السياسية ، خرجت عن دائرة سلطانها .. فقال عن (روما) :

« لقد اعتادت أن تفخر بشمسين تترامى أشعتهما العديدة
« فى كل من الجانبين .. جانب الدنيا وجانب الله .
« ومن ثم أطفأت كل من الشمسين الاخرى ،
« والتوى السيف على المنجل ، فلا بد لكل
« — فى التحامهما — من أن يفرض أسوأ انهيار »

فقد كان دانتى يؤمن بمذهب « المجتمعين » .. المجتمع الدنيوى ، ويرأسه الامبراطور ، والمجتمع الروحى ويرأسه البابا ، ولا بد لكل منهما من أن يكون مستقلا وذا سيادة فى نطاقه الخاص .

وعلى ضوء ايمان « دانتى » الوثيق ، نستطيع أن نرى أن الطابع المسيطر لفكرته عن « المسيح » ، يتمثل فى شخصية « المخلص » — الذى ضمن الخلاص لمن آمنوا به — و« المفتدى » الذى افتداهم .. ويعبر عن هذه الفكرة فى قصيدة له بعنوان « المائدة » ، قائلا : « المسيح .. ابن الرب الاعلى ، وابن مريم العذراء ، نفس الانسان الذى قتل بأيدينا ليمنحنا الحياة ، والذى كان نورا ليضىء لنا الظلمات » .. و « ابن الرب شاء أن يحمل نفسه آلامنا » . ثم يصوره فى « الجنة » — فى « الكوميديا الالهية » — وقد توسط أولئك الذين افتداهم :

« فى سمو متألق رأيته هناك ، محوطا
« بمليون مصباح كالشموس ، تستمد منه
« اشراقها ، كما تستمد النجوم نورها من شمسنا »

وفى « الجحيم » يعاقب المرء على خطيئته ، وفى « المطهر » يتطهر منها ، ويكتسب قداسة تؤهله لدخول « الجنة » .. ولكن هذا كله على أساس من تضحية « المسيح » ، فالذى يغسل الخطيئة هو دم المسيح .. **أى ان الروح حين تصعد الى الجنة انما تكون شاهدا جديدا على انتصار الحب القائم على الفداء والتضحية .** فاذا الذين افتداهم المسيح يحيطون به فى الجنة كالشموس تحيط بالشمس الكبرى

شاعر الاصلاح : شيلى (١٧٩٢ - ١٨٢٢)

• **الانتقال** من « دانتى » الى « شيلى » طفرة كبيرة ، لاسيما وقد كان « دانتى » مؤمنا ، فى حين كان « شيلى » يجاهر بأنه ملحد ! .. **ومن الطريف حقا ان نرى كيف أثر المسيح على شخص ملحد ، طرح جانبا كافة الاعتقادات التى نشأ عليها ..** وهذا أقرب الى تعرف صورة المسيح كما تنطبع على ذهن بكر ، اذ أن « شيلى » لم يحمل أية ضغينة أو بغضاء للمسيح ، بل ان الحاد « شيلى » قد لا يعتبر الحادا بمعنى الكلمة ، لان انكار الفكرة السائدة عن الله ، قد لا يكون بالضرورة انكارا مطلقا لله .. **والحاد الشاعر لا يعنى بالضرورة خلو شعره من روحانية وايمان . وغاية مافى الامر انه يعبر عن الله بتعبير غير الذى اصطلح عليه الناس !**

ولقد كان شيلى يجاهر بالثورة على التعصب والتزمت والتقاليد ، ولكن الذى يدرس أشعاره بعناية يلمس أن عقله كان يتجه باطراد نحو شىء يشبه الايمان والعقيدة الحقيقيين ، حتى ان الشاعر « براونينج » كان يقول : « لسوف أقول

ما أعتقد : لو أن شيلى عاش ، لانضم فى النهاية الى صفوف المسيحيين » !

كان « شيلى » ممن يطغى فيهم الحافز على كل سلطان للعقل والضمير ، فاذا به يشل الفكر ، ويدفع المواهب عن طريقه ، ويعرقل الطبيعة ، لكى يمضى فى اندفاعه .. ولقد كان « شيلى » شغوفا بالاصلاح ، فاذا الحافز يندفع به الى الاصلاح غير عابىء بشىء من القيود المتعارف عليها ، ودون دراسة . لهذا نفهم أن رسالة « شيلى » كانت منبعثة عن عطف متهور أهوج .. كانت آلام الطبقة الفقيرة والعاملة تثير عواطفه . ولكنه لم يعن بدراسة سر آلام تلك الطبقة ، وانما ظن أنه قد قرأ قلب الانسانية فى قلبه هو ، فثار من أجلها . وراح ينهال على كل ما كان يحيط به من نظم سياسية ، واجتماعية ، ودينية .. باسم « التحرر » .

واذ كان يميل الى أن يرى نفسه مرآة للانسانية ، ويرسم شخصيات مؤلفاته على صورته هو ، لذلك فانه حين أراد أن يتأمل «المسيح» ، تمثله فى صورة منقحة لنفسه هو ، مستبعدا عن ذهنه معظم التعاليم المعروفة عن « المسيح » ! .. فهو يرى أن الايمان بأن المسيح هو « الرب » و « ابن الرب » نوع من الخرافة والغباء .. ولا يرى فيه الا مجرد انسان .. على ان هذا لم يمنعه من أن يعجب بالمسيح كمصلح رفيع الشأن .. واذا عرفنا أن دور المصلح كان أسمى دور — فى نظر شيلى — استطعنا أن ندرك مدى تقديره للمسيح .. وهو فى « مقال فى المسيحية » — الذى كتبه فى سنة ١٨١٦ — يعترف للمسيح بـ « عبقريته الخارقة ، ومدى التأثير الواسع والسريع لتعاليمه التى لا مثيل لها ، ورقته وطيبته اللتين لا ينال منهما شىء » .. ثم يقول : « ونكتشف انه عدو الطغيان والزيف ، وداعية للعدالة والمساواة .. لا يميل الى اقرار اراقة الدماء ولا الخداع ! »

ومن الجلى أن ثمة فارقا كبيرا بين المسيح الذى صوره « شيلى » ، والمسيح الذى صورته الاناجيل .. ذلك أن « شيلى » لم يحاول أن يتعمق فى الدراسة ، فكانت الصورة التى خرج بها غير مكتملة الوضوح .. **صورة أقرب الى صورة شاعرنا ذاته ، لان « شيلى » كان - ككل شخص له طباعه - يؤمن كل الايمان بنفسه ورسالته ، فلم ير فى المسيح غير الجانب الذى يظهره مصلحا ، لان المصلح - فى رأى « شيلى » - هو الذى يبلغ ذروة الرجولة والانسانية .. ولم ير فيه الا « أسمى وأقدس شاعر » ..** « فهو يطأ كل الآراء المملاة ، وكل الترف المشتهى ، وكل خرافات وأباطيل الجنس البشرى . وهو يطلب اليهم أن يلقوا جانبا كل مزاعم العادة والعرف والايمان الاعمى »

شاعر التمرد : بليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧)

• ان « وليم بليك » من أغرب الشخصيات فى تاريخ الفن والادب . ذلك لان انتاجه لم يكن مجرد تحف أدبية ، وانما كان تحفا فنية كذلك . على **أن « وليم بليك » كان ثائرا قبل أن يكون أديبا وفنانا ، فما عرف ان امرءا فاقه فى حب الحرية وكراهية القيود أيا كان نوعها ، وفى أى ميدان من ميادين النشاط الانسانى .. وكان من الانجليز القلائل الذين وجدوا جرأة على أن يناصروا نضال الولايات الامريكية للتحرر والاستقلال !** .. وكان شاعرا ذا رؤى : كان يصرح بأنه يرى الانبياء الذين ورد ذكرهم فى التوراة ، وبعض عظماء التاريخ ، ويكلمهم ! .. وسواء صدقناه أم لم نصدقه ، فانه كان يعيش على ذلك الحد الفاصل بين عالم الواقع وعالم الاحلام !

والفكرة الاساسية لدى « بليك » هى سيادة الطاقة الخلاقة لدى الانسان . فالخيال المبدع - ممثلا بأى وسيط ، فنا

كان أو أدبا ــ هو منتهى الحياة .. وكان الهه هو الفنان الاسمى، وقد كان ((المسيح)) لديه هو العبقرية الخلاقة مجسدة ! ..

وكان يرى أن ((الرجل ــ أو المرأة ــ الذى لا يكون شاعرا ، أو رساما ، او موسيقيا ، أو معماريا .. ليس بمسيحى)) ! .. وان ((الجسد السرمدى للانسان هو الخيال ، أى الرب ذاته ، الجسد الالهى ، يسوع)) . ونحن أعضاء هذا أجسد ، الذى يعلن عن نفسه فى أعماله الفنية :

((اذهب فأنبئهم بأن عبادة الرب هى تمجيد عطاياه
((فى البشر الآخرين ، وايثار من هو أعظمهم حسب
((سلطانه ، الذى هو الروح القدس فى الانسان ..
((فلا رب سوى هذا الرب ، فهو النبع الفكرى للانسانية))

ولكنه كان يفطن الى أن هذا المذهب لا يشمل كل حقائق الحياة .. وهو يرى أن الانسان قد يولد شريرا ، ولكنه فى تطور ، ويستطيع أن يتحول .. لا الى قديس ، وانما الى فنان وشاعر ! .. وهذا التحول هو الانطلاق القدسى لقوة البصيرة والخلق ، التى تكمن فى كل انسان .. وفى كل انسان سلطان الرغبة ــ أو الشهوة ــ والعقل ، فهو لا يكون صالحا الا اذا توازنا فمكنا الطاقة الخلاقة من أن تعبر عن نفسها .

وكان بليك يرى حوله ــ فى كل مكان ــ نظما ومذاهب نشأت عن آراء أحالها الاعتقاد بأنها حقائق مطلقة الى معتقدات .. معتقدات فى الفلسفة ، وفى الدين ، وفى السياسة ، وفى الفن ، وفى القانون ، وفى كل شىء .. وهذه المعتقدات «عجلات» تشد الشخصية البشرية وتدوسها ! .. واذا العقل ــ الذى خلق ليكون معززا للطاقة الخلاقة أو الشعرية لدى الانسان ــ قد أصبح ((زنزانة)) مظلمة .. وبات الانسان عبدا يرسف فى أغلال نظم ومذاهب من صنع العقل ! .. ومع أن ((بليك)) قد أنفق معظم طاقته فى مهاجمة المذاهب والآراء القائمة ، الا أنه كان ــ فى الواقع ــ بناء ، منشئا :

((لن أكف عن الكفاح العقلى .. ولن ينام سيفى فى يدى .. حتى نشيد بيت مقدس ، فى أرض انجلترا البهيجة .. الاحجار رحمة ، والطوب عواطف طيبة الصنع ، موشاة بالحب والكرم .. وأحجار السقف مطعمة بالذهب .. والملاط والاسمنت دموع الامانة .. والارض تواضع ، والسقوف ولاء ، والمدافىء صلوات شكر ..))

وكان ينتشى كلما سمع برجل يحطم أغلال المذاهب والنظريات .. ويضع ((المسيح)) على رأس هؤلاء المتمردين من أجل تحرير الانسان وتمكينه من التعبير عن نفسه بحرية تامة .. فهو فى ((الانجيل الباقى)) ، ينكر كل صفة من صفات المسيح التى كان أبناء جيله يؤمنون بها ، قائلا :

((صورة المسيح التى ترونها ، هى ألد أعداء بصيرتى .. مسيحكم صديق البشر كلهم ، ومسيحى يكلم الاعمى بالرموز .. مسيحكم يحب العالم الذى أكرهه ، وأبواب جنتكم أبواب جحيمى .. كلانا يقرأ التوراة ليل نهار ، ولكنكم تقرأون سوادا وأقرأ بياضا)) !

ثم يرسم له ــ فى كتابه ((زواج الجنة والجحيم)) ــ الصورة التى كان يراه عليها : ((يسوع كان الفضيلة خالصة ، وكان يصدر عن حافز لا عن قواعد)) .. وهذا مثال لانتقاده للصورة المتعارف عليها عن المسيح .. وكان يرى أن الانجيل يدعو الى معاقبة الخطيئة بالرحمة ، لا بالقصاص ، ويفسر رسالة المسيح بقوله : **((دعوا الناس أحرارا ليكونوا بشرا حقيقيين .. اعتقوهم من جبروت العقل والرغبة المقيدة بالقوانين والمذاهب ، ودعوا حوافزهم الخلاقة تنطلق فتخلق ما يشاؤون)) .. وسيكون أول ما يخلقون مجتمعا .. وسيكون أول ما يتجهون اليه ــ وهم أحرار ــ هى الاخوة !** .. فقد كان يرى أن المسيح هو معلم الاخوة . وعلى شخصية المسيح ، كان يضم الاخوة والزمالة اللتين يجب أن تضما البشر فى أسرة واحدة :

« لتعش كل الاسرة الشاملة كرجل واحد — وهذا الرجل .. ندعوه يسوع المسيح ، وهو فينا ونحن فيه — فى وئام تام ، فى جنة أرض الحياة .. كل يعطى ويأخذ ، ويغفر زلات الآخر ! »

شاعر الفلسفة : براونينج (١٨١٢ – ١٨٨٩)

• **رأينا** كيف أن « براونينج » كان يعتقد أن « شيلى » كان خليقا بأن يثوب الى المسيحية ، لو أن العمر أمهله . ولعل «براونينج» كان يشعر بأن بين عقله وعقل زميله تقاربا كبيرا ، **ولكنه لم يهمل التفكير — كما فعل شيلى — ولا هو خشى العقل وأوجس منه — كما فعل « بليك » — وانما أدرك أن ثمة طرقا الى الحقيقة غير المنطق الدقيق .** فقد كان من أبناء ثورة ، ولكنها تخالف الثورة التى عاش فيها شيلى وبليك .. كان عهد براونينج عهد الثورة العلمية ، التى قادها « داروين » و « هكسلى » و « سبنسر » .. كان عهد اضطراب وقلقلة وذبذبة فكرية . ولكن « براونينج » كان من القوة ، بحيث شق سبيله دون أن يزل أو يضل . **فكان يرى الله فى كل شىء ، ويراه — كذلك — ذاتا مستقلة عن الكون ، وفوق الكون .. وكان يسلم بأن الانسان لا يستطيع أن يتصور الله الا بمقاييس البشر الضئيلة ، ولكن هذا لا يعنى أنه يعجز عن رؤية الله ، لانه قد يكتشفه فى نفسه ، وفى أى شىء فى الطبيعة !**

ونستطيع أن نقدر جهاد « براونينج » حق قدره اذا تذكرنا أن عهده كان عهد ظهور نظرية « أصل الانواع » و « النشوء والارتقاء » ، بما تنطوى عليه من « بقاء الاصلح » .. وكلها كانت كافية لان تزعزع أيمان أى امرىء ، اذ أنها تكاد تجرد الطبيعة من الخير والطيبة ، وتعزو البقاء الى العقل والقوة .. ولم يكن ثمة بد لبراونينج من أن يبحث عن « الخير » فى غير

الطبيعة ، فاتجه الى الله ، والى الشخصية التى تصل الله بالانسان .. شخصية « المسيح » . ففى قصته الشعرية « تجلى الرب » ، يقول :

« أقول أن التعرف على الرب فى المسيح ،
« مقبول لدى العقل ، وهو يحل لكم
« مايصادفكم على الارض أو خارجها من مشكلات »

فالمسيح – لدى براونينج – هو المفتاح الذى يكشف سر الكون وسر الحياة . على أن المسيح لم يكن مجرد عامل مساعد لتحقيق فلسفة براونينج ، وانما كان – فى نظره – قيمة شخصية محددة .. فهو يرى أن سمو شخصية المسيح فوق من عداه ، لا يعود الى الذكاء ، ولا الى الخير ، ولا الى الخلق .. وانما الى شخص المسيح ذاته :

« هل يجرى الناموس : آمنوا بالخير والعدل والصدق ، التى أصبحت الآن مفهومة لاول مرة ؟ .. أو آمنوا بى ، أنا الذى عشت ومت ، ومع ذلك .. فاننى – أصلا – رب الحياة ؟ »

وايمان المرء يعرف بثماره ، وبمدى الامل الذى يذكيه .. ونستطيع أن نلمس ايمان « براونينج » فيما أورده فى قصيدتيه : « الحاخام عزرا » و « شاؤل » . فهو يرى أن كفاح الانسان فى الحياة دليل على أن مصيره لم يكتمل . **فاذا تعثر الانسان فى طريقه أو سقط ، فان لعثرات الحياة قيمتين .. أولاهما : ان أعمالنا لا تقدر بمدى ما نحققه منها ، وانما بمدى عزمنا وتصميمنا على محاولة تحقيقها .. وثانيتهما : ان السقطات التى نتعثر فيها – ونحن نمضى صادقين – ليست سوى ضمانات لفوزنا فى النهاية .** وهذا التفاؤل يستمده الشاعر من ادراكه لمعنى المسيح . فان تجلى الرب فى المسيح – فى جوهره – محبة .. محبة تكتنف الحياة وسير العالم . فأى « مسيح » هذا الذى أوحى لبراونينج بهذا المعنى ؟

ان جواب هذا السؤال فى قصيدة « شاؤل » . فان « داود »

ينصرف بكل نفسه - فى القصة - الى انقاذ روح شاؤل ، فلما يعييه العثور على علاج للملك ، يتحول الى الله ، وهو راغب فى أن يجود بروحه لافتداء روح شاؤل .. لقد كان الحب متوفرا لدى داود ، ولكن القدرة على انقاذ شاؤل كانت تعوزه . أما الرب فلديه الحب والقدرة معا ! .. ومن هنا يخلص الى أن الحب الذى يعمر قلب الانسان انما هو منحة وقبس من الحب الذى لدى الرب ! .. ويسرى داود عن شاؤل قائلا :

« لسوف يستقبلك وجه كوجهى ، وانسان مثلى .. ستحبه ويحبك أبدا .. ويد كيدى ستفتح أبواب حياة جديدة لك ! .. فانظر تجد المسيح واقفا ! »

هكذا يصور الشاعر الفيلسوف وجه المسيح بوجه آدمى من لحم ودم .. ذلك لانه يعتقد أن الرب محبة أبدية هبطت الى الارض فى شخص المسيح . فما دامت ارادة الله أن يتجلى للانسان ، وما دام قد خلق الانسان على صورته ، فان تجليه لابد أن يتم فى صورة انسان ، لكى يدركه الانسان !

نبى الاستقامة : سافونا رولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨)

• ظهر فى فلورنسا - بعد أن ابعد دانتى عنها بمائة وثمانين عاما - راهب شاب قدر لاسمه أن يقترن - كما اقترن اسم دانتى - بتاريخ هذه المدينة .. فقد كان كل منهما داعية للفضيلة والاستقامة ، فى زمن انقسمت فيه ايطاليا على نفسها وسادتها الفتن والدسائس والاحقاد .. **لم يختلف عهد سافونا رولا عن عهد دانتى الا بأن أضواء البعث العلمى - عصر النهضة - كانت قد أشرقت ، فاذا الفكر القديم والفلسفة الاغريقية تصطدم بكاثوليكية القرون الوسطى ..** وفى غمرة الاضطراب الفكرى ، ظهر « سافونارولا » ، وفلورنسا تحت

حكم « لورينزو دى ميديتشى » ، وهو حكم كان من أسوأ ما عرف فى تاريخ الحكومات **(اقرأ عنه « البابا المفتون » فى العدد ٧٨ من « كتابى »)**

والتفت حوله النـــاس ، اذ أبدى من الجـرأة ما كان سواه يجبن عنه ، وهو يحْمل على الفساد الذى ساد الدولة والكنيسة معا ..

وكان « بيير دى ميديتشى » أسوأ خلف لاسوأ حاكم ، فما لبث أن خلع عن الحكم بالتآمر مع شارل الثامن — ملك فرنسا الذى كان يغـزو ايطاليا اذ ذاك — فاستغل « سافونارولا » الفرصة ليتيح لفلورنسا حكومة رشيدة مصلحة ، وأصبحت المشورة مشورته ، ولاح أنه قد قدر لفلورنسا أن تنهض أخيرا من حمأة الفساد ، الى حياة قوامها الاستقامة والفضيلة

وليس هنا مجال الحديث عن الجانب السياسى من حياة سافونا رولا ، ولـكنه — على أية حال — راح يدعم المذهب القائل بأنه **لا سبيل الى استتباب المذاهب السياسية ، ما لم تقم على أسس متينة من المبادىء الخلقية . وكانت المبادىء الخلقية بدورها ، تقوم — عنده — على الدين ..** ومن أجل هذه الرسالة فحسب ، خاض « سافونا رولا » خضم السياسة وهو كاره ، اذ كان يرى أنه **لا شأن لمهمة الكنيسة بالسياسة ، وانما واجبها أن تخلق الوعى العام ، الذى يقـرر بدوره نوع الحكومة وأغراضها ووسائلها ، تمشيا مع مبادىء الأخلاق .**

وأول كلمة فى رسالة سافونارولا ، هى : **التوبة** . فقد كانت فلورنسا مغرقة فى الفساد والرذيلة ، فدعا أهلها الى توبة تغير قلوبهم ، وتنقلهم الى حياة أوسع آفاقا من حياة دنياهم فى ذلك العهد .. وكان يرى أن الكنيسة — وعلى رأسها البابا — هى الهيئة المؤدية الى التوبة .. ومع ذلك ، فقد كان سافونا رولا يأبى أن يدين بالزعامة العليا للبابا الذى كان يستغل نفوذه الروحى لبسط سلطانه الدنيوى ، فى ذلك العهد !

ومن السهل أن نرى أن « سافونا رولا » قد غرس بذرة الثورة التى حدثت ـ فيما بعد ـ ضد السلطان البابوى ، والتى أدت الى الاصلاح البروتستانتى . وقد روى هذه البذرة بدعوة الناس الى الاقتداء بالمسيح فى زهده وفقره وتحمله للآلام . وهذا هو أساس دعوة سافونا رولا : **«وما الذى جعله يعيش حياة كهذه فقرا وبهاء ؟ .. انه الحب ولا ريب ، الحب هو الذى ربطه الى عمود المعبد ، وهو الذى قاده الى الصلب ، وهو الذى أقامه من الموت ، وهو الذى جعله يصعد الى السماء ، وبهذا حقق معجزات افتدائنا »** .. فلما قضى على سافونا رولا بالاعدام ، قال : « يستطيعون أن يقتلونى كما يحلو لهم ، ولكنهم لن ينتزعوا المسيح من قلبى » . وكان يتعزى فى آلامه بقوله : « لقد تعذب الرب كثيرا من أجلى » ! .. فرسالته : **« أن يكون المسيح فى قلب الفرد ، وعلى رأس المجتمع ! »** . أى سيادة المسيح وسيطرته على الفرد والمجتمع ، بحيث تكون تعاليمه هى نبراس الفرد فى حياته وتصرفاته ، ومنبع تشريعات الدولة ونظمها

نبى الانسانية : ماتزينى (١٨٠٥ ـ ١٨٧٢)

• **يظهر** نبى الوطنية عادة عندما تنحدر بلاده وتتداعى وتعجز عن أداء دورها فى حياة العالم .. ولقد كانت ايطاليا فى صبا ماتزينى فى حال لا تقل سوءا عما كانت فيها أيام دانتى وأيام سافونارولا .. وكانت أمنية دانتى هى الحلم الذى كرس « ماتزينى » حياته ـ منذ شبابه ـ لتحقيقه : توحيد ايطاليا . واذا لم يكن قد قدر له أن يستشهد فى سبيل وطنه ، الا أنه اضطلع بدور أقسى وأمر .. أن يعيش من أجل وطنه . **فان الوطن « ينشد مسيحيين قادرين على أن يطلوا على الدنيا من عل ، وأن يواجهوا متاعبها بلا خوف ، وأن يستطيعوا أن**

يقولوا : « سنموت من أجل هذا » .. وأن يقولوا أولا : « سنعيش من أجل هذا » !.. » . ولم ييأس لتخاذل مواطنيه : « ان القوم يفتقدون الايمان .. الايمان الذى يوقظ الجموع .. الايمان بمصيرهم ، وبرسالتهم ، وبرسالة العصر .. **الايمان الذى ينير ويهيب بالناس أن تقدموا ــ فى غير ما خوف ــ فى سبيل الله والانسانية ، وسيف الشعب فى يدهم ، ودين الشعب فى قلبهم ، ومستقبل الشعب فى روحهم »** .. وكان جوهر الايمان عنده هو استلهام الوحى من الموارد الابدية !

وهكذا ابتعد ماتزينى عن جماعة « الكاربونارى » ، التى كانت تتزعم الجهاد السياسى ، والتى لم تكن تسعى الى أسمى من دفء الجيب والمعدة : **« ان الانسان لن يعيش على الخبز وحده ، وانما على كل كلمة تنبعث من فم الرب »** .. ولقد عانى مرارة النفى من بلاده جزاء ذلك ، ولكنه لم يكف عن دعوته ، وعن ابتكار الاساليب لترويجها فى ايطاليا .. ولم تكن ايطاليا وحدها هى التى بدأت تستيقظ من سباتها ، بل أن أوروبا بأسرها كانت تغلى .. ومن غليانها أدرك « ماتزينى » حقيقة المشكلة التى كانت الشعوب جميعا تعانيها . ومن ثم فقد جعل من نفسه نبيا لجميع الشعوب .. وكان يرى ان رسالة القرن التاسع عشر هى : **« التجمع »** .. كان يرى أن « الاصلاح البروتستانتى » قد دعم مبدأ حقوق الفرد فى الدين ــ فهو ثورة العقل والضمير الفرديين ضد طغيان النظام الكنسى المادى ــ وأن « الثورة الفرنسية » كانت ترجمة سياسية لهذا ، لانها كانت تبالغ فى ابراز مذهب الفردية ، مما انتهى الى استبداد « نابليون » امبراطورا .. **وكان يقول أن من الحق أن تكون حرا ، ولكنك اذا حظيت بالحرية وحدها ، اضطررت الى أن تخوض ميدان التنافس والصراع مع غيرك . فلا بد من مبدأ يحقق التوازن مع الحرية الفردية** . وهذا **المبدأ هو « التجمع » أو « التضافر »** .. ومن ثم فان

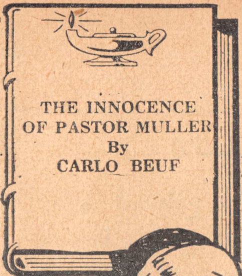
« ماتزينى» لم يعن **بحقوق الفرد** بقدر ما عنى **بواجبات الفرد** ، ذلك لان الحقوق تشيع الفرقة بين الافراد ، أما الواجبات فتساعد على توحدهم .

كان أمل ماتزينى تحقيق « التضافر » فى الحياة القومية والحياة الدولية على السواء .. وكان شعاره فى جهاده : **« من أجل الله والانسانية »** . فقد كان يعتقد أن قضية الله والانسان واحدة ، وأن الانسان هو الوسيلة لتحقيق غايات الله .. وان رسالة الفرد تقع فى حدود وطنه ، ولكن .. كما ان الوطن هو مقر تجمع الافراد ، فكذلك العالم مقر تجمع الامم متضافرة : **« ان أمامنا نهضة مستقبل ينسجم فيه العنصران الازليان : الفرد والانسان .. الحرية والتجمع »** .

هذه هى فلسفة « ماتزينى » ، فما دور المسيح فيها ؟ ..

انه يستعرض ما آلت اليه الامبراطورية الرومانية قبل مولد المسيح ، ثم : « جاء المسيح .. الروح المترعة بأقصى آيات الحب ، وبأقدس فضيلة ، وبأعظم الهام من الله ومن المستقبل .. وانحنى فوق جثة العالم الميت ، فهمس كلمة اليقين .. وعلى الطين الذى فقد كل شىء من خواص الانسـان — عدا الحركة والشكل — ردد كلمات لم تكن معروفة حتى ذلك الحين : الحب ، التضحية ، الانتساب الى السماء .. فنهض الميت ، وجرت فى الطين حياة جديدة .. ومن الجسد نهض العالم المسيحى ، عالم حرية ومساواة .. ومن الطين نهض انسان صادق ، هو صورة الرب » !

وفى هذا اعتراف صريح بالدور الذى ملأه المسيح فى تاريخ البشرية . وربط الرب بالانسان — فى حياة المسيح — رمز الى ضمان تحقيق رسـالة الانسانية .. فعن طـريق الحب والتضحية ، سيقدر للانسانية أن تصل الى الرب ..



فضح الأسرار!

قصة طريفة للكاتب العالمى:
"كارلو بيف"



الانسانية .. بين العقل والقلب

• استطاع ((كارلو بيف)) أن يثير ضجة فى أوربا بأسرها ، بكتابه ((سيزار بورجيا)) الذى كشف فضائح البابوية فى القرون الوسطى ، والذى ترجم الى معظم لغات العالم ، وأكسب ((بيف)) - الذى ولد فى ايطاليا ، فى سنة ١٨٩٣ ، ودرس فى انجلترا وسويسرا ، وعاش فى ألمانيا - شهرة واسعة ..

وقصة اليوم محاولة جريئة أخرى لهذا الكاتب . فلو أنك أخذتها على ظاهرها ، لكانت من أبدع القصص الغامضة . أما اذا تعمقت فيها ، فستجدها دراسة تحليلية هادفة لروح العصر ، تصور كيف يميل الانسان الى كشف النقائص - فى اخوته البشر - دون الفضائل ، ما لم يكن ساذج النفس والفكر ، كالقس موللر .. كما يسخر المؤلف من ايمان أهل هذا العصر بالآلة وسحرها .. السحر الذى يتمثل فى عدسة ((شيللر)) التى تكشف كوامن النفوس وخفايا الافكار .. فما لم يقم القلب الى جوار العقل ، ليحول دون الايمان الاعمى بالعلم والمخترعات وحدهما ، لقاد العقل الانسانية الى الدمار .. كما حدث لشيللر ، وكما يحدث للعالم اذا لم تحل القلوب دون تحويل العلوم الذرية عن ميدان الاسلحة ..

• جدير بى أن أعترف بأن فى هذه القصة كثيرا من الامور التى يصعب تقبلها دون تحفظ . على أننى سمعتها من أحد أصدقاء الدراسة ، ممن لا يرقى الى صدقهم وأمانتهم الشك . ولست أرجو أكثر من أن أرويها كما سمعتها تماما . وهى مهمة عسيرة ، لان صديقى محدث بارع ، لا سيما وأنه قصها على بعد أن شرب عدة أقداح من بيرة (بافاريا) الداكنة :

كان الاب ((جوهانس مارتين موللر)) ـ راعى كنيسة ((المخلص)) ، ببرلين الشرقية ـ رجلا أعزب ، دقيقا فى نظام حياته .. ((دقة النوتة الموسيقية)) كما يقول بلزاك الفرنسى ! .. ولكنه نسى دقته هذه عندما وقعت عيناه على نبأ فى صحيفة ((برلينر تاجبلات)) جاء فيه :

((شبت النار ـ فى حوالى الساعة السابعة من مساء أمس ـ فى ((فيلا)) من طابقين ، رقم (٥) بروزنبير جستراس ، بشارلوتنبيرج . وقد بادر مركز الاطفاء فى المنطقة الى ايفاد سيارتين . ولكن النار كانت قد استفحلت ـ لسوء الحظ ـ وكل ما استطاع رجال الاطفاء عمله ، هو أن راحوا يحاولون الحيلولة دون امتدادها الى البيوت المجاورة ، فوفقوا فى محاولتهم . ووجدت بين الانقاض المحترقة جثتان متفحمتان ، عرف أحد الجيران فى احداهما جثة ((كونو شيللر)) ، المصور المحترف ، ولم يتسن حتى الآن التعرف على الجثة الاخرى . ولا يزال سبب الحريق مجهولا . ويتولى البوليس التحقيق))

وقرأ الاب ((موللر)) النبأ مرتين ، فى تؤدة وأناة ، وقد تبدت على أساريره امارات الحيرة والتساؤل . ثم دفع مقعده وراح يذرع الحجرة .. **فان هذا النبأ رده الى الوراء أكثر من ربع قرن .. الى أيام الدراسة ، حين كان يقيم والمصور المحترق فى نزل ((فراو شوارتز)) .. ما كان أغرب ذلك الـ ((شيللر)) !..** كان أنحف رجل مشى على البسيطة ، وقد بلغ من الدمامة ما يكفى لارهاب الاطفال . وكان رأسه مجرد جمجمة ، أما يداه

فكانتا بضتين ناصعتين بدرجة غير عادية .. ومع أن ثيابه كانت نظيفة وأنيقة ، الا أنها لم تبد قط ملكا له ، فكأنها كانت ملكا لشخص فى ضعف حجمه . ولم يكن الناظر اليه ليتمالك أن يتذكر أولئك القديسين المحنطين فى صناديق زجاجية ، فى بعض كنائس جنوب ايطاليا ، وان كان وجهه يختلف عن وجوه أولئك القديسين بلحية سوداء صغيرة ، وشاربين متدليين . **على أن أعجب ما كان فيه هو صوته : صوت خافت ، منغوم ، ذو سحر مخدر يسلبك الحراك ، ويظل يراود ذهنك ، حتى بعد أن يصمت !**

على أنه لم يكن كثير الكلام ، بل أنه كان يشغل عن زملائه فى المنزل بالقراءة ، اذا ما ضمتهم المائدة . وكان مع ذلك كثير الاكل . فاذا تكلم ، كان كل امرىء يصغى اليه ، لا لصوته فحسب، وانما لان ذاكرته ونطاق معرفته كانا نبعين لاينضبان" وكانت العبارات المقتبسة من كتب الادب الرصين تتخلل حديثه فى سلاسة وغير تعمد أو اصطناع .. وكان بوسعه أن يروى عن ظهر قلب آخر خطاب لرئيس الوزراء . ولما كان معظم النزلاء بين مدرسين وطلبة ، **فان ذاكرة « شيللر » العجيبة ، ومعلوماته الواسعة ، أكسبته قدرا غير بسيط من احترامهم . بيد أنه لم يكن محبوبا منهم ، لا سيما وان أحدا منهم لم يقو على أن يحطم التحفظ الذى كان يلوذ به . فما اطلع أحد على منبته ، أو أصله ، أو مصدر عيشه .** ولقد حاول « موللر » أن يخرجه من تحفظه ، ولكنه كان — فى كل مرة — يرتطم بصخرة لا تلين ، فلم يفز بأكثر من أن «شيللر» كان نمسويا ، يعمل فى معمل الابحاث لدى مصنع لمواد التصوير

على أن اسم « كونو شيللر » اجتذب الى بصر القس طيفا عزيزا .. **طيف « فراولين ناتالى ريلكه » ، التى أصبحت — فيما بعد — « فراو شيللر »** .. لا بد أنها كانت فى التاسعة عشرة أو العشرين، حين ظهرت فى قاعة الطعام بالنزل فى ليلتها

الاولى به ، فترددت برهة ، ثم تقدمت فى ارتباك ، فاتخذت مجلسها بين « شيللر » ومدرس للخط . ولعلها لم تكن جميلة — اذا تأملت قسماتها ، كلا على حـــدة — ولكنها كانت ذات عينين باسمتين ، لامعتين ، فى خضرة العشب النضير ، وشعر جميل فى لون النحاس ، وقوام بديع ، ويدين مرهفتين شاحبتى اللون ، كان لهما بالذات أبلغ الوقع على « موللر » . فسرعان ما وقع فى حب الفتاة ، فى وجد رفيق ، عميق .

أما كيف قبلت « ناتالى » أن تتزوج من « شيللر » ، فهذا ما لم يقدر للقس أن يعرفه .. **فمع كل ما أوتيه المصور من ذاكرة عجيبة ، وعبقرية فذة ، وصوت ساحر ، الا أن هذا كله لم يكن ليطغى على الحقيقة الواقعة .. تلك هى أنه كان أشبه بهيكل عظمى يسير على الارض !.. فضلا عن أن سن «شيللر» كانت ضعف سن العروس تقريبا.** وما ان انتهت مأدبة الزفاف، رحل العروسان الى مكان غير معروف . فلم يقدر للقس أن يراهما أو يسمع عنهما بعد ذلك .

ومهمـا يكن الامـر ، فقـد أقسم القس — فى تلك الليـلة — أن لن يتزوج .. وبر بقسمه ، لا سيما وأنه لم يصادف فى حياته بعد ذلك، امرأة تستطيع أن تشغله كما شغلته «ناتالى» !

وارتد القس الى النبأ الذى كانت تحمله الصحيفة .. لا ريب فى أن « كونو شيللر » المحترق ، شخص آخر غير المصور الذى عرفه فيما مضى ، فما أكثر شيوع هذا الاسم ! .. ومع ذلك فقد راح هاتف خفى — فى أعمـاق القس — يهتف بأن المحترق هو صاحبه بالذات . ولم يكن لهذا كبير قيمة لديه ، وانما شغل بالتفكير فى : **من عساه يكون الشخص الآخر الذى وجد محترقا معه ؟**

وشعر بحافز قوى يدفعه الى أن يستوثق مما اذا كانت الجثة الثانية لرجل أو امرأة . ولكن ، كيف ؟ .. واستقر رأيه — بعد طول تفكير — على أن يسعى الى موقع الحادث ، فلعله

يوفق الى شخص يلقى له بعض الضوء .. وكانت الشمس تشق لنفسها فرجة بين الغيوم ، لتطل بوجه شاحب ، حين غادر داره ، فاستقل الحافلة الى (شارلوتنبيرج) .. وكان شارع روزنبيرج — (روز نبيرجستراس) — يقع فى طرف هادىء من الحى ، والدار «رقم ٥» هى الثالثة ، الى اليسار .. **وبدت حديقتها مشعثة ، موحلة ، بينما لم يبق من البنيان سوى أربعة جدران سودها الدخان والنار ، وبللتها المياه الدافقة التى صبها رجال الاطفاء عليها .. ووقف القس مولر مستندا الى مظلته — يتطلع الى المنظر الحزن . واذا بشرطى يقطع عليه تأمله ، قائلا : « ان ليس لاحد أن يقف هناك » ..** واذا بفكرة تومض فى ذهنه ، فالتفت الى الشرطى متسائلا : « لعلك تستطيع أن تذكر لى ما اذا كانت احدى الجثتين لامرأة ! » . فأجاب الشرطى باقتضاب خشن : « لست أدرى » . فعاد القس يسأله فى أدب : « اذن ، فلعلك ترشدنى الى الجهة التى أستطيع سؤالها ؟ » . وهنا حدجه الشرطى بنظرة متريبة ، ثم أخرج مفكرة من جيبه ، وأمسك بقلم من الرصاص ، وسأله : « هل تسمح باسمك وعنوانك ؟ » . وأجفل القس ، ولكنه أدلى بالاسم والعنوان . وكتبهما الشرطى ، ثم هز رأسه يصرفه مترفعا . وسار القس . **وما لبث أن خطر له أنه قد يجد ما يشفى غليله فى « المشرحة » .. واذ لمعت هذه الكلمة فى ذهنه ، انطلق لفوره الى المكان الرهيب !** .. وتسارعت دقات قلبه وهو يرقى الدرجات القلائل المفضية الى مدخل المبنى . ثم سأل الحارس الذى استقبله ، عن ضحيتى حريق (شارلوتنبيرج) ، فقال الرجل بصوت خشن ، دون أن يكلف نفسه عناء التطلع اليه : « الطابق الثانى ، الى اليسار ! »

واستقبلته رائحة حادة ، مثيرة للتقزز .. وأجتاز ردهة طويلة ، ضعيفة الضوء ، حتى انتهى الى باب كتب عليه بحروف سوداء : « المراقب » . وطرق الباب ، فسمع صوتا يصيح : « ادخل » . واذا برجلين يجلسان الى مكتب كبير . وسأله

أحدهما عما يبغى ، فما ان أدلى اليه برغبته ، حتى سأله عن اسمه . وذكره وهو موجس ، واذا بالرجل يهب واقفا ، فيصك كعبى حذاءيه ــ أحدهما بالآخر ــ فى حركة عسكرية ، ويقول: ((أنا المشرف على المشرحة يا سيدى القس !)) . ثم التفت الى صاحبه قائلا : ((أرجو أن تتصل بالسيد المدير العام ((ويبر)) فورا ، وانبئه بأننى أريد أن أتحدث اليه)) . واذ خرج الآخر ، عاد الرجل يقول للقس : ((لقد كنا فى ارتقابك أيها الاب . تفضل بالجلوس !))

وبارح المشرف الحجرة ، فتهالك القس فى مقعد ، وهو حائر مشدوه .. ما الذى كان يعنيه الرجل بقوله : ((كنا فى ارتقابك)) ؟ .. وثقل عليه الصمت الذى شمل المكان . وتساءل فى نفسه : الى متى يطول به الانتظار ؟ .. ومن يكون ذلك السيد المدير العام ((ويبر)) ؟ .. والمدير العام لماذا ؟ .. وما شأنه به ؟ . وما لبث الباب أن فتح ، وأقبل ضابط شاب ، دخل المشرف فى أثره قائلا : ((اسمح لى يا سيدى القس بأن أقدم الكابتن هوبر .. لسوف يصحبك الى الدكتور ويبر ، وهناك سيارة رسمية لتقلكما !))

* * *

وظل مرافق القس فى السيارة جامدا ، مشدود القوام ، لا ينبس ببنت شفة ، حتى انسابت السيارة أخيرا ــ خلال أبواب حديدية ضخمة ــ الى فناء مرصوف بالحصى ، ثم وقفت . فهبط الضابط وقاد القس عبر بهو رخامى هائل ، الى مصعد حملهما سريعا الى ردهة مكسوة بأبسطة فخمة ، وسرعان ما كانا فى ((صالون)) أنيق . وأخذ القس يتلفت حوله ، لا يدرى ماذا يفعل بمظلته . واذ به يسمع صوتا يهتف فى بشاشة : ((أهلا ، أهلا .. ها أنتذا أخيرا !))

وبرز من خلف احدى الستائر رجل طويل القامة ، عريض

المنكبين ، فى بزة كاملة الاناقة ، وقد فرق شعره اللامع الغزير الى الجانبين عند منتصف رأسه ، وثبت بين حافتى عينه اليمنى عدسة (مونكل) .. **وتقدم الرجل باسطا يده ، قائلا للقس : « أرى أنك لم تعرفنى .. يبدو أن السيد القس قد نسى قائده فى الكتيبة الاولى ! » . وهتف القس ، وقد كاد عنان صوته يفلت من سيطرته : « أهذا أنت ؟ » .. لقد كانوا يلقبون « الميجر » فى الكتيبة بالشاب الانيق ، لفرط عنايته بثيابه ، وعطوره** ..وكان لطيفا ، ولكنه كان داهية ، يعرف كيف يعامل من هم أعلى منه . ولعل هذا هو الذى أكسبه منصبا رفيعا كما تبدى لعينى القس ! ..

وقال « ويبر » اذ خلا الى القس : « أفتريد أن تعرف كيف عثرت عليك ؟ .. لقد كانت لدى الشرطى المكلف بحراسة موقع الحريق أوامر بأن يتصل بى مباشرة ، اذا عثر على شخص يستحق الاهتمام .. وبقية القصة معروفة ! » . فقال القس : « ما أشد اغتباطى يا سيدى الميجر .. » . فقاطعه الآخر قائلا : « الدكتور .. فقد ولت أيام الرتب العسكرية بالنسبة لى ، وأنا الآن دكتور فى العلوم السياسية ، وعضو متواضع فى الجهاز الذى يدير دفة الدولة ، وخادم وفى للوطن .. ولكنى أحسبك مشوقا الى أن تعرف سبب احضارك الى هنا .. لقد وددت أن أحظى برؤيتك أولا ، بطبيعة الحال . على أن هناك أسبابا أخرى ، سأصارحك بها فورا ! »

وأمسك وكأنه ينسق أفكاره ، ثم سأل القس – فجأة – بلهجة جعلته يجفل : « **الى أى مدى كانت معرفتك بكونو شيللر ؟** » . فروى له القس موللر بايجاز علاقاته بالمصور . وأصغى الدكتور ويبر فى اهتمام ، ثم قال : « اذن فأنت لم تره لاكثر من خمس وعشرين سنة .. أهذا ما قصدته ؟ ألم تكتب له أو تسمع أنباءه – ولو بطريق غير مباشر – طيلة هذه السنوات ؟ » . فأجاب القس : « لا ياسيدى .. البتة ! »

ـ وما مدى معرفتك بفراو شيللر ؟ .. وهل كانت لك أية صلة بها ـ مباشرة أو غيرمباشرة ـ بعد أن لم تعدترى زوجها ؟

وإذ أكد له القس أنه لم يتصل بها اطلاقا بعد رحيلها والمصور ، عقب زواجهما ، أطرق مفكرا . وسادهما الصمت طويلا .. وما لبث الدكتور أن وضع على ركبة القس يدا بضة ، ذات بياض مشوب بالحمرة ، فكأنها فأر حديث المولد ، وقال : « انما دعوتك الى هنا ، لاننى بحاجة الى معونتك فى مسألة جد خطيرة . **على أننى أسألك ـ قبل أن أبوح بكلمة ـ أن تعدنى بشرفك كسيد ألمانى ، وكقس من رجال الكنيسة ، بأن لا تنبس بشىء مما ستعرفه لاى مخلوق ! »**

وبهت القس محيرا . ولكنه أعطى الوعد الذى طلب منه . فقال الآخر : « والآن ، أرجو أن لا تقطع على استرسالى ، وأن تصغى لكل ما سوف أقوله لك .. وفى النهاية ، سأذكر لك كيف يتسنى لك أن تساعدنى فى حل هذه المسألة التى تتوقف عليها سلامة الوطن ! » .. فأومأ القس برأسه موافقا ، وهو يشعر بأنه على وشك أن يلعب دورا فى مأساة غامضة كان « شيللر » بطلها الاول . وتناول المدير العام سيجارة ذات طرف مذهب ، من علبة مذهبة ، فأشعلها بقداحة ذهبية ، وبعد أن جذب بضعة أنفاس منها ، ونفث الدخان وراح يتأمله ، قال :

ـ فى ذات يوم ، منذ خمس سنوات ، جاءنى القاضى بفايفر ـ قاضى الدائرة الثالثة ببرلين ـ وهو مهموم مضطرب . وأنت تعرف أنه واسع النفوذ فى الدوائر السياسية ببرلين ، مما حفزنى على التحمس لمساعدته . وكان ما رواه لى مما يصعب تصديقه .. بدأ حديثه بقوله أنه كان يخشى أن يكون مشرفا على الجنون . ثم سألنى فجأة : « ماذا يكون شعورك لو أنك كنت قاضيا ، وفطنت فجأة الى أن تسعة أعشار أحكامك

خاطئة ؟ » .. والحق أننى لم أعرف بماذا أجيبه . على أنه انطلق يقول : « لقد قضيت على أمين خزانة مصرف الدولة بالسجن لعشر سنوات ، مع الاشغال الشاقة ، بتهمة الاختلاس . **وما أن نطقت بالحكم ، حتى أقبل حاجب ، دفع الى بورقة ، هذا نص ما جاء فيها : « انك حمار . لقد قضيت على برىء . وما المذنب سوى مدير المصرف » . وبأسلوب أدبى ، تضمنت الورقة الدليل ، الذى تأكدت ـ بالتحرى ـ أنه كان صحيحا ، واننى أخطأت ! »**

وابتسم الدكتور ويبر ، ثم استطرد قائلا : « وروى لى القاضى كثيرا من أمثال هذا الحادث . وغنى عن القول أننى سريت عنه ، ولكن لم أعرف من أين أنفذ الى سر هذه الوريقات الغامضة . وفيما أنا فى حيرتى ، انتحر القاضى . غارتحت . **وأصارحك أننى ظننت أن الرجل فقد صفاء ذهنه ورجاحة أحكامه لسبب من الاسباب ، فأخذ يرتكب الاخطاء تباعا . ورجحت أن تكون تلك الوريقات من أوهام عقل مختل ، ودعم الانتحار هذا الرأى** . على أنه لم تكد تنقضى ثلاثة أشهر ، حتى تلقيت دعوة من أحد كبار أركان حرب القيادة . واسمح لى أن أحتفظ باسمه .. وتلقانى الضابط الكبير بقصة أوجزها فيما يلى : فقد رأت وزارة الحرب أن تبدل ثلاثة من الملحقين العسكريين ، فى ثلاث من السفارات الكبرى . وبعد أن استعرض الضابط كل من كان يراهم أهلا لان يحلوا محل هؤلاء الثلاثة ، ودرس صفحات خدمتهم ، ومؤهلاتهم ، اختار ثلاثة توسم فيهم أقصى كفاءة مرتجاة لتلك المناصب الدقيقة . وبعد أن وردت أسماؤهم فى النشرة الرسمية ، اذا بالضابط الكبير يتلقى خطابا بدون توقيع ، ينبئه بأن أحدهم كان مقامرا ، مخادعا ، وجاسوسا لعين الدولة التى كان موفدا لتمثيل بلاده لديها . وأجرى الضابط الكبير تحريات سرية دقيقة ، كشفت



له عن صدق ما ورد فى الخطاب .
وكان هذا سببا فى أن تحوم الشبهات حول كل ضابط .. ولقد أطلعنى على الرسالة فاذا بها تحفة أدبية مدهشة ، أكاد أقطع بأن أسلوبها فاق أسمى ما بلغه هاينى .. وكانت الوقائع معروضة عرضا رائعا ، دقيقا ، مقنعا . وكانت تتناول الضابطين المرشحين الآخرين ، باتهامات لا تدع لهماسبيلا الى أن يرفعا رأسيهما .. وكان أغرب ما فى الامر ، أن يعرف كاتب الخطاب أدق أسرار الثلاثة ، وأن يضع اصبعه على مواطن الخسة والشر فى نفوسهم ، كما لو كان قد فتح عقولهم وقلوبهم ، وتأمل ما فيها بمنظار دقيق ! »

واستطرد الدكتور ويبر ذاكرا أن نطاق نشاط ذلك المجهول سرعان ما اتسع .. وكانت رسائله كلها دقيقة ، رائعة الاسلوب ، حافلة بالوخزات الاليمة . ولم يحاول مرة أن يغير خطه ، أو أن يبدل من أسلوبه .. وكانت كلها جريئة ، واضحة ، دامغة ، وخازة . وقد انهمرت هذه الخطابات على علية القوم ، وأصحاب المناصب العليا ، حتى ازدحم مكتب « ويبر » بالمترددين عليه ، ممن راحوا يستعينون به على دفع الشر الخفى الذى كان يتهددهم من فاضح الاسرار الغامض ! .. ومضى الدكتور قائلا :

« وغنى عن القول ، اننى لم أدع حيلة ولا أحبولة الا بذلتها ، ولكن .. دون جدوى . **ومما زاد الامر صعوبة ، أن ذلك الغامض لم يكن يحاول أن يستغل ما كان يكشفه من أدق الاسرار والنوازع الخفية ، لغرض خاص ، أو مصلحة شخصية** .. وكما عبر أحد أعوانى : « ان جسد المرء ليقشعر اذ يفكر

فى أنه يبحث عن شخص لا يكشف خداع وغش الغير فحسب ، بل أنه يستطيع أن يقرأ أدق ما يجول بخاطرك ، كما يقرأ كتابا مسطورا ! » .. حتى أنا لم أنج من رسائله .. على أن يوم انكشافه لم يلبث أن حان ! »

فقد كانت الوزارة تترنح وتتخبط فى الموقفين الداخلى والخارجى على السواء . وكانت الاحزاب المتكتلة لمؤازرتها فى البرلمان قد بدت تتداعى أمام حملات الاحزاب المتطرفة .. **ولكن رئيس الوزراء كان سياسيا محنكا ، أريبا ، داهية . وقدر له أن يظفر بوثائق تحيط زعماء المعارضة بشبهات قوية ، فأراد أن يفاجئهم بها – على حين غرة – ولم ينبس بكمة عنها لاحد .. ولا لوزرائه** . بل كان « ويبر » هو الوحيد الذى عرف بأمرها ، اذ كلفه بأن يتخذ الاجراءات الضرورية فى (الرايشيستاغ) ، خشية هياج الاحزاب المتطرفة .

وكان اجتماع (الرايشيستاغ) اجتماعا مشهودا ، قد تكهرب جوه واكفهر .. وبث « ويبر » رجاله – فى ثياب مدنية – فى كل مكان . وفى المحظة التى هم رئيس الوزراء أن يبارح فيها مجلسه ، ليلقى بقنبلته ، اذا بفيض من المنشورات ينهال من مقصورة الصحفيين ، ويغرق القاعة بأسرها .. **وسرعان ما رأى « ويبر » اثنين من رجاله يمسكان بمصور صحفى ذى شكل غريب ، اذ كان نحيلا ، وشاحبا ، كانه شبح !**

ومضى ويبر قائلا : « ومع أن المنشورات كانت مطبوعة على الآلة الكاتبة ، الا أنها كانت مصوغة بالاسلوب المعهود ، وقد جاء فيها : « حذار من الثعلب العجوز ! » ، وضمت ملخصا للخطاب الذى كان رئيس الوزراء يوشك أن يلقيه .. وكان من جراء ذلك أن فشلت حملة الرئيس ، وأن سقطت الوزارة تحت حملة السخرية والتهكم ! .. **أما « كونو شيللر » فقد أسرعت باستدعائه الى مكتبى ، وخلوت اليه .. واعجب ما شاء لك العجب ، اذا قلت لك أنه لم يبد خائفا ولا مضطربا ! ..**

وكانت معه حافظة أوراق كبيرة . وراح يتأملنى بعينين أقضتا طمأنينتى . وبعد الاسئلة التمهيدية المألوفة : الاسم ، ومسقط الرأس ، والعنوان .. الخ . علمت أنه كان فى السادسة والخمسين من عمره ، وقد ولد فى (جراز) ، لاب طبيب لا يكاد يتذكره لانه توفى وهو فى الخامسة من عمره . وقد نشأ فى مدارس « الجيزويت » ، وحصل على شهادة فى علم الطبيعة من (جوتينجن) ، وتزوج فلم ينجب أطفالا . وكان يقيم فى رقم ٣٢ بستيرنرجراس ببرلين الشرقية ، ويتكسب عيشه من العمل كصحفى مصور لصحيفة « مورجن زايتونج » .. **وكان يتكلم بصوت غريب .. صوت ناعم ، يخدر الاعصاب**

« وبدأت بسؤاله عما كان يرمى اليه من العمل الذى أقدم عليه فى (الرايشيستاغ) ، فأجاب بلا تردد : « دعنى أنبئك أولا – اذ أرى أنك مشوق لهذا – بأننى صاحب تلك الرسائل التى أقضت مرقد كثير من علية القوم ، خلال الاشهر الستة الاخيرة .. واذا كنت تظن اننى أفسدت خطاب رئيس الوزراء الليلة من أجل المعارضة ، أو اننى كنت أكشف الفضائح فى رسالتى احقاقا للعدالة ، فانك تخطىء .. **والواقع أننى كنت قد عقدت عزمى اليوم على أن أمكن رجالك من القاء القبض على ، لاحظى بفرصة الحديث اليك ! »** . وتحول بعد ذلك يتهكم على البروسيين ، ويسب غباءهم وجمود عقولهم ..

« على أننى لم ألبث أن قطعت عليه استرساله ، وأمرته أن يتحدث فى الموضوع ، فقال : « ولكن هذا هو الموضوع .. فسواء اعترفت أم لم تعترف ، فان البروسيين كانوا سر نكبة ألمانيا والشعب الالمانى .. من الذى أفسد علينا الحرب سوى جنودكم « اليونكرز » الذين تزدهون بهم ؟ .. وهل فى التاريخ أزرى من غباء قادتكم ، اللهم الا أن يكون غباء من تسمونهم ديبلوماسييكم ؟ » ..

« كان الالمان – فى رأى الهرشيللر – مخلوقين ليحكموا

العالم ويسودوا الامم ، واذا كانوا لم يوفقوا الى هذا بعد ، فانما يرجع اخفاقهم الى آبروسيين ، الذين شبههم بقرحة فى كيان ألمانيا ، فهم كالشعوب التى تعانى مركب النقص ــ مثل انجلترا وأمريكا ــ يرون الحرب صراعا بين قوتين مسلحتين .. قوة وحشية ضد قوة وحشية ، تماما كما كانت عقلية أهل الكهوف من الآدميين ابدائيين .. واستطرد يقول : « لقد ولت أيام القوة الوحشية . ان مدافعكم ، وبنادقكم ، وغواصاتكم ، وبوارجكم ، وطائراتكم ، لم تعد تتمشى مع العصر ، فان الحرب ستتطور للسيطرة على ارادة العالم بصراع غير منظور . سيهزم أعداؤنا قبل أن تسنح لهم فرصة القتال . وكل ذلك سيكون بفضل اكتشافى أنا ، كونو شيللر ، ابن مدينة (جراز) بالنمسا .. لقد اختارنى الله لاحقق العصر الذهبى للعنصر الجرمانى »

« وخيل الى ، يا عزيزى الاب موللر ، ان الرجل قد أصيب بخبال . وكأنما قرأ ما ساورنى ، اذ قال : « أتظننى مجنونا ؟ لسوف أنبئك كيف توصلت أيها ، وكيف أعتزم أن أستخدم اختراعى لمجد عنصرنا ! » .. ووقف ، فوقفت ، وأخذ كل منا يحملق فى الآخر هنيهة .. »

وسكت ويبر ، فلما لم ينبس القس بكلمة . استطرد :

ــ وسألنى : « أتعرف أشعة اكس ؟ » . فقلت اننى أعرف شيئا عنها ، واذ ذاك قال : « انها أشعة تقوى على أن تنفذ خلال بعض مواد معينة ، كالقماش أو الجلد أو اللحم الذى يكسو عظامنا ، مما يمكن الاطباء من أن يكتشفوا موقع مسمار قد يكون فى أحشائك مثلا ! .. **ولكن ، ما قولك فى أشعة تنفذ خلال عقلك وقلبك فتكشف أدق وأعمق أفكارك ومشاعرك ؟ .. ولكن ، ليس كالقرينة الملموسة شىء فى قوة الاقناع ! »** .

وأخرج من حافظة أوراقه مظروفا فك عنه خيطا ، وأخرج منه مجموعة من الصور الفوتوغرافية ، اختار منها واحدة بعناية ،

وناولتيها ورجانى أن أتأملها .. ولم أستطع أن أتبين فيها سوى مجموعة مهتزة من الكلاب ، محوطة بأشياء غير واضحة ، كما يحدث للوحة الحساسة اذا فتحت العدسة مرتين أو ثلاثا ، تباعا .. وقال شيللر : « هذه صــورة كلبى ، وقد التقطت بأشعتى التى أسميها « أشعة ن . » . وقد التقطت الصورة فى معملى ، والكلب واقف على منضدة سوداء ، وخلفه ستار أبيض ناصع . والاشياء التى تراها حوله هى أطياف الافكار المسيطرة عليه .. فهنــاك كلبة هى عشـيقته .. والنقطة السوداء ـ تحت أنفه ـ عظمة من نوع يحبه .. ولو أنعمت النظر، لرأيت طيفا واهنا ، هوخادمكم المطيع ومولاه .. أنا ! » .

« ثم أسلمنى صورة لامرأة فتانة ، وقال : « ستلاحظ طيف رجل خلفهـا ، ولو أنعمت النظر لتبينت أوسمته ورتبه العسكرية .. **ومن المؤسف أن هذا العسكرى اللامع ، ليس زوج الاميرة « ك . » . أما المستطيل الذى فوق قلب الاميرة ، فهو أذن مصرفى ، استطعت ـ بعدسة مكبرة ـ أن أقرأ الرقم الذى عليه .. وهو رقم ضخم ! » ..**

« وعرض على صـورا أخرى ، تكشف عن كوامن أفـكار ومشاعر أصحابها . ثم قال : « يحسن بى أن أذكر لك أنه ليس بوسع كل فرد أن يقرأ الصور الملتقطة بأشعة ن . وكما أنه لا يملك قراءة صور أشعة « اكس » سوى طبيب خبير ، فكذلك قضيت أنا سنوات فى التدرب على تفسير صورى ، وما زال بعض التأويلات عسـيرا على ! » .. وهـكذا راح يعرض على مزيدا من الصور ويفسرها لى .. **وكم من أسرار فاضحة كشفها ! بل أن منها أسرارا تذهلك ، ويعجز عن كشفها أبرع المحللين النفسيين ! ..**

« وهكذا عرض على الهر شيللر أدلة صـحة اختراعه . وكانت من بين هذه الادلة صورتى، وقد انعكست عليها أطياف دخيلتى ، فكانت هذه فصل الخطاب ! »

وفى تلك اللحظة ، أقبل أحد سكرتيرى المدير العام ، فهمس اليه بكلمات ، نهض هذا على أثرها متهللا ، ثم جلس ثانية وقال : « سمعت الآن نبأ يسرك . ولكن ، لاتم القصة أولا ! »

وأستأنف الدكتور الحديث قائلا : « ولولا أن الادلة كانت واضحة ومقنعة ، لظننتنى ضحية محتال بارع .. على أن يقينى منها لم يزدنى الا اضطرابا وحيرة . فقد كان معنى صحتها ، أن فى يد شيللر سلاحا خطيرا ، يستطيع أن يصل به الى أدق الاسرار المصونة .. وكنت كلما أمعنت فى التفكير ، ازددت ايمانا بأنه ما من وسيلة تتبع سوى وضع شيللر تحت رقابة الدولة ، واستغلال اختراعه فى سبيل مصلحة الوطن . وكانت السبيل الوحيدة لذلك ، هى أن أعينه فى منصب تحت رئاستى ، دون أن أطلع أحدا — ولا الوزراء أنفسهم — على سره ، حتى لايفتضح الامر ، فيفسد عليه استغلاله . وأخيرا وافق وزير الخارجية — وهو كاره — على أن يعينه مصورا فوق العادة ، بمرتب مبعوث قنصلى . وكانت أول مهمة نيطت به ، هى أن أوفد لتصوير مؤتمر لرؤساء وزارات الدول ، فاذا النتائج التى عاد بها ، تفوق كل توقع . فقد كانت الصور العادية التى التقطها شيللر لاعضاء الوفود ، كفيلة بأن تجعل رؤساء الدول الكبرى — قبل الصغرى — يتهافتون على تكليفه بالتقاط الصور لهم ولمرافقيهم ومرافقاتهم . **وكانت صور النساء أكثر أهمية لنا من صور الرجال ، اذ أن حقيقة شخصيات الرجال كانت تنعكس فى صورهن أكثر جلاء ودقة .**

« وهكذا مضينا من نصر ديبلوماسى الى آخر .. وعلى هدى الصور كنا نغزو عقول السياسيين والديبوماسيين ، ونسقط الوزارات فى الدول الاخرى ! »

وأشعل الدكتور ويبر سيجارة ، ثم عاد يقول :

— ولكن حظنا لم يدم .. وفى اللحظة التى خلنا فيها أننا قد بلغنا أهدافنا ، اذا بالاداة التى تحقق لنا النجاح ، تتخلى

عنا .. ففى صباح يوم عاصف ـ فى شهر مارس ـ اختفى شيللر ، رغم الاعين التى كنت قد أقمتها عليه .. وكان فى الليلة السابقة قد تحدث معى بحماس عجيب عن مهمة اقترحت أن أوفده فيها الى (موسكو) . ولم أهتم كثيرا بالنبأ ـ فى البداية ـ ولكننى ما لبثت أن تبينت أن زوجته ، والصور التى التقطها بأشعة « ن » قد اختفت معه .. وأقمت الدنيا وأقعدتها ، وحشدت أمهر أعوانى للبحث عنه . ولكنه كان قد تلاشى ، ومعه من الصور ما يكفى لان ينسف حكومات وحكومات .. واذ عجز رئيس الوزراء والمسئولون عن معالجة الموقف، أوشكوا أن يجعلونى كبش الفداء ، لولا أن أنقذنى الحظ .

« ولست بحاجة الى أن أقول لك أن الحال لم تلبث أن رجعت الى ما كانت عليه ، ولما تمض ستة أشهر على اختفاء « شيللر » .. عادت الدسائس السياسية ، والفضائح ، و .. وتزعزع مركز ألمانيا فى العالم ! .. على أننى لم أفقد الامل يوما فى أننى سأعثر على الرجل . الى أن كان الاسبوع الماضى .. فى ١٤ يناير ، أن شئت الدقة . اذ جاءنى أحد أعوانى وقال أنه رأى « شيللر » يغادر متجر بدال فى (شارلوتنبيرج) ، فتعقبه حتى وجد أنه يقيم فى المنزل رقم ٥ فى (روزنبيرجستراس) . وكدت أذهب الى هناك لفورى ، لولا أن خشيت أن يضيع الاندفاع كل فرصة . لذلك أمرت بمراقبته ، وبتنظيم حصار حول داره !

« ولم يحدث ما يستحق الذكر فى الايام الستة الاولى ، فقد كان شيللر يخرج فى كل صباح ليبتاع المؤن من محل للبدالة قريب ، ثم يعود الى الدار فلا يبرحها . ولم يكن ثمة زائر ، كما علمت أن شيللر استأجر « الفيلا » قبل أسبوع ، وقد دفع الايجار لشهرين مقدما . وفى اليوم السادس ـ وهو الذى سبق الحريق مباشرة ـ لمح أحد المعينين لرقابة البيت امرأة تروح وتغدو أمام نافذة فى الطابق الثانى . وفى الساعة

السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء اليوم التالى ، سمع رجلا أنيق الملبس ، يسأل أحد المارة — بلكنة أجنبية — عن المنزل رقم ٥ . ثم دق الجرس ، ففتح شيللر الباب ، وأدخله . **وكانت هذه آخر مرة رؤى فيها حيا . وان هى الا ساعات حتى وجدت جثته متفحمة ، بين الانقاض »** .

وكان القس موللر يكبح فضوله بجهد طيلة الحديث ، فما لبث أن تساءل : « اذن فأنت تؤكد لى أن الجثة الاخرى لم تكن لفراو شيللر ؟ » . فأجاب ويبر : « فعلا ، ولكنا كتمنا الامر عن الصحف ، لاسباب تهمنا .. اننى أعرف مدى قلقك ، فاطمئن ، **فان فراو شيللر على قيد الحياة ، وقد علمت لتوى أنها فى المستشفى العام ، تعانى من صدمة عصبية فحسب ! »** . فتنهد القس الصعداء ، وهتف : « الحمد لله » . واذ ذاك قال ويبر : « وهنا يأتى دورك . لقد كنت لا أرجو منك — حتى لحظات مضت — سوى أن تساعدنى فى العثور على فراو شيللر . أما الآن ، فأنا أريد منك شيئا أكثر .. لقد عرفت منك أنك كنت على صداقة وثيقة بالزوجين . واذا لم أكن قد أسأت الفهم ، فان السيدة كانت ذات مكانة لديك .. لا تخجل ، فان الحب عاطفة نبيلة ! .. **اننى مضطر الى أن أسألك أن تصحبنى الى المستشفى توا ، فتحاول أن تحمل فراو شيللر على أن تكشف عن سر مصرع زوجها ، فهذا أمر عظيم الاهمية بالنسبة لسلامة الوطن ! »** .. وبدون أن ينتظر من القس موافقة ، نهض ودعاه الى الخروج معه .

واذ دخلا المستشفى ، طالعهما نبأ بأن فراو شيللر فى تحسن مطرد ، ولكن الطبيب المشرف على علاجها أمر بأن لا تستقبل أكثر من زائر واحد . ومن ثم اقتيد القس موللر وحده الى غرفتها .. وأمام الباب ، وقف بين اللهفة والاحجام ! وخفق قلبه بعنف حين أقبلت الممرضة من داخل الغرفة ،



وأشارت اليه أن يدخل .. وبدت له الغرفة – فى بادىء الامر – مظلمة ، ولكنه سرعان ما تبين أمامه حاجزا يحجب السرير عن الباب . فدار حوله ، واذ بها أمامه ، محوطة بالوسائد . وعلى ضوء المصباح الواهن المعلق فوق السرير ، رأى وجهها شاحبا ، تحت تاج الشعر الكثيف النحاسى اللون . وتراءت عيناها أكثر اتساعا من العادة ، وشفتاها جافتين ، لا يجرى فيهما دم ما.

ولم تكن قد تغيرت – بوجه عام – كما كان يتوقع . وابتسمت ، وأشارت بيد نحيلة بيضاء جميلة – تدافعت الدموع الى عينى القس حين رأى ضعفها – فجلس فى المقعد الذى كان عند قدم فراشها ، ضاما قبعته الى صدره .. **وكانت هى التى خرقت الصمت ، عقب انصراف الممرضة ، اذ قالت بصوت واهن ، كأنه صادر من عالم آخر : « يسرنى أن أراك ! » .. ولم يلق القس – بعد ذلك – عناء فى حملها على الكلام .**

وكان موجز ما قالته أن المصور لم يكن – بوجه عام – سىء المعاشرة فى البداية ، الى أن تملكته حالة فكرية غريبه ، جعلته كثير الشطط ، وأحالت حياة زوجته الى شقاء لا حد له .. كان – قبل العامين الاخيرين – زوجا مثاليا ، يرعى زوجته فى عطف وافر ، ويحوطها بألوان العناية .. ولم يكن يعيبه سوى كثرة التنقل . فبعد أن غادر برلين بزوجته – عقب الزواج مباشرة – **طاف بها شرق العالم وغربه ، دون أن يقيما فى بلد أكثر من أسابيع أو أشهر قلائل .. وكانت أطول مدة**

مكثاها فى بلد ، هى تلك التى قضياها فى (باريس) ، اذ بلغت عشرة شهور . ثم قدر لهما أن يبقيا فى (ميلان) سنتين ، اذ ألم بناتالى مرض لازمهـا الشطر الاكبر من هـذه الفترة .

وهكذا ظلا فى ترحال — عبر البر والبحر — لاكثر من عشرين عاما . وكانت فراو شيللر تحاول — فى بعض الاحيان — أن تزين لزوجها العودة الى ألمانيا ، ولكنه كان يقابل هذه الرغبة بالذات بالرفض الصريح ، رغم حرصه على أن يلبى كل رغباتها . **ولم يكن يبدى مبررا للرفض أكثر من أن يقول بايجاز : ((لم يحن الوقت بعد !)) . ومن ثم فقد دهشت بقدر ما فرحت ، حين قال لها فى عشية عيد زواجهما الثانى والعشرين ، وكانا فى (القاهرة) : ((سنرحل غدا الى برلين !))**. وكانت قد اعتادت أن تتأهب للرحيل فى أقصر مدة . وقد خالجها الامل فى أنه قد يقتنع — اذا ما صار فى ألمانيا — بالاستقرار هناك، لا سيما وقد أنبأها بأنه قد استأجر منـــزلا هناك لمقامهما . وكانت الشهور الثمانية عشرة التى قضياها فى ((الفيلا)) التى نزلا بها فى (ستيرنرجراس) ببرلين ، من أسعد أعوام حياة ناتالى .

* * *

ثم كانت أمسية الخامس والعشرين من مارس .. تاريخ لن يقدر لها أن تنســاه ما عاشت ! .. كانت قد آوت الى فراشها مبكرة ، تتنعم — فى سريرها — بقراءة احدى القصص الغامضة التى كانت تولع بها .. وكانت الغرفة دافئة ، مريحة .. واســتغرقت فى القراءة الى أن وصلت الى نهاية أحـد الفصول ، فرفعت عينيها عن الكتاب ، وشد ما دهشت لمـا رأت ، حتى لقد ظنت نفسها فى حلم ! .. كان باب المخدع فى مواجهتها .. ورأته مفتوحا — رغم أنها كانت قد أغلقته — وفى فراغه ، وقف شيللر .. وما كان لها أن تدرى متى فتح الباب ، ولا كم مضى عليه فى وقفته تلك .. واسترعى انتباهها أنه

كان جامدا ، وكأنه تمثال ! .. تمثال من شمع ! .. وكانت عيناه هما مظهر الحياة الوحيد فيه ، اذ راحتا تحدقان فيها بنظرات ثابتة أرسلت تيارا باردا فى كل كيانها .. وودت أن تتكلم ، ولكن لسانها عصاها . وبعد لأى ، استطاعت أن تسأله عما به ، ولكنه لم يجب ، بل خطا الى الامام ، وكأنه آلة تتحرك ، ورفع ذراعه فى حركة آلية ، وأسقط على الفراش ورقة ، وهو لا يزال يحملق فيها . ثم تراجع بنفس الحركات الآلية ، وأغلق الباب ، وانصرف !

ولم تدر كم مضى عليها مبهوتة ، مسمرة فى مكانها ، وقد علقت عيناها بالمكان الذى كان شيللر يقف فيه . ونادته مرتين أو ثلاثا ، فلم تسمع جوابا .. ووقعت عيناها أخيرا على الوريقة التى أسقطها على السرير ، فاذا فيها : « احزمى متاعك ، وتأهبى للرحيل بعد ساعة »! .. وراحت تقرأ الكلمات مرارا ، وهى فى حيرة من أمر تصرفه العجيب ، لا تكاد تجد فى مسلكها ذنبا يبيح له هذا المسلك .. على أنها لم تجد بدا من الطاعة .. وعندما دقت الساعة مؤذنة بالحادية عشرة مساء ، سمعت طرقات على الباب ، وألقى اليها شيللر بقصاصة جاء فيها : « تعالى ! »

وفى اليوم التالى ، كانا فى (باريس) .. ولم يكن قد وجه اليها — طيلة الرحلة — أية كلمة ، ولا تكلم بعدها .. ولقد قضيا العامين التاليين فى الطابق الاعلى لمنزل عتيق فى شارع (بيرويت) . وعبثا ذهبت جهود « ناتالى » — خلال هذه المدة — فى حمل « شيللر » على الكلام ، أو تبرير هذا الصمت البعيد عن كل كرم انسانى .. كان معها أبكم وأصم ، لا يتعامل الا بالعبارات المكتوبة على القصاصات . بل لقد كان يعرض عنها لاسابيع فلا يكاد ينظر اليها .. وكان أقسى ما فى الامر أن يأتيها — فى بعض الاحيان — فيأمرها كتابة بأن تتأهب للنزهة معه ، ويظلان يسيران ويسيران ، حتى تكاد المسكينة تسقط

اعياء ! .. ومن العسير أن يعلل المرء كيف أنها لم تهرب من معاشرته : أفكانت آسيــة من أجله ، أم تراها كانت تأمل أن ينهار جلده على الصمت ، فيتكلم فى النهاية ؟ .. هى نفسها لم تكن تدرى !

* * *

على انه ـ طيلة تلك المدة ـ كان يستقبل عملاءه فى الطابق الاسفل من الدار . وغالبــا ما كانوا يأتونه أزواجا : رجــل وزوجته ، أو عشيق وخليلته ، فيلتقط صورهم فى «ستوديو» فخم أحسن تأثيثــه .. وكثيرا ما كان يدعــوها ـ كتابة ـ لتعزف على « البيانو » قطعا يعينها لها ، لادخال البهجة على العملاء .. ولكنه لم يكن يكلمها قط أو ينظر اليها ، رغم أنه لم يكن يكف عن الحديث الى عملائه ومباسطتهم ، بل وممازحتهم! ..ولم ينقذهامن وطأةهذا كلهسوى أنهاكانت بفطرتهامتزنة، قوية الجلد ، تنشــد العزاء والتسرية فى الروايات والقصص التى لم يقصر فى تزويدها بهــا . على أن طبــاعه لم تلبث أن اتخذت ـ قبيل رأس السنة الثانية لوجودهما فى فرنسا ـ اتجاها عنيفا ، فكان يثور بلا داع ، حتى لقد ضرب الحائط يوما باناء ثمين ، دون سبب .. وفاجأته يوما فى غرفته وقد أنكب على صورتين يفحصهما ، وهو يتحدث الى نفسه بصوت مرتفع . فما أن دخلت ، حتى دس الصورتين فى درج مكتبه ، وغادر البيت مهتاجا ، مغلقا الباب فى عنف ! .. وفى أمسية عيد الميلاد ، بارح الدار فلم يعد الا فى الفجر التالى ، وهو منهوك الاعصاب ، خائر القوى .. ثم تلقت بعد خمسة أيام أمرا مكتوبا بالتأهب للسفر !

وحملهما القطار فى هذه المرة الى برلين .. وكان شيللرينظر الى ساعته ـ فى كل خمس دقائق ـ ويذرع ردهة العربة فى اضطراب وهياج ، ويتشاجر مع من يحتك به من المسافرين .

وعندما آن لهما أن ينتقلا الى قطار آخر فى (انهالتر بانهوف) ، كتب لزوجته على ظهر بطاقة السفر : « انتظرينى هنا ! » . **وغادرها مسرعا الى مكتب البرق فى المحطة .. حتى اذا وصلا أخيرا الى « الفيلا » التى كان قد استأجرها فى (روزنبير جرستراس) ، كان أول ما فعله أن تفقد صندوق البريد ، وكأنه كان فى ارتقاب رسالة ما . ولكنه لم يجد شيئا .** وقد ظل خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة يعيش فى انتظار وتوقع .. وازداد انفعاله يوما بعد يوم ، اذ لم تصل رسالة ما ، ولم يدق جرس البيت طارق . وكانت « ناتالى » تسمعه وهو يذرع حجرته طيلة الليل ، لا يكاد يغفو ..

وفى صبيحة اليوم الثانى والعشرين من يناير ، وصلت برقية الى المصور ، فما أن رآها حتى انقض عليها كأسد جائع عثر على قطعة من اللحم . ووقف طويلا ، ولا حراك به ، ثم التفت الى زوجته .. ولم تستطع أن تتبين ما اذا كان فرحا أو مستاء . **ولكنها أيقنت من أنه كان راغبا فى أن يخلو الى نفسه . وما أن غادرت الحجرة ، حتى أغلق الباب وراءها بالمفتاح .. وكانت هذه آخر مرة رأته فيها !**

وحوالى الغروب ، فى اليوم التالى ، كانت « ناتالى » تجلس الى جوار نافذتها مكتئبة ، تسرح بصرها فى الشارع المقفر ، واذا برجل — فى معطف ثقيل — يقبل على البيت ، ويدق الجرس . وبادر شيللر الى فتح الباب لتوه ، وكأنما كان يرصد الطريق فى انتظاره . وسمعته يقود الزائر الى « الستوديو » ، الذى كان يقع تحت مخدعها مباشرة .. ولاول مرة فى حياتها ، شعرت « فراو شيللر » برغبة فى أن تسترق السمع على شؤون زوجها . **ولم يطل بها الوقت حتى تبينت أن الزائر كان مغنيا فرنسيا يدعى « مسيو جيرار » ، كانا قد تعرفا عليه أثناء مقامهما فى (ميلان)** .. وسار الحديث هادئا بين المصور وزائره لبضع دقيقة ، ثم سأل شيللر المغنى : « هل تعرف

هذه السيدة ؟ .. وهل تعرف اسـ ـ الذى فى مؤخرة الصورة ؟ » . وكان من الواضح أنه عرض عليه صـورة . وأجاب الزائر قائلا : « أجل ، أنها السيدة .. وهذا أنا » . ولم تتبين « ناتالى » بجلاء ما دار بعد ذلك من حديث ، بيد أنها فهمت أن زوجها عرض على الفرنسى صورة أخرى لامرأة كانت له بها علاقة .. وعجبت من أن يتحدث زوجها الى رجل ـ كانت تعرف أنه ذو سمعه سيئة فى ميدان النساء والمغامرات ـ عن سيدة من عميلاته ، وهو الذى اعتاد أن يصون أسرار عملائه ، حتى عنها هى !

* * *

والى هنا كان الكلام قد انهك قوى فراو شيللر ، فاضطرب حديثها ، وتذبذبت روايتها ، حتى اضطر القس موللر الى أن يفكر طويلا ، وهو ينسق سياق القصة ، حين راح يعيدها على سمع الدكتور ويبر :

لقد أدركت فراو شيللر أن زوجها يلعب دورا أنارشكوكها ، فأرهفت سمعها . وما لبثت أن تبينت أن حديث الرجلين أصبح محتدما . ولم يعد زوجها يتكلم بذلك الصوت الناعم المخدر ، بل بدا صوته منذرا بخطر ما .. وقال : « هل يتكرم السيد فيذكر لى من تكون هذه التى فى الصـورة ؟ » . ولم يجب الفرنسى لتوه ، ولكنه ما لبث أن قال : « أليست هذه فراو شيللر ؟ .. ولكننى لا أعرف الشخص الآخر الذى فى الصورة ! » . وصاح شيللر : « عجبا ! .. ان السيد جيرار لا يعرف نفسه ! » . وأطلق ضحكة أقنعت المرأة بأنه فقد عقله .. وفى لمحة خاطفة ، واتتها الفكرة : **لقد عرف زوجها الغيرة .. الغيرة الجامحة المسعورة . لقد اكتشف فى احدى صورها طيف رجل ، فظل خلال العامين الاخيرين يبحث كالمجنون عن ذلك الرجل . وما كان أسخف ظنه ، فهى لا تكاد تعرف رجلا سواه !**

وشعرت بأنه لا بد لها من أن تقوم بعمل يرد الى زوجها صوابه . وأسرعت تدق الباب . وفى تلك اللحظة ، سمعت جلبة صراع ـ فى داخل الغرفة ـ وصوت الفرنسى يحاول أن يقنع شيللر بأنه برىء من كل شكوكه . ولكن ضحكات زوجها الجنونية كانت تتتابع عالية ، والشجار محتدم ، وأصوات المقاعد تهوى على الارض فى جلبة .. وسمعت فرقعات مكتومة ، ثم صوت الفرنسى يصيح فى يأس : « دعنى .. أكاد أختنق .. النار ! » . وراحت تدفع الباب ، ولكنه كان مغلقا من الداخل .. وتسربت اليها رائحة كبريت ، ودخان ، ونار .. **واشتد توهج اللهب ، وسمعت صرخة ثاقبة : « يا الهى .. اننى أموت ! » . واستولى عليها الذعر ، فأسرعت الى الباب الخارجى للدار ، لتطلب النجدة . ولكنها ألفته محكم الرتاج . وأسرعت الى الباب الخلفى ، فوجدته كسابقه .** وتناولت مقعدا حطمت به احدى النوافذ ، وقفزت الى الارض .. وراحت تجرى بدون وعى أو مقصد . حتى ابتعدت عن البيت .

وعند غروب شمس اليوم التالى ، وجدت مذهولة فى احدى الحدائق العامة ، وقد كاد البرد القارس أن يقتلها !

* * *

بقيت حلقة أخيرة فى القصة . فبينما كان القس موللر فى حجرة ناتالى يسمع قصتها ، تلقى الدكتور ويبر مفاجأة جديدة . فقد عثر رجاله فى أطلال البيت على خزانة حديدية فى أحد الجدران ، لم تنفذ النار الى جوفها .. وفى داخلها ، وجدوا أسرار « الاشعة ن » ، والصور التى التقطها شيللر بها . واذ عاد القس وفرغ من رواية ما سمعه من « ناتالى » ، شرع الدكتور ويبر يعرض عليه الصور .. **ولكن القس موللر لم يبد أى انفعال ، وظلت أساريره هادئة ، لا تنم عن شىء سوى .. السذاجة !** . حتى اذا ألح عليه الدكتور ويبر ، قال :

« الحق اننى لا أرى فيها سوى صور عادية .. اننى لعاجز عن أن أستبين شيئا غير عادى فيها ». فصاح ويبر : « أتراك تمزح ؟ .. أم ترى عينيك كليلتين ؟ .. ألا ترى طيف فتاة عارية فى هذه الصورة ؟ » .. فقال القس : **« لا بد أن الامر كما تقول ، ما دمت تجزم به . ولكنى لا أرى شيئا ينم عن أفكار من فى الصورة ! »**

وكان هذا فوق ما يحتمل ويبر ، فهز كتفيه مغضبا ، وجمع الصور ، وقال : « هيا بنا ، فانى جوعان ! » . وبينما كانت السيارة منطلقة بهما ، التفت الى القس ويبر قائلا : **« ما أمرك ؟ .. انك جم السذاجة .. أكثر مما ينبغى ! »** . فقال موللر : « ربما ، ولكنى لست آسفا على ذلك ، فانى قانع بما أرى . واذا كان كشف الستار عن نفوس البشر ، معناه كشف كل هذا القبح ، فلست أحب ذلك . وانى لاتساءل : **ألا يكون ما اتسم به هذا الجيل من شغف بكشف أسرار النفوس ، هو سبب ما يحيق بالعالم من شر ؟ .. كما أتساءل . لماذا تتجلى لنا ـ عندما نخال اننا ننفذ الى أعماق جارنا ـ النواحى القبيحة دون الطيبة ؟ ..** هذا ـ على الاقل ما تبينه صور شيللر ، كما تقول ! »

والى هنا ، انتهت قصة صديقى .. فقلت له : « أتظن أن ناتالى كانت صادقة حين أكدت للقس موللر أنها لم تكن على علاقة بالمغنى الفرنسى ؟ » . فهتف : « كل الذى أستطيع أن أقوله ، هو أن شيللر نفسه اعترف للدكتور ويبر بأن من العسير استقراء ما فى صوره . فمن المحتمل أن يكون قد أخطأ فى تفسير صورة زوجته . **وهذا ما أعتقد أن القس موللر آمن به ، اذ أن ناتالى شيللر ، أصبحت : فراو موللر ! » ..**



صيد الميكروبات

استعراض طريف للجهود التى بذلها الإنسان فى سبيل الكشف عن الميكروبات وتتبع حياتها.

للعالم البحاثة الأشهر:
"بول دى كرويف"

تلخيص : فوزى الشتوى

هذه المخلوقات الدقيقة .. الخطيرة !

◆ « الميكروبات » .. هذه الأحياء الدقيقة التى لا تراها العين ، ولكنها من أنشط الأحياء فى عالمنا .. ومن نشاطها ما يؤذى ، بل ما يقضى على الحياة .. ومنه مايفيد وينفع .. فكيف توصل الانسان الى اكتشاف هذه المخلوقات الدقيقة ، الخطيرة ؟.. هذا هو موضوع الكتاب الذى نقدم لك فيما يلى فصولا منه ، تبين لك الكفاح الدائب الذى بذله الانسان - ولا يزال - فى اصطياد .. « الميكروبات » وقد روعى فى تلخيصها أن تكون مبسطة بحيث يستسيغ القارىء العادى قراءتها ، ليضيف الى ثقافته معلومات جديدة لها أوثق الصلة بحياته .

بائع خردوات يرشد العلم الى الميكروبات !

◆ **لم** يكن أول رجل طرق باب « عالم الميكروب » عالما ، وانما كان بائع خردوات هولنديا ، شغف بالعدسات المكبرة .. ذلك هو « أنتونى ليونهوك » الذى ولد فى (دلفت) - سنة ١٦٣٢ - وهجرالدراسة وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ليعمل أجيرا فى متجر بمدينة (امستردام) . وما لبث ان عاد الى مسقط رأسه بعد ست سنوات ، فأنشأ لنفسه متجرا ، وتزوج !

ولم يكن على قسط يذكر من العلم ، فى عصر كان الجهل فيه نعمة وبركة ، لان التفكير كان يجر على صاحبه نقمة الكنيسة والسلطات ، ولان هذا الجهل جعله لا يؤمن الا بما تراه عيناه ، ولا يركن - فى سبيل هذه الرؤية - الا الى عدسات يصنعها بيديه ! .. **وكشفت هذه العدسات لليونهوك عن عالم جديد لم يره غيره من الناس .. كانت العدسات المكبرة تبين له كائنات دقيقة تسبح فى نقط الماء . وراح يعمل جاهدا**

لانتاج عدسات أقوى تكبيرا ! وكان يلذ له أن ينزع ساق ذبابة أو قملة ، فيضعها على سن ابرته ، ويلصقها بعدسة « ميكروسكوبية » ، ويظل يحدق فيها ساعات ، فيرى من الدقائق مالا يصدقه انسان !

واستطاع بفضل الانكباب على عدساته هذه ، أن يظفر بمعلومات طريفة أذهلت اكبر علماء عصره .. معلومات لم تكن استنتاجية ، وانما كانت واقعية .. وكان يرسم تفصيلات مايرى بدقة ، وان لم يكن يملك أن يتابع بحثه على أسس علمية ، لجهله .

يرفض أن يعير العلماء عدساته !

• وكان شباب أوربا — فى تلك الاثناء — ثائرا على القيود التى فرضتها الكنيسة على العلم ، فتألفت جمعيات سرية لمجرد تحرى مابين العلم والكنيسة من خلاف . ومن هذه الجمعيات : « الجمعية الخفية » التى تألفت من شباب الجامعات الانجليزية . وقد ظلت تعيش فى الخفاء الى أن تولى « تشارلس الثانى » عرش انجلترا ، فأسفرت عن وجودها ، واستطاعت أن تثبت جليل مهمتها ، فأطلق عليها الاسم الذى لاتزال تحتفظ به الى اليوم : **« الجمعية الملكية البريطانية »** . وكان من اهم أعضائها عالم هولندى يدعى « رينير دى جراف » ، زودها بعدة رسائل وتجارب هامة ، وتحدث اليها عن اكتشافات بائع الخردوات « ليونهوك » . **فسرعان ما اتصلت الجمعية بالحانة الجاهل ، وسألته أن يوافيها بملاحظاته . وكان رده رسالة مطولة باللغة الهولندية — بأسلوب ركيك — عن كل مشاهداته فى عالم الحشرات ! .. ووجدت الجمعية فيما كتبه «ليونهوك» مادة تستطيع أن تنشىء على أسسها بحوثا قيمة .**

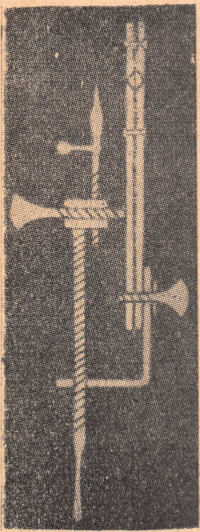
شىء واحد تردد « ليونهوك » فى الافصاح عنه .. ذلك الشىء هو الجسيمات الدقيقة التى كانت عدساته تكشف عنها

سابحة فى الماء . فقد خشى أن لايصدق عقل نبأها .. وخشى كذلك أن تكون مجرد خدعة من المناظير « الميكروسكوبات » التى ابتكرها ، فقرر أن يتثبت من امرها قبل أن يكتب عنهـا حرفا واحدا .. وراح يجمع عينات الماء من شـتى الموارد ، ويضع قطرات من كل منها تحت مناظيره .. **وفى كل مرة ، كان يرى تلك الجسيمات فى الماء .. بعضها ساكن ، وبعضها يتحرك فى تؤدة ، وبعضها يسبح بسرعة خارقة ، وبعضها .. يتلوى ويرقص ! .. وكان أغرب ماملك عليه وعيه أنها كانت تتكاثر بسرعة عجيبة !**

وفى أسلوبه الركيك ، كتب ملحوظاته هـذه الى الجمعيـة البريطانية .. كتبها على سبيل التفكه ، خشـية أن يسفهوا عقله ! .. وصح حدسه ، اذ أن علماء الجمعية لم يصدقوه .. فلما كرر موافاتهم بملحوظاته ، أوفدوا اليه اثنين منهم ، فأطلا على « عالم الميكروب » خـلال ميكروسـكوباته . وحاولا أن يستعيرا منه أحد هذه الميكروسكوبات — على كثرتها — ولكنه أبى رغم كل ما أغروه به .. فقد كانت عزيزة عليه !

« الزميل » .. بائع الخردوات !

• **وصنعت** الجمعية ميكروسكوبا شبيها بميكروسـكوب « ليونهوك » ، فرأى أعضاؤها « عالم الميكروب » الزاخربألوان الحياة التى لا تبدو للعين المجردة . ومن ثم قررت الجمعيـة منح بائع الخردوات الهولندى لقب « زميل » ، وأرسلت له وثيقة بذلك ، فى غلاف من الفضـة ، نقشت عليه شارة الجمعية **.. وازاء هذا التقدير والايمان أقبل « ليونهوك » على مزيد من الدراسات ، فتبين ان تلك الاحياء الدقيقة موجودة فى كل شىء ، ماعدا ماء المطر وحده ، عقب هطوله مباشرة !** وكانت ثمة مفاجأة أخرى .. فبعد أن دلك أسنانه بالملح ذات صـباح ،



أحد الميكروسكوبات والعدسـات التى ابتكرها « ليونهوك » وبها اكتشف الناس « عالم الميكروب »

أضاف المادة البيضاء التى اعتادت أن تعلق بأصبعه من هذه العملية ـ الى قطرات من ماء المطر ، وفحصها تحت الميكروسكوب .. فاذا هى مليئـة بميكروبات بعضها بشكل العصـا ، وتسير فى صفوف منتظمة .. كما كان بعضها حلزونيا ، يندفع فى الماء كأنه « بريمة » تلف فى عنف وسرعة .

وبهت لاكتشافه ، فقد تبين أن فمه حدائق حيوان ، تعيش فيه ملايين الاحياء وهو لا يدرى

ومن تلك اللحظـة لم يقـابل « ليونهوك » انسانا الا وفحص عينات من تلك المادة فى أسنانه ، فدن يجد فى كل العينات تلك الاحياء الغريبة .. وراح يسجل ما كان يكتشفه فى كل حالة من أنواع وتشكيلات ، ويقارن بين الموجود منهـا عند من يعنون بتنظيف أسـنانهم ، والموجـود منهـا عنـد من يهملونهـا . **ولفت هذا الاكتشاف نظره الى بقية فضلات الانسان والحيوان ، ففحص البراز وشتى الفضلات ، ليجـد فيها عين الاحيـاء الدقيقة ، وان تباينت أشكالها !**

وتلقت منه « الجمعية البريطانية » مئات الرسائل ، التى راحت تصف العوالم التى اكتشفها بكل دقة . ولـكنه لم يتعـرض بالحديث لعمل الميكروبات ، سواء كان هـذا العمل نافعا أم ضارا .. كان جاهلا حقا ، ولكنه كان شديد الحذر والحرص

على المنطق السليم ، والحكم المحايد . وكان واثقا ان الانسان شديد التعقيد ، مما جعله يعف عن استخدام خياله فى القفز الى الاسباب والمسببات !

قيصر روسيا وملكة انجترا .. يزورانه !

• **وبمر** السنين ، عرفت كل أوروبا فضل « ليونهوك » ، فتحدث عنه كل انسان ، وان ظل هو قابعا فى متجره ، موزعا وقته بين تجارته وبين ميكروسكوباته .. **وتقديرا لعظمته ونبوغه،زاره بطرس الاكبر — قيصر روسيا — وفيكتوريا ملكة بريطانيا .. وفى معمله الصغير المتواضع ، شاهدا أعجب العوالم والمخلوقات ، وتبينا أغرب الاكتشافات عن الجسم البشرى .** فعرفا — بمعونة ميكروسكوبه — كيف ينتقل الدم من الاوردة الى الشرايين ، وما يحتويه هذا الدم من كريات

وكان بسيطا فى حياته ، لا يؤمن بالاطباء .. فاذا ما أحس بوعكة شرب بضعة اقداح من القهوة الساخنة .. على ان هذه المادة أفزعته فى احدى المرات . فلقد فحص المادة البيضاء المتخلفة بين أسنانه — عقب أن تناول القهوة فى تلك المرة — وشد ما كانت دهشته اذ ألفاها خالية من كل ميكروب . وشك فى حقيقة اكتشافه ، فحصل على عينة أخرى من أسنانه الخلفية ، واذا به يجد فيها ملايين الميكروبات

وشغل ذهنه بالبحث عن سر اختفاء الميكروبات من المادة المستخرجة من الاسنان الامامية ، حتى تذكر انه كان قد استخرجها بعد أن شرب القهوة وهى ساخنة .. فهل من صلة بين الحرارة والميكروب ؟

الحرارة تقتل الميكروبات

• **واقبل** على التجارب ، فعرض ميكروباته للحرارة فى درجات مختلفة . وسرعان ماتبين أنها تموت فى درجات حرارة معينة . واذ ذاك أدرك أن القهوة الساخنة هى التى قتلت

الميكروبات حول أسنانه الامامية ، ولكن حرارتها لم تصل الى الاسنان الخلفية .. **وبهذه الحقيقة كان « ليونهوك » أول من اكتشف أن الميكروبات تموت بفعل الحرارة !**

ومرة ثانية، قادته قوة ملاحظته الى اكتشاف ان الميكروبات الدقيقة تأكل أحياء اكبر منها اذ لاحظ أن أناث السمك تحمل من البويضات مايكفى لسد قنوات هولندا ، فلماذا لا تسد القنوات ؟ .. واين تذهب كل هذه البويضات ؟

وجاء الرد على سؤاله عندما أحضر احدى الاسماك وبها بويضاتها ، فتركها فترة . واذا بالبويضات تتناقص . **وعرضها على ميكروسكوبه ، فرأى ملايين الميكروبات تلتهم الميكروبات .. تأكلها ، وقال أن الحياة تعيش على الحياة !!**

وقد ظل « ليونهوك » أمينا على عهده للجمعية البريطانية الى آخر لحظة من حياته ، فعندما كان على فراش موته — فى عام ١٧٢٣ — وقد أصبح عاجزا عن الحركة ، استدعى أحد اصدقائه ، وطلب اليه أن يرسل خطابين كان قد أعدهما من قبل الى الجمعية ، وسجل فيهما آخر اكتشافاته !

« سبالانزانى » .. وآباء الميكروبات !

• **وكانت** وفاة « ليونهوك » فاجعة جعلت الهيئات العلمية — فى لندن وباريس — تتساءل عمن يخلفه فى دراسة تلك الحيوانات التى لا ترى بالعين المجردة . ولم يطل انتظار البشرية ، فبعد ست سنوات — أى فى عام ١٧٢٩ — ولد خليفته « لازارو سبالانزانى » ، فى بلدة (سكانديانو) بشمال ايطاليا . ومنذ طفولته ، أبدى « لازارو » فضولا يفوق فضول الاطفال ، فلم يكن يقنع باجابات الكبار عن أسئلته ، بل كان يسعى بنفسه للظفر باجابات يستسيغها عقله .. وكم من ذبابة وفراشة وصرصار فقدت أجنحتها أو سيقانها فى محاولاته التعرف على دقائق تركيبها ! .. وكم من مرة اختفى فى

الغابات ليعبث بشجرة أو يحدق فى عين ماء ليعرف كيف نشأت .. حتى اذا عاد الى منزله كان محملا بالآراء والاحلام الغريبة ، التى كان والداه يعجزان عن مجاراته فى التفكير فيها !

وأراده والده على ان يدرس القانون ، فلم يعترض وأقبل على دراسة الوثائق والمنطق والفلسفة . ولما حانت الفرصة اتصل بعالم أسمه « فالنسييرى » ، وأذهله بعلمه ، وحبه للبحث والدراسة ، **فأشفق العالم عليه أن يضيع وقته فى المسائل النظرية ، وأقنع أباه بأن يرسله الى جامعة (ريجيو) ليعد نفسه للبحوث العلمية ، بعد أن تخلص العلماء من القيود والاضطهاد ، وعرفت لهم المجتمعات أقدارهم .. وهكذا اندفع « سبالانزانى » فى دراسته .. ومن العجيب أنه أقبل فى سن الخامسة والعشرين ، على الاشتغال بعدة أعمال أدبية** .. فترجم بعض منظومات بعض الشعراء الاقدمين ، كما انتقد الترجمات المنشورة لاشعار « هوميروس » اليونانى ، فى الوقت الذى كان يدرس فيه العلوم الرياضية مع قريبته « لوراباسى » ، الاستاذة المشهورة فى الجامعة ، فأتم بحثا علميا فى قذف الحجارة على سطوح المياه .

وفى تلك السن ، رسم قسيسا كاثوليكيا لبكتسب قوت يومه من المنصب الدينى . ولكنه رغم مسوح الكهنة ، لم يترك عقيدة حتى ناقشها ، وارتاب فيها ، وان راح يتكتم شكوكه، مما أكسبه تأييد رؤسائه وكبار رجال الدين . فى حين أنه لم يكن ـ فى الواقع ـ يؤمن بشىء سوى « الله » . وفيما عدا ذلك ، كان كل شىء موضع شك الى أن يثبت البحث صحته !

وكانت أكبر مشكلة أرقته ، ماذاع على ألسنة الناس من أمر تلك « الحيوانات » التى لاترى بالعين المجردة . فقدنشب حولها نزاع محتدم . اذ كان البعض يرى انها تنشأ بطريقة شيطانية ـ فى التو واللحظة ـ فى أكوام القاذورات . بينما نادى البعض بأن الذباب والخنافس والحشرات أبناء غيرشرعية

لروث البهائم ، وخالفهم آخرون فقالوا أن هذا مستحيل . وكان ((سبلانزانى)) **من أنصار المذهب الاخير ، اذ كان يؤمن بأن كل شيء يخضع لنظام وقانون يحكم امور التوالد،ويجعلها تنسجم مع النظم الاخرى . وهذا معقول فلسفيا ، ولكن هل من سبيل الى اثباته بلغة العصر ... لغة الدليل الملموس ؟!**

وفى غمرة الحيرة ، ألقت المصادفة فى طريقه بكتاب برىء فى مظهره ، ولكن صاحبه الباحث « ردى » كان يؤمن بالبحوث والتجارب .. وفيه عثر « سيلانزانى » على تجربة أثبت فبها المؤلف ان الذباب لا يمكن أن يولد بغير آباء .. وكانت تجربته بسيطة ، فقد أحضر اناءين ، ووضع قطعا من اللحم فيهما ، ثم غطى أحدهما وترك الآخر عاريا ، ليحط عليه الذباب ، فما لبثت اليرقات أن ظهرت فى هذا الوعاء الاخير وأخذت تنمو ، بينما ظل الاول على حاله ، لان الذباب لم يصل اليه ، ولم يضع بويضاته فيه !

((سبلانزانى)) فى ميدان البحث العلمى

وبدأ « سبلانزانى » يعد نفسه للابحاث العلمية،بدراسة الميكروب .. ولكنه فوجىء بأن قسيسا آخر - اسمه «نيدهام» - قد سبقه فأثبت بالتجربة الملموسة أن الميكروبات تنشأ بغير آباء . وتمثلت تجربة « نيدهام » فى ان وضع قطعة من اللحم فى زجاجة أغلقها بقطعة فلين اغلاقا محكما ، ثم عرضها للنيران التى قتلت كل ما يمكن أن تحويه من ميكروبات أو بويضات .. وبعد أيام ظهرت الميكروبات فى قطعة اللحم من جديد ، مما أثبت له أنها نشأت من لاشيء

وارسلت بيانات التجربة الى الجمعية البريطانية ، فهزت الاوساط العلمية . **ولكن ((سبالانزانى)) لم يتخل عن ايمانه بوجود قانون يحكم التوالد وينظمه . وأحس فى قرارة نفسه بأن ثمة خطأ فى تجربة ((نيدهام)) : مجرد اهمال أدى الى**

تسرب الميكروبات الى اللحم .. أو مجرد تسرع حال دون تعريض قطعة اللحم للنار مدة كافية ! .. وفى سبيل التأكد من ذلك ، وضع قطعا من اللحم فى الزجاجات ، وعرض رقاب الزجاجات للحرارة حتى انصهرت فأغلق بالمادة المنصهرة هذه الزجاجات اغلاقا لا سبيل الى الشك فى احكامه .. ووضع قطعا من اللحم فى زجاجات أخرى ، أحكم اغلاقها بالفلين .. وكان اللحم فى بعض الزجاجات — من النوعين — قد عرض للنار فترات متفاوتة !

وعاد الى زجاجاته بعد أيام ، ففحص الفريق الاول — المغلق بالزجاج المنصهر — وأذهلته النتائج . فان قطع اللحم التى غليت على النار ساعة ، ظلت خالية من الميكروبات .. فى حين أن التى غليت لدقائق ، ظهرت عليها أنواع قليلة من الميكروبات .. أما قطع اللحم التى كانت فى الزجاجات المغلقة بالفلين ، فقد دبت الميكروبات فيها جميعا !

التهريج يطغى على العمل الجدى

• **وكان** من الممكن تعليل وجود الميكروبات فى الزجاجات المغلقة بالفلين ، بأن الفلين لا يمنع تسرب هذه الكائنات الدقيقة تماما . ولكن .. بماذا يفسر وجود بعض أنواع منها فى الزجاجات المغلقة بالزجاج المصهور ؟

وهداه البحث والتفكير الى أن بعض الميكروبات تحتمل الحرارة الخفيفة ، ومن ثم فان اللحم الذى تعرض للحرارة دقائق معدودات دبت فيه الميكروبات ، فى حين أن الذى تعرض للحرارة طويلا ظل خاليا منها .

واستولت نشوة الانتصار على « سبالانزانى » ، فأعلن نبأ تجربته التى اكدت أن الحياة لا يمكن أن تنشأ الا من حياة أخرى ، وان للميكروبات آباء وأجدادا ، وان « نيدهام » وتجربته لون من التهريج العلمى ! وفى أسلوب ساخر ، كتب

تفصيلات تجربته ونتائجها ، وأرسلها الى المجامع العلمية ، فاستقبلت بثورة . وفى لندن وباريس وبرلين وكوبنهاجن حبس العلماء أنفسهم فى غرفهم ليقرأوا التجربتين المتناقضتين ، وليقرروا أيهما أصح !

وثارت المناقشات الحادة بين أساطين العلم ، بل أن المسألة انقلبت الى موضوع عام كان حديث كل مجتمع .. ولسوء حظ « سبالانزانى » ، كان الناس – فى عهده – يميلون أى ألوان المنطق المرحة الطريفة ، ويحبون التهكم على رجال الدين والعقائد الكهنوتية . ومن ثم فقد بهرهم أسلوب « نيدهام » ، ونفرهم من نظرية « سبالانزانى » القس رغم قوتها التى لم تمكن العلماء من أن يجدوا فيها مطعنا .. **كان التيار العام معارضا ساخرا ، فلم يملك العلم الصحيح الا أن ينزوى ، لاسيما أن « نيدهام » عرف كيف يتلمس ما يرضى العامة .** وفى ألفاظ براقة خلب لب الناس . كما تقرب من الكونت « بوفون » ، وكان نبيلا واسع الثراء ، ذا مكانة بين الناس .

وفى غمرة الدعاية والتهريج ، لم تجد الاكاديمية الفرنسية مفرا من انتخاب « نيدهام » زميلا بها ، وأهمل أمر « سبالانزانى » ، الذى راح يتحرق غيظا وهو يرى الهوة التى تردى فيها العلم . ولكنه آثر الصمت فى انتظار الفرصة ! .. وسنحت الفرصة عندما انتقد « نيدهام » احدى تجاربه ، فكتب اليه أن غلى الماء واللحم لمدة ساعة فى زجاجة محكمة أضعف « قوة الانبات » – وهو التعبير الذى أطلقه « نيدهام » على « الخلق من العدم » – فعجزت عن خلق الميكروبات .

ولم يكن من « سبالانزانى » الا أن جمع عشرات الزجاجات ، ووضع فيها بذورا ، ثم أحكم اغلاقها بالفلين ، وغلاها لفترات تفاوتت بين دقائق وساعات ، ليتأكد من مفعول الحرارة فيما سماه غريمه « قوة الانبات » .. **وبعد أيام ، تبين أن القوارير جميعا كانت تحتوى على ميكروبات ، وانه اذا كان ثمة مايسمى**

((قوة انبات)) ، فليس للحرارة على هذه القوة أثر ما !

وبروح الباحث العلمى الامين ، أراد أن يتأكد من نتائجه ، بأن يحاول اثبات خطأ نظريته ذاتها . فأحضر كمية من الحبوب وحمصها على النار حتى صارت سوداء اللون ، مما يجزم باحتراق كل أثر لقوة الانبات ، ثم وضعها فى زجاجات ، وصب عليها ماء مقطرا ، وأحكم اغلاق الزجاجات .. وبعد أيام ، وجد الزجاجات عامرة بملايين الميكروبات ! .. **وهكذا دحض مزاعم ((نيدهام)) و ((بوفون))** . وبدأ العلماء يستمعون اليه ، واقتنع الفيلسوف الساخر ((فولتير)) بأبحاثه ، فسلط نكاته الوخازة اللاذعة على ((قوة الانبات)) ومبتكريها ..

تكاثر الميكروبات وقدرتها على الحياة

• **وسرعان** ما لمع نجم ((سبالانزانى)) ، فكتب اليه فردريك الاكبر — عاهل بروسيا — وعينه عضوا فى ((أكاديمية برلين)) ، وعرضت عليه ((ماريا تريزا)) — أمبراطورة النمسا — منصب أستاذ فى جامعة (بافيا) ، **فاختار أن يكون استاذا للتاريخ الطبيعى وأمينا لمتحفه فى هذه الجامعة ، وفضل هذا المنصب على كل ما انهال عليه من عروض**

وانصرف ((سبالانزانى)) الى التبحر فى دراسة الميكروبات ، فلاحظ تأثير التيار الكهربائى عليها ، وأذهلته مقدرتها على احتمال الحياة والاستغناء عن الهواء الذى لا غنى عنه لبقية أنواع الاحياء ! .. **وتبين كيف يتكاثر الميكروب بالانقسام ، فيتضاعف عدده فى دقائق معدودة ، مما أيد نظرية العالم ((زوسر)) عن توالد الميكروبات**

وفى سنة ١٧٩٩ ، توفى ((سبالانزانى)) فخلدت جامعة (بافيا) ذكره ، وأقامت له فى فنائها تمثالا نصفيا .

((باستور)) ينشىء تعاونا بين العلم والصناعة

• **ومرة** اخرى ، فتر النشاط فى دراسة الميكروبات ، ولكن

هذا الفتور لم يلبث ان انقشع فى سنة ١٨٣٧ ، اذ فطن العلماء الى أن قيمة « الميكروبات » فى الحياة لا تقل عن قيمة الحيوان والنبات .. وأقبل العالم الفرنسى « كانياردى لاتور » على دراسة عمليات التخمير ، فى مصانع الخمور ، فرأى كائنات حية دقيقة ، تنمو وتتكاثر — كأى نوع آخر من الاحياء — فتحيل الشعير الى جعة !

وتوالت أبحاث أخرى لعلماء مغمورين ، لم يجيدوا الدعاية لاكتشافاتهم .. **وفى تلك الاثناء ، كان « لويس باستور » شابا يشق طريقه الى المجد عن طريق دراسة الكيمياء ، فى باريس، ثم فى (ستراسبورج) ، حيث تزوج ابنة عميد الكلية .. وانصرف الى أبحاثه انصرافاً كان ينسيه كل شىء .. حتى زوجته ووجبات الطعام !** ولكن نجاحه كان اقل من اخفاقه . الى أن عين عميدا لكلية العلوم فى (ليل) ، حيث تزدهر صناعة الخمور .. وهناك لمس حاجة (ليل) الى أن يقوم بين العلم والصناعة تعاون يساعد على زيادة الانتاج والدخل .

وكان « باستور » داعية وفنانا كما كان عالما..وأول ماتبادر الى ذهنه ، هو أن يجعل العلم مشاعا شعبيا يتحدث بأمره الجميع ، فلجأ الى المحاضرات ينظمها ليبين للناس كيف يحولون البطاطس الى سكر ، ثم يحولون السكر بدوره الى كحول .. واستطاع أن يجتذب اهتمام الناس . وفى ذات يوم زاره أحد أصحاب مصانع التخمير ، وشكا اليه ما كان يعانيه من خسائر ، من جراء ما كان يصيب بعض اوعية التخمير من تغير غامض يحيل المادة الى لبن حامض !

على أبواب كشف خطير ..

• **وأدرك** باستور أن ساعة الامتحان قد حانت . وكانت معلوماته عن التخمر بسيطة ، ولكنه زار المصنع ، وطاف بشتى الاوعية المليئة بالمادة المتخمرة ، وأخذ عينات من السائل

المتخمر السليم ، وأخرى من اللبن الحامض ، ثم عاد الى معمله وفحص العينات السليمة تحت الميكروسكوب ، فأذهلته كثرة الجسيمات الكروية فيها .. وما لبث أن تذكر رسالة «كانيار» عن الخمائر ،وعن أنها كائنات حية دقيقة ،تصنع الكحول من سكر البنجر . ودرس هذه الكرويات بدقة فى شتى مراحل نموها وانقسامها. ثم أحضر عينة من اللبن الحامض،فحصها تحت ميكروسكوبه ، فبهت اذ وجدها خالية من تلك الكرويات، وساءل نفسه : اين ذهبت ؟ .. **وواصل تأمل العينة ،فشاهد أجساما أخرى تشبه القضبان ، وكانت دقيقة الغاية اذا قورنت بجسيمات الخمائر ، اذ لم يكن طولها يتجاوز واحدا الى ٢٥ ألف من البوصة !**

وفى شتى العينات التى جلبها من المصنع، وجد « باستور » الجسيمات الكروية فى المواد السليمة ، والقضبان الصغيرة فى المواد التالفة ، وخطرت بذهنه فكرة ، لم يستطع أن يصارح بها أحدا .. ولا نفسه . فلم يكن هناك من يصدق — فى ذلك العهد — أن الميكروبات الصغيرة تفتك بأجسام أكبر منها حجما. وظل يرقب العينات حتى كلت عيناه ، فلجأ الى فراشه يتقلب فى قلق ، والفكرة تؤرقه وتنذر باكتشاف باهر !

خمائر اللبن الحامض

• **وفى** الصباح الباكر ، هرع الى المصنع فطاف بكل اوعية التخمير ، وراح يشم ما بها ويتذوقه .. وكرر فحص عينات جديدة ، فوجد نفس الظاهرة السابقة . ومرة ثانية ، عاد الى ميكروسكوبه فاذا به يخرج بعين النتائج السالفة . **ولم يجد مفرا من الايمان بأن الخمائر تصنع الكحول ، وان القضبان تصنع ذلك اللبن الحامض الذى عرف مذاقه .. ومن الجائز ان الكائنات التى على شكل قضبان تفتك بتلك الكائنات الكروية بطريقة ما !**

وكان عليه أن يثبت نظريته بالتجارب ، فان الاستنتاج والالهام لا يفيدان فى مثل هذه المسائل العلمية . وبعدعشرات من التجارب ، تمكن من الحصول على الجسيمات القضبانية وحدها ، وأضاف نقطة منها الى قدح مملوء بالخمائر ، فان هى الا لحظات حتى زالت الخمائر ، وتكاثرت القضبان بالملايين . فتكت بالخمائر الكروية ، وانطلقت تتكاثر وتحول السكر الى حامض اللبن .

وكرر التجربة مرارا ، حتى تأكد تماما من أن ثمة خمائر تصنع الكحول ، وأخرى تصنع جامض اللبن ، وأن أحدالنوعين يفتك بالآخر .. وكان هذا الاكتشاف فتحا جديدا فى عالم الميكروب ، فمنه عرف العالم أن الميكروبات تنفع وتضر ، وانها على صغر حجمها قادرة على الفتك بأحياء اكبر منها

حلم يتحقق .. فى جحر متواضع !

• **ونقل** باستور الى منصب مدير البحوث فى مدرسة النورمال بباريس . وكانت هذه هى الفرصة التى انتظرها طويلا .. ولم تكن بالمدرسة معامل تصلح كى يقوم فيها الاساتذة ببحوث وتجارب ، ولكنه مالبث أن عثر على غرفة على السطح تسكنها الفيران والعناكب ، فجعل منها معملا له ، ودبر مالا لشراء ميكروسكوب وأدوات للتجارب .

وفى هذا الجحر المتواضع ، أجريت عدة تجارب هامة ، كشفت عن نوع ثالث من الخمائر التى تنتج الزبد « الزنخ » من السكر ، كما أكدت وجود ميكروبات تعيش بغير هواء ، بل ان بعضها يقتله الهواء . ومنه أيضا صدرت عدة بحوث جعلت الميكروبات على كل لسان . **فقد تنبأ « باستور » بأنها سبب الاصابة بحمى التيفوس والتيفود والكوليرا وغيرها !** .. وأثارت بحوثه ونبوءاته اهتمام الامبراطور نابليون الثالث ،

فدعاه الى حفلاته ، كما أمر بأن يزود بالمعامل اللائقة ببحوثه الهامة .

وبفضل براعة « باستور » فى الدعاية لمكتشفانه فى عالم الميكروب الغريب ، اتجهت اليه كل الانظار .. ولكى يبين مدى امكانيات العلم فى زيادة الانتاج الصناعى ، اتجه تفكيره الى اهم الصناعات الفرنسية ــ وهى صناعة الخمور ــ فدرسها صنفا بعد آخر ، ووضع العوامل الكيمياوية ونوع الخمائر الذى ينتج كلا منها .. وفى مجتمعات وحلقات عامة ــ فى القرى والمدن ــ عرض باستور براعته وعلمه بطريقة عملية ، فعرف الناس أن الخمائر تنتج من الخمور قدر وزنها عشرة الاف مرة ، فى أيام قلائل ، اذا توفر لها السكر والجو الملائم .. وأحس الناس فى كل بقعة من فرنسا بأن تلك الاحياء الدقيقة شىء هام فى حياتهم ، فهى مصدر ثروتهم ، وهى سبب مايحل بهم من كوارث .. كذلك !

« باستور » يقضى على آفة دودة القز

وعمد « باستور » فترة الى العمل فى هدوء فى معمله . ولكن الحظ طرق بابه فى عام ١٨٦٥ ، اذ جاءه أستاذه ــ الكيمياوى الشهير « دوماس » ــ يرجوه أن ينقذ دودة الحرير من الآفة التى كانت تفتك بها فى جنوب فرنسا ، وتترك اهلها مجردين من كل ثروة وعمل . وكان الطلب غريبا على باستور ، فهو لم يكن يعرف شيئا عن دودة القز ، وكيف تنمو ، وكيف تعيش .. ولكنه لم يستطع أن يخيب رجاء استاذه ، فقبل المهمة مكرها ، وسافر الى الجنوب ليدرس حياة دودة القز ، وسر ذلك الوباء الذى يظهر على جلدها كحبات الفلفل .

وبعد دراسات طويلة ، وتجارب عديدة ، ذاق فيها مرارة الفشل مرارا ، استطاع أن ينقذ هذا المورد من موارد الثروة ، وأن يعلم الفلاحين كيف يعزلون الديدان المريضة ويعدمون كل

آثارها حتى لا تنتقل عدوى الوباء الى سواها .. **وذهب الى ابعد من هذا ، فعلمهم أن يقتنوا الميكروسكوبات ويستخدموها لمعرفة الميكروبات الكروية الشكل ، التى تفتك بدودتهم الثمينة** .. ومرة ثانية ، أثبت باستور أن العلم خير عون للصناعة والانتاج ، وأن الميكروب ــ الذى لاتراه العين ــ قوة كبيرة لها فائدتها الجليلة اذا عرفنا كيف نستغلها لخدمة البشرية ، ولها خطرها المدمر اذا ما أهمل شأنها !

على أن الحلم الاكبر لباستور كان يتمثل فى القضاء على الامراض البشرية ، التى كان يؤمن بأنها تنشأ عن ميكروبات فتاكة . وكان يسعى الى العثور على وسيلة تبيد هذا النوع الضارى من الميكروبات . وكان عنيفا فى ايمانه . وقد حدث أن حضر مرة اجتماعا بأكاديمية الطب بباريس ، حيث كان احد كبار الاطباء يلقى محاضرة عن حمى النفاس ، التى تصيب السيدات عقب الولادة .. وفجأة ، وجد « باستور » نفسه يقطع على المحاضر حديثه ، ثم اندفع الى المنصة ــ وهو يجر ساقه المشلولة ــ صارخا : « ان كل ماتقوله هراء ، وأنتم معشر الاطباء تحملون الميكروبات المميتة من المريضات الى السليمات من السيدات ، وتنشرون الموت بسبب اهمالكم ! » . وبهت الجميع .. وتمالك المحاضر نفسه ، وقال متحديا باستور : « قد يكون هذا حقا ، ولكنك لن تعثر على تلك الميكروبات المزعومة ! »

وكان باستور مستعدا لقبول التحدى ، فتناول قطعة من الطباشير وهو يهتف : « بل اننى وجدتها فعلا ، وهذا هو شكلها ! » . ثم رسم على السبورة دائرة صغيرة ، تمثل ذلك المخلوق الذى وجده فى جثث كل ضحايا حمى النفاس ! .. وهكذا كانت طبيعته تدفعه الى أن يقفز الى النتائج قبل أن يحققها ، ولكنه كان على جانب كبير من حدة الذهن ، والقدرة على استقراء النتائج مقدما ، فلا تمضى شهور حتى يحقق

نبوءته ، ويثبتها بالاساليب العلمية الحاسمة . ولهذا كثر تلقيه الطعنات التى كانت تبدو فى أول أمرها قاتلة لسمعته العلمية ، ولكنها لا تلبث أن ترتد الى أصحابها ، شاهدة بانتصاره !

مغامرات فى ميدان الطب

ولم يكن المجال ممهدا أمام باستور فى ميدان الطب ، اذ انه — ككيمياوى — لم يكن على المام بشىء من علم التشريح. وقد حاول التغلب على هذه العقبة بالاستعانة بمساعديه « جوبير » و « رو » و « شامبرلان » ، الذين كانوا من الاطباء. وبمشورتهم ومعونتهم استطاع تحقيق انتصاراته فى المجالات الطبية . على ان الحظ والمصادفة قدما له أجل الخدمات .. ففى أحد الايام أعد ميكروب « الجمرة » وزرعه كالعادة فى البول المغلى ، ولاحظه وهو ينمو ويتكاثر .. وتصادف أن أهمل القنينة فتركها مفتوحة . وكم ساءه أن يعود اليها فى اليوم التالى ، فاذا بها تضم دخلاء ! .. ميكروبات أخرى تسربت من الجو !

على أن دقة ملاحظته جعلته يفطن الى ظاهرة غريبة . تلك هى أن ميكروبات « الجمرة » كانت تتناقص . وترك الزجاجة كما هى ، فاذا به يكتشف — فى اليوم التالى — أن ميكروبات الجمرة — قد تلاشت تماما ، ولم تبق سوى الميكروبات الدقيقة .. **وقفزت الى ذهنه الفكرة التى كانت تراوده دائما : « لقد التهمت الميكروبات الزائرة ميكروبات الجمرة » .. أى أن ميكروبات غير ضارة فتكت بأخرى ضارة ، فلماذا لا تستغل مثل هذه الطبيعة فى محاربة الامراض البشرية ؟**

وكالعادة ، سارع باستور الى اعلان الاكتشاف وما يتعلق به من آمال .. ولكن ظروفه لم تتح له مزيدا من البحث فى هذا المجال ، وان استغلت الفكرة بعد ذلك فى مقاومة بعض

الامراض ، فقادت الى اكتشاف الامصال الواقية من الامراض. فلقد حدث أن تفشى وباء « الجمرة » بين الماشية والاغنام والانسان . وزعم أحد البيطريين أنه وجد علاجا ، فسعى باستور الى تحرى صحة ذلك .. وأحضر البيطرى أربع بقرات سليمة ، وحقنها جميعا بميكروبات الداء ، فظهرت عليها أعراض المرض. ثم عالج بطريقته اثنتين منها ، وترك



ميكروب مرض « الجمرة »
فى مرحلتى تطوره : ١ و ٢

الاخريين بدون أى علاج . ومضت أيام فشفيت بقرة من كل من الفريقين ، مما أثبت أن علاج البيطرى كان مجرد وهم ، لان المرض لم يتأثر بعلاجه .

غير أن ظاهرة الشفاء لفتت نظر باستور .. فلماذا شفيت البقرتان ؟ وماذا يحدث اذا أعيد حقنهما بأشد الميكروبات ضراوة ؟ .. وأرسل فاستحضر من معمله اقوى ميكروبات مرض « الجمرة » ضراوة ، حتى لقد كانت القطرة الواحدة من المستحضر تكفى لقتل أضخم فيل فى العالم . وحقن القطرات القاتلة فى البقرتين ، وراح يراقبهما عدة أيام ، فلم تظهر على أى منهما أعراض المرض ، فاستنتج ، أن الابقار اذا أصيبت بمرض « الجمرة » ثم شفيت منه ، فانها تكتسب مناعة تقيها الاصابة مرة ثانية

أول مصل واق من المرض

• **وافقت** المصادفة السعيدة حين تعرض باستور لدراسة مرض « كوليرا الطيور » ، فزرع من ميكروبه عشرات من العينات ، حتى لقد بلغ من كثرتها أن تعذر نقلها وتجديدها ، فتركت فى قواريرها أسابيع حتى هرمت ، وهم باستور بأن يتخلص منها ، لانها فقدت ضراوتها .. **ولكن الحظ ألهمه أن يجرب بعضها ، فاذا الدجاجات التى حقنها تصاب بأعراض خفيفة لم تقتلها .. وما لبثت أن استعادت نشاطها بعد ساعات !**

ونسى باستور كل شىء . ثم طلب يوما بعض دواجن لتجاربه ، فلم يجد سوى دجاجتين جديدتين الى جوار الدجاج الذى سبق استخدامه فى تجارب الكوليرا ونجا منها .. ولم يجد مفرا من استخدامها ، فحقن الدجاجتين الجديدتين ، واثنتين من الدجاجات التى سبق حقنها .. وفى الصباح الباكر من اليوم التالى أقبل تابعاه « رو » و « شامبلان » الى المعمل ، فاذا الاستاذ يصرخ من حظيرة الدجاج : « احضرا على الفور ! »

وأمام أقفاص الدجاج الملقح بالميكروب المميت ، وجده المساعدان يحدق فى منظر ملك عليه اهتمامه . وقد ماتت الدجاجتان الجديدتان ورقدتا بغير حراك ، بينما وقفت الاخريان سليمتان ، تلتقطان الحب ، وترقبان السيد وتابعيه فى حذر وتوجس ! .. وهتف باستور : « وجدنا الطريق ! .. أنه فى ترك الميكروبات فترة من الزمن حتى تهرم وتهن ضراوتها ، فاذ ذاك تتحول الى درع يقى الاحياء شر الميكروبات القاتلة ، وسنجرب الفكرة نفسها على ميكروب الجمرة ، وكل ميكروب قاتل فى الوجود . سنعرف كيف ننقذ الحياة فان الميكروب القاتل هو نفسه الذى يقى من القتل اذا قلمنا أظافره ! »

وفى أول الامر خيل لباستور أن مصلا أو لقاحا معدا من

احد أنواع الميكروبات يقى من كل الامراض . ولكن التجارب أقنعته بان الوقاية من كل مرض ميكروبى لا تتوفر الا من ميكروبه وحده .

مبارزة علمية غريبة

• **واستغل** اعداء باستور الفرصة ، ودبروا مؤامرة ليذيقوه بعض ماأذاقهم ، فقد كان قاسيا شديد الوطأة لايرحم من يخالفونه الرأى . وتزعم المتآمرين بيطرى اسمه الدكتور « رو سينيول » ، وتحدى باستور أن يجرى تجربة عملية علنية تنظمها وتشرف عليها الجمعية الزراعية فى (ميلون) ، فتعد له الماشية ليقيها من مرض « الجمرة » الذى كان يفتك سنويا بما قيمته عشرون مليون فرنك منها . **وقبل باستور التحدى .. واعدت الجمعية ٤٨ عنزة وخروفين ، وأقبل باستور ومساعداه يحملون مواد اللقاح الواقية من مرض « الجمرة » . وفى أحد ميادين مدينة (ميلون) اجتمعت الجماهير لتشهد مع العلماء أغرب مبارزة علمية ! ..** وقسمت الحيوانات الى فريقين متساويين ، تلقى أحدهما أول جرعة من اللقاح الواقى . وبعد أيام تكرر المنظر نفسه ، وحقن الفريق ذاته بالجرعة الثانية

وفى اليوم الاخير من شهر مايو ١٨٨١ ، حقنت أغنام الفريقين بجرعات قاتلة من ميكروب « الجمرة » . وانصرف الحشد يترقب حلول اليوم التالى ففيه الحكم الدامغ : اما برفع علم باستور الى الذروة ، واما بخفضه الى الحضيض . وتقلب باستور فى فراشه قلقا يفكر : **كيف سمح لنفسه بأن يعرض العلم فى مهرجان شعبى ؟ .. وماذا يحدث اذا ظهرت احدى تلك الفلتات الغريبة التى تقلب كل شىء رأسا على عقب ؟**

وفى اليوم الثانى احتشدت الجموع مرة ثانية من كل حدب وصوب ، ومن شتى الطبقات لترى نتيجة المبارزة العلمية ..

وما كاد باستور ومساعداه يغادرون مقرهم ، حتى عرفوا النتيجة . فقد كان لقاء الشعب ترحيبا حارا .. وهناك فى الساحة الفسيحة لم يكن الامر فى حاجة الى حكام . **فقد كان معظم الاغنام – التى لم تناق المصل الواقى – ترقد بغير حراك ، بينما كان يتحرك ما بقى منها فى ضعف ، وهو ينزف الدم الاسود من فمه وأنفه ويعانى سكرات الموت .. وفى الوقت ذاته ، كانت أغنام الفريق الذى حقن بالمصل تقف كلها فى صحة وسلامة !** .. وكان نصرا ساحقا لباستور وعلمه ، على مرأى ومسمع من الرأى العام !

وانهالت البرقيات والخطابات من شتى أنحاء العالم لتشيد بما سجله من نصر وتطالبه بأكسير الحياة للحيوانات . رحول باستور معمله الى مصنع لانتاج اللقاح الواقى من مرض « الجمرة » ، الذى شاع استعماله فى فرنسا وفى خارجها . وترددت فى العالم أصداء تمجيد باستور .. **وكان أعظم تكريم ناله ، أن عين عضوا فى الاكاديمية الفرنسية ، فان هذا أسمى شرف تضفيه فرنسا على أحد أبنائها ليصير فى عداد الخالدين .** وقد ألقى خطاب الترحيب به ، الفيلسوف « أرنست رينان » ، الذى قرر أن « باستور » شخص رائع رغم نقائصه !

المرض الرهيب الذى أزعجه منذ طفولته

• **وكان** المجال التالى لباستور ، هو تحضير اللقاح الواقى من الاصابة بمرض الكلب .. ذلك المرض الذى كان يؤرقه فى طفولته ، عندما كان يعيش فى مسقط رأسه (أربوا) ، حيث كان يسمع عواء الذئاب والكلاب المسعورة ، ويلمس ذلك الداء الفتاك الذى يصيب من يعضه كلب أو ذئب منها .. **داء « الكلب »** .

كان هذا المرض لغزا على باستور أن يحل كل طلاسمه . وكانت أولى مشكلاته رؤية الميكروب الذى كان يستعصى على

أقوى العدسات . وبالتجربة والدراسة الطويلة ، عرف أن للمرض فترة حضانة تمتد من أسبوعين الى ستة أسابيع ، وان عملية العض وحدها لا تنقل المرض بصفة قاطعة ، وانما بنسبة خمسين فى المائة .. ومن أعراض المرض كتقلص العضلات والشلل ، أدرك أن الميكروب يجب أن يصل الى المخ والجهاز العصبى . ومن ثم ابتكر له مساعده « رو » عملية احداث ثقب فى جماجم الكلاب والارانب الهندية . ومن هذه الثقوب تحقن المادة المحتوية على « فيروس الكلب » فى المخ نفسه .. وكانت عملية دقيقة ولكنها مضمونة النتائج ، فلم تخفق مع حيوان واحد !

وحاول باستور أن ينمى فيروس المرض فى شتى المحاليل والمواد ، ولكنه أصر على أن ينمو فى النخاع الشوكى وحده ، مما أكره باستور على أن ينقله من حيوان الى آخر ، ليحتفظ بعيناته التى كان تقليم أظفارها واضعافها هو السبيل الوحيد لانتاج مصل الوقاية من مرض الكلب . على أن هذه العملية كانت شديدة الغموض، وفيها بذلت مئات المحاولات الفاشلة . ولكن باستور كان مؤمنا بأنه سيوفق فى النهاية .. وفعلا ، لم يلبث مساعداه « رو » و « شامبلان » أن اهتديا — فى النهاية — الى طريقة لتقليم أظفار الفيروس القتال بتجفيف شريحة من النخاع الشوكى لحيوان قتله المرض . فقد جففاها لمدة ١٤ يوما فى زجاجة معقمة محصنة ضد غزو أية ميكروبات أخرى . ثم حقناها فى كلب ، ظهرت عليه أعراض خفيفة للمرض ، فزالت الاعراض ، واستعاد الكلب صحته . وعلى هدى هذه التجربة رأى باستور أن يكون لقاح الوقى من ١٤ حقنة ، تتدرج فيها ضراوة الفيروس .

وجربت المادة على الحيوانات فأثبتت نجاحا .. وكان من الضرورى أن تجرب على الانسان . ولكن خطأ معناه الموت المحقق . ومن ثم فقد طلب باستور أن تتولى تحقيق بحوثه

لجنة من كبار الاطباء . فتألفت اللجنة ودرست تجاربه ، وقالت أن اللقاح الواقى المتدرج القوة ، يعطى الكلاب مناعة فلا تصاب بداء الكلب

يقرر اجراء التجربة على نفسه !

• **وأيقن** باســـتور من نجاح مادته ، ولكنه ظل يخشى تجربتها على أحد . وقرر ــ أخيرا ــ أن يجربها على نفسه . واستعد لاجراء التجربة . وتدخل القدر فى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٨٥ ، اذ أقبلت من (الالزاس) سيدة تحمل طفلا نهشه كلب مسعور فى ١٤ موضعا من جسمه ، فأصابه بجراح بالغة الخطورة حتى شلت حركته . وتوسلت الســيدة الى باستور أن ينقذ ابنها ، فتردد ، ثم لجأ الى صديقيه الطبيبين « فولبيان » و « جرانشيه » يسألهما النصيحة الطبية . **فما كادا يريان الغلام حتى قررا أنه سيموت ، وتوسلا الى باستور أن يجرب مادته ، فهى الامل الوحيد لانقاذ حياته !**

وفى مساء السادس من شهر يوليه ، بدأ باستور فى حقن الغلام بالمادة الواقية فى الجلد . ومضت الايام وجراح الغلام تلتئم ، وحالته تتحسن ، حتى تلقى كل الجرعات . وعاد الى بلده سليما معافى !

وانتشر النبأ فى شتى أنحاء العالم ، فأقبل الناس من كل حدب وصوب على معمل باســـتور ، وهم يهتفون « انقذنا يا باستور ! » . ومرة أخرى تحول المعمل الى مصنع للقاح الكلب ، واندفع باستور ومساعدوه ينقذون الناس . ومن مدينة (سمولنسك) بروسيا هرع ١٩ راعيــا هاجمهم ذئب مسعور ، وأحدث بأجسامهم عشرات الجروح الخبيثة الكريهة المنظر ، التى شلت حراكهم ، لا سيما وأن السـفر كان قد أنهك ما تبقى من قواهم .. وتناثرت أنباؤهم فى كل مكان ،



أمام معهد باستور أقيم هذا التمثال يبين غلاما يصارع ذئبا تخليدا لجهود باستور فى مكافحة مرض الكلب

والناس فى ريب من أمر شفائهم ، اذ مضى على نهش الذئب لهم أكثر من أسبوعين . وواجه باستور الحالة بروح انسانية فريدة . فعجل فى حقنهم بالمادة الواقية ، وقرب الفترات بين الحقن ، فكان يحقنهم فى الصباح وفى المساء ، ليعوض بعض

الوقت الضائع ، وليسبق المرض .. اذ أن مجرد ظهور أعراضه كان كفيلا بأن يجعل انقاذهم مستحيلا . وانتهى من مهمته فى أسبوع ، فكانت النتيجة ساحرة .. نجاة ١٦ راعيا ، ووفاة ثلاثة فقط !

وتلقف العالم النبأ فى ذهول ، أفاق منه على رسالة تلقاها « باستور » من قيصر روسيا ، مصحوبة بوسام القديسة « آن » الماسى ، وبمبلغ مئة ألف فرنك ذهبى ليشيد بها معملا لصيادى الميكروب واشتدت الحماسة بالعالم فانهالت الاموال من كل الدول والشعوب .. وبملايين الفرنكات التي تجمعت ، أنشىء معهد باستور لصيد الميكروبات واكتشاف وسائل القضاء عليها !



عند الباب!

مسرحية طريفة للكاتب الإيطالى المبدع
لويجى بيرانديللو

تلخيص : الدكتور نظمى لوقا

قصة فى عالم الاشباح ..

◆ ان ما تحسه للحياة من طعم ، انما هو باطل تلبسه الأفكار التى من خلقك ثوب « الواقع » .. ومن مصيبة الانسان ان الحياة غير ممكنة ما لم يعتبر هذه الأفكار ـ التى من خلقه ـ وقائع وحقائق ؟

هذه هى الفكرة التى نسج الكاتب المسرحى الايطالى الخالد « لويجى بيرانديللو » مسرحيته هذه .. مسرحية أبطالها الرئيسيون أربعة أشباح : شبح رجل بدين كانت زوجته تخونه ، وشبح فيلسوف يرمز الى أن الفكر والفلسفة هما الباقيان فى الحياة ـ وشبح الزوجة وقد قتلها عشيقها بعد موت زوجها ، وشبح طفل بيديه رمانة .. كانت هى مشتهاه الأخير ، فظل متشبثا بها بعد موته ، حتى اذا أكلها تلاشى شبحه . وهكذا مصير كل حى ، يتلاشى اذا ما نال مشتهاه !.. والى جانب هؤلاء ، أبطال ثانويون من الأحياء ، هم : فلاح ، وفلاحة ، وحمار ، وطفلة .. خليط غريب من الشخصيات ، ومن الأفكار .. فتعال نر كيف جمعها المؤلف فى نسيج واحد !

◆ **يرفع** الستار عن حائط به باب .. من هنا الريف الممتد أمام الباب الخلفى لاحدى المقابر .. ومن هناك ـ عبر الحائط الابيض الخشن ـ تتراءى أشجار السرو العالية فى أشعة الغسق الندية الباهتة .. **والموتى قد نضوا عنهم أجسادهم التى لم يعد فيها غنى ، وتركوها فى لحودهم ، وخرجوا خفافا فى أشكالهم الباطلة التى كانوا عليها فى الدنيا** .. وشبح الرجل البدين جالس فوق أريكة رثة ، تحت شجرة ضخمة ، ويداه قابضتان على رأس عصاه ، وقد أسند ذقنه الى يديه .. انه لم يغادر الدنيا الا منذ بضعة أيام ، فلم يرض نفسه بعد على فراقها . وجعل يشهد ـ من غير ان يسفر عن انفعالاته ـ تلك الدهشة البالغة ، والفزع ، وخيبة الآمال ، والغثيان التى تبديها الاشباح الاخرى ، وهى تخرج بين الحين والحين من باب المقبرة .. ويشهد أيضا ماتفعله بعدئذ وهى حائرة ، مفجوعة ، متقززة ، مرتاعة !

ولا يلبث أن يخرج شبح نحيل ، غزير الشعر وان يكن أصلع اليافوخ ، هو شبح الفيلسوف ، الذى بدا عليه الذهول العظيم كذلك ، وجعل ينظر حوله شاردا . واذ يلمح — عن بعد — الرجل البدين جالسا تحت الشجرة ، يتمالك نفسه ويقترب منه

الفيلسوف : ماوجه العجب ياصاح ؟ هكذا الحال .. مسألة طبيعية جدا !

البدين : ألى أنا تقول هذا ؟ .. شىء لطيف ! لك أنت أن تعجب، أما أنا فقد مررت بهذا الدور من قبل، وانقضى العجب !

الفيلسوف : كلا .. أأنا أعجب ؟ ومم ؟ .. ألم أقل لك انه أمر طبيعى ؟

البدين : فهمتك ! .. تريد أن تدخل فى روعى انك كنت تتوقع هذه الحال .. ان تجد نفسك لم تزل هنا !

الفيلسوف : كلا ! ليس هـذا ما اردت أن أقول ، وانمـا العكس ! .. ان عجبى ، الذى قد أكون أبديته بعض الشىء فى البداية ، كان راجعا فى الواقع الى أننى لم أتوقع هذا من قبل!

البدين: حسبك أن الموقف يبدو لك طبيعيا على هذا النحو ..

الفيلسوف : وبوسعى أن أثبت لك ذلك — ان شئت — فى كلمتين !

البدين : كلا بربك ! أعفنى ... فأى سلوان عسى أن يمنحنى هذا النشاط الفكرى الذى تهم به بعد أن مت ؟

الفيلسوف : بعد أن مت ؟ ماذا تعنى بهذا ؟ .. انى لا أنفك أفكر يا صاحبى ، كما أنك لا تزال بدينا ! .. ومن حيث أننا ثم نزل هاهنـا ، فأنا لا أنفـك أرى فيك وفى نفسى صورتين باطلتين للفكر ! .. أما تجد فى هذا شيئا من السلوان ؟

البدين : بل أجد فيه مدعاة للأسى !

الفيلسوف : ولم ؟ .. ربما كان ذلك راجعا — أيها المسكين — الى أنك كنت تتصور هذه الاشكال الباطلة أشياء حقيقية

لمجرد انك كنت تراها وتلمسها ، فى حين أنها كانت على الدوام أوهاما .. **مجرد أوهام ، صادرة بالضرورة عن وجودك ، كما تصدر مثلها عن وجودى .. فلا غنى لنا ـ لكى نستمر فى الوجود على الدوام ـ عن أن نخلق تلك الاوهام والاشكال والرؤى ! .. أفهمت عنى تمام الفهم ؟**

البدين : وكيف تريدنى أن أفهم ، وأنت تنطق بكلام يدق على بدين مثلى ؟

الفيلسوف : أعرنى سمعك ، فسوف أوضح لك الامر بمثل أضربه لك ، وليكن هذه المقبرة الماثلة هناك .. انك ولا بد قد رأيتها ـ وأنت على قيد الحياة ـ عدة مرات ..

البدين : بضع مرات فقط .. وقد مررت بها مكتئبا !

الفيلسوف : ألم يخطر ببالك اطلاقا أن القبور لاتقام للموتى ، وانما هى تقام للأحياء ؟ !

البدين : أتعنى بهذا الكلام ابراز بطلان ما يسطرونه على لوحات القبور ؟

الفيلسوف : كلا ، فهذه قصة قديمة ! .. انما أكلمك عن حاجة الحياة الى تشييد مسكن لعواطفها . **فليس يكفى الاحياء أن يحتفظوا بالعواطف فى دخيلتهم ، فى قلوبهم ، بل انهم يريدون أن يروها خارج نفوسهم كذلك ، وأن يلمسوها ، فشادوا لها منزلا .. ومن الذى يقيم فيه ؟ .. لا أحد .. طبعا !**

البدين : لا أحد .. كيف ؟ .. هناك الموتى .. !

الفيلسوف : لا يا صاح ! .. ماذا تريد أن يبقى فى هذه اللحود منا نحن الموتى المساكين ، بعد أمد قليل ؟ .. ان بقى منا شىء على الاطلاق ، فقبضة من تراب ! .. يعنى لا شىء ! .. فما هى القبور اذن ؟ .. انها التذكار ، والود ، والتوقير والاجلال ، وكلها عواطف كما ترى .. عواطف الاحياء الذين لم يكفهم أن يستكنوها وينموها فى دخائلهم ، أو لعلهم توجسوا ألا يطول بها البقاء فى تلك الدخائل ، فجشموا أنفسهم ترف

اقامة المساكن الصغيرة لعواطفهم فى الخارج ، وهى تلك القبور التى تراها هناك ! .. ومن ذا الذى يسكنها ؟ **ان كانت هذه العواطف لم تزل فى أفئدة الاحياء باقية ، فالتى تسكن هذه القبور اذن ، هى عواطفهم من ذكرى ، وود ، وتوقير ، واجلال .. وان لم تكن هذه العواطف باقية فى أفئدة الاحياء ، فلا شىء اذن يسكن ماشادوه من قبور !** .. ان الغرور يا صاحبى ــ كما قلت أنت ــ عاطفة بشرية أيضا ! .. فلنمض خطوة أخرى اذن ، وأعرنى سمعك .. لقد كان لى ــ وأنا على قيد الحياة ــ جرو عزيز جميل ...

المدين : هل أقمت له ضريحا ؟ .

الفيلسوف : لا ، لا .. ماهذا الكلام ؟ انه لم يزل حيا ، يعيش هناك .. وكان المسكين جميلا ، لونه ابيض وأسود ، متوقد الحيوية ، شيطانا ! وكنت أصحبه للنزهة ، وطوقه الفضى حول عنقه الدقيق ، فكان لايكاد يلمس الارض بتاتا بقوائمه النحيلة المرتجفة .. ثم سرعان ما يدفع بى الى اليأس من مسلكه ، لانه يصر على الدخول فى كل كنيسة يمر بها . أفهمت ؟ .. فأجرى وراءه صائحا : « بيبى ، بيبى ! .. تعال هنا يا بيبى ! » .. فقد كان اسمه ــ أعنى اننى كنت أسميه ــ « بيبى » ! .. ويسمع صيحاتى ، فيتوقف عن الجرى ، ويرفع احدى قائمتيه الاماميتين ، ويعطس ، ثم يظل ينظر الى واحدى أذنيه منتصبة والاخرى مدلاة ، وكأنه يريد أن يذكر أن لا أحد هناك ، ولذا فبوسعه هو الآخر أن يدخل ! .. فأقول له وأنا أداعب شعره : « ولكن كيف لا يوجد هناك أحد يا بيبى ؟ هناك يا حبيبى أجل المشاعر الانسانية ! .. وهذه العاطفة الجليلة لم يكفها أن تسكن صدور الرجال ، فشاءت أن تتخذ لنفسها سكنا فى الخارج ! وياله من سكن ! .. قباب ، وأفنية ، وعمد من الذهب والمرمر ، ولوحات نفيسة ! » .. فلعلك الآن ياصاح قد استطعت أن تفهم مرادى ! .. **وان كان الامر أمر بيت الله ،**

فالعالم بأكمله بيت لله ، أكمل وأنفس وأفخر من أية كنيسة ! .. ونفس الانسان المتعبد للسر الالهى اكرم وانبل وأعلى من كل مذبح مشيد ! .. ولكن هذا هو القدر الذى كتب لجميع المشاعر : أن تصبو الى بيت يشاد لها،وبذا تتضاءل بالضرورة، وتمسى صبيانية بعض الشيء ، بسبب غرورها وتعلقها بالاباطيل ! .. وهذا المصير بعينه هو الذى كتب للامتناهى الذى فينا ، حين ينتهى - فى وقت من الاوقات - الى هذا الشبح الذى يسمى الانسان .. تلك الصورة الواهنة التى تدرج على أرض ليست سوى حبة ضخمة وعثاء ، تائهة فى الفضاء !

البدين : أى شيء اذن أنا وأنت وكل من خرجوا من هذا الباب ، أن كان لى أن أعلم ؟ .. أأشباح لاشباح ، ومظاهر لمظاهر ؟ !

الفيلسوف : كلا . ولماذا ؟ انهم الاشباح نفسها ، ولكن مع فارق واحد : ان الشبح فى اعتبار الناس هناك ، موجود فى اللحد،أما الشبح - فى اعتبارنانحن - فلم يزل هنا لفترة أخرى قصيرة ، ممثلا فيك وفى أنا ، فنحن - فى مجموعنا - عبارة عن الغرور الفارغ الذى لم يزل يقاوم الفناء بعض الشيء ، لان ظلا أخيرا من الوهم لم يزل فينا ، ومن ثم فنحن لا نزال نتشبث بمظهرنا الباطل ، ونؤثر - لكى نتحرر منه - أن ننتظر حتى يشف من تلقاء نفسه ويتلاشى . وانى لاراك الآن تبدو لى أشف مما كنت شيئا ما ، ولعل هذا من أثر حديثى ! .. آه ! ها أنتذا قد كفاك أن أقول لك هذا ، حتى تكاثفت فجأة ايها الظل المسكين ! ماالذى يحتجزك فى هذه الصورة الباطلة ؟ أنت بدين ، أجل ، ولكنك تبدو كئيبا مهموما !

البدين : بى حسرة ! لا أدرى لماذا . وما برحت أرى حديقة بيتى الصغيرة المشمسة..وفى النافذة بساط صغير أخضر.. والحوض يبدو فى الظل كالمرآة ، والاسماك الصغيرة الحمراء



كأنها تهم أن تفض صفحة الماء .. والنباتات التى من حوله تنظر مبهوتة الى الدوائر التى تنداح فى الماء فى صمت وسكون . انى **لم أزل هنــاك ، بين الاوراق المغضنة الرطيبة الانفاس ، مثل لاراها ، فهى هناك حقا ، تلك ورقة ميتة لم تعرف بعد كيف تنفصل عن منبتها ! .. انى الورقة الميتة ! ..** رويدك حتى تهوى بها هبة ريح، وعندئذ فلعلى - كما تقول - ابدد وأتلاشى !

الفيلسوف : أمن أجل صديقتك تلك فحسب ، بك مابك من حسرة ؟

البدين : لا . فالازهار كانت على الدوام موضع عجبى حقا، وكيف يسع الارض أن تنشئها انشاء ؟ لقد قلتها أنت كلمة موفقة : **أوهام !** .. وكان هناك بلبل يأتى ليغنى كل ليلة فى حديقتى الضاحكة المتبرجة فى شهر مايو بورود صفراء ، وورود حمراء ، وورود بيضاء ، وقرنفل ، وجيرانيوم ... وما كانت كل فلسفتك لتغرى هذا العندليب بالغناء ، ولا لتغرى تلك الورود بالازدهار ، فتفيض السحر الخلاب على حديقتى .. كان فى وسعك أن تطارد هذا البلبل ، وأن تنتزع جميع ورودى ... فيطير البلبل الى حديقة جارى ، ليواصل فى كل ليلة من فوق شجرة عالية هناك غناءه للنجوم .. ولن تستطيع طبعا ان تقتلع جميع ورود مايو من سائر الحدائق .. **ولكن حسرتى الان لانى لم أعرف كيف أستمتع بهذا الجذل . الهواء ، كنت أتنسمه ، ولكنه لم يكن يشعرنى أنى**

أحيا ! وشقشقة العصافير المولودة فى مايو – فى حديقتى وفى الحدائق المزهرة المحيطة بدارى – كنت أسمعها ، ولكن تلك العصافير وتلك الازهار لم تخبرنى – وأنا أسمعها او يفعم أنفى عبيرها – بأننى كنت أحيا ! .. كان الفكر يصم أذنى ويعمى بصرى . وما كنت ألقى بالا الى ما كان يتطرق الى حواسى من تلك الحياة .. وكنت أشكو وأتوجع .. مم ؟ من ذلك الفكر المنكود .. من رغبة لم تتحقق ، او قضية خاسرة انقضى أمرها ! .. وفى هذه الشكايات راغت منى طيبات الحياة . كلا ! .. اننى أدرك الآن أنها لم ترغ منى ، وانما راغت من وجدانى فحسب ، لان جسمى هذا استطاب نكهة الحياة من غير أن ينبىء وجدانى بذلك . **ومن أجل هذا الوجدان ها أنذا أقف هنا كما يقف المتسول أمام الباب .. ذلك الباب الذى ليس لى أن ألجه بعد ، وأستجدى نكهة الحياة التى جعلتنى أقبل جميع المتناقضات والاوضاع التى كان فكرى المنكود – فيما مضى – يوحى الى أنها منكودة لاتطاق !** .. فمثلا فى بعض أيام الآحاد ، كانت زوجتى تزعم أنها ذاهبة الى القداس ، ثم تذهب الى بيت عشيقها بدلا من الكنيسة ! ..

الفيلسوف : ياللمسكين ! أو كنت تعلم هذا ؟

البدين : أرأيت ؟.. هاك حقيقة لم تكن – للأسف – وهما !

الفيلسوف : لا ايها العزيز ، ففى وسعى أن أقيم لك البرهان على أن هذه أيضا وهم كسائر الاوهام !

البدين : كانت زوجتى تخوننى .. هذا أمر واقع ! حقيقة!

الفيلسوف : وعلام بنيت قولك أنه واقع وحقيقة ؟

البدين : وكيف لا أعتقدذلك، مادامت امرأتى تخوننى فعلا ؟

الفيلسوف : هاك ! ان هذا الذى تسميه حقيقة واقعة – وهو عبارة عن استمتاع زوجتك مع رجل سواك – يبدو لك « حقيقة » واحدة لديك ولديها . **فكيف يتفق ذلك ، اذا كان**

هذا الواقع الذى منحها اللذة والمتعة ، هو عينه الذى منحك أنت الالم ؟ ومم نجم ألمك ان لم يكن مما زينه لك وهمك من أن زوجتك ملك لك ؟ .. هذه كلها — ياعزيزى — أفكارباطلة بطلان الحياة برمتها ، فما كانت زوجك الا فكرة اختلقتها أنت . وكذلك كانت خيانتها اياك فكرة من خلقك ، وكذلك أيضا كان تألمك لتلك الخيانة فكرة من خلقك .. والمصيبة ان الحياة غير ممكنة الا اذا اعتبرنا جميع أفكارنا هذه حقائق ، وكان أولى بنا يا صاحبى أن نرفض الحياة !

البدين : لعلك على حق . فان الطعم الذى أحسه للحياة كان قائما يقينا على ماينشأ فى فكرى عن أحوالى وعلى الاوهام التى تتراءى لى . ولا تظن أن خيانة زوجتى لى كانت مصدر ألم عظيم .. **أجل كنت أتنهد ، وأقول لنفسى — باللفظ الظاهر — اننى أتألم . ولكنى — فى دخيلتى — كنت أحس بأن تنهدى ذاك تنهد ارتياح !** وينبغى أن أتعلم أنى لم أشعر بالالم لانها لم تكن راضية عن عشيقها ، كما لم تكن راضية عن شىء ولا عن أحد ... وستسوء عاقبتها بلا شك . ولهذا السبب أيضا لم أستطع ان أنتزع نفسى من هنا ...

الفيلسوف : اتنتظر قدومها ؟

البدين : أجل ، عن قريب . اننى واثق من أنها ستقتل ! .. عشيقها سيقتلها اليوم أو غدا . أو لعله يقتلها الآن، فى هذه اللحظة التى أكلمك فيها عن مقتلها ! .. **(يصمت ويحدق امامه بعينين شاردتين ثم يستطرد)** ويداخلنى اليقين بما لم أهتم فى لحظاتى الاخيرة على الاقل باخفائه من الكرب ، لا لاننى كنت أحتضر ، وانما — بالاكثر — لذلك المنظر المؤسى ، منظر الالم العميق اليائس .. **منظرها هى ، وهى قائمة بجوار فراشى ، يؤودها أنها لم تكن تدرى ماذا تفعل كى أظل على قيد الحياة !**

الفيلسوف : وكيف هذا ؟ ألم تكن راغبة فى موتك اذن ؟

البدين : قد تكون عالما كبيرا ، ولكنك ــ فيما أرى ــ لا تفقه من أمور الحياة الا شيئا قليلا .. انها لم تستطع ان تكن لى اعزازا . وأؤكد لك أننى كنت منذ البداية أرثى لذلك الرجل رثاء شديدا .. **فعلى أثر وقوع الخيانة مباشرة ، جعلت زوجتى تصب على رأسه كل الحقد والعداوة الضارية التى كانت من قبل تكنها لى ! وعلى العكس بدأت تشعر نحوى بشىء من المودة المتغلبة ، التى فيها من المرح المازح ومن اللذع القارص ،** كتلك المودة التى كانت بيننا فى باكورة أيام خطبتنا ، عندما كانت تطاردنى وفى فمها زهرة ، ثم تقول : « يا لك من حمار كبير مضحك ! » . وقصارى القول أنه كان بوسعى أن أشعر بالعزاء ، لايقانى من أن غريمى كان يلقى من العذاب ما اصطليته أنا من قبل ! .. وكان المسكين يعتقد أنه أساء الى بخيانته لى ، ولهذا كان ينوء ــ فوق تعذيب زوجتى له ــ بندم صادق ساذج . **وهكذا كان موتى ــ كما ترى ــ طامة كبرى بالنسبة لهذا الرجل . اذ كانت زوجتى غير متلهفة على زوالى حتى لا يزول هو أيضا ، لانه كان بمثابة الظل لجسدى ، لا لانه كان يلازمنى دواما ، بل لان كل زوج معين يصنع على الدوام عشيقا معينا ، ومتى تلاشى الجسم ، تلاشى الظل ! ..** وطالما كنت موجودا ، فهذا العشيق موجود . فما العمل الآن ؟ .. لماذا يكون هناك رجل واحد وقد صارت حرة ؟ .. ولماذا يكون الواحد هو هذا الظل المملول لجسم لم يعد له وجود ؟.. انها ستصبو الى آخر ، ثم ربما أيضا الى آخرين !

الفيلسوف : وهل تظن أنه سيقتلها ؟

البدين : حتى لا يسمعها تضحك ! .. عند أول ضحكة سيقتلها . وهى الآن ممتنعة عن الضحك ، بحكم مظاهر الحزن ــ لحداثة العهد بوفاتى ــ ولكنى احس بدغدغة الضحك المكتوم فى لهاتها وحلقها ، ولن يلبث هذا الضحك أن ينفجر فى وجهه من فمها الاحمر الضارى ، ومن بين أسنانها القاطعة ! ..



ستضحك كالمجنونة . ألم أقل لك أن فلسفتك لن تستطيع اقتلاع الورود من حديقتى ؟.. ولكن ضحكات هذه المرأة تستطيع ما هو أكثر من هذا .. ففى كل مرة كنت أسمعها تضحك ، كان يخيل الى أن الارض تميد من تحتى ، وأن السماء تطبق على ، وأن حديقتى قد ارتدت قاحلة قفرا ، يملؤها العوسج والشوك ! .. ذلك لان لها ضحكة تطلقها من جوفها كالسعار المهلك . وما أفظعها من ضحكة تقع على سمع مهموم !.. لا شك عندى فى أنه قاتلها ! (**يصمت قليلا ، كمن يصغى ، وقد رفع يده فى الهواء ، وتعلقت نظراته فى الفضاء**) .. ربما كان قد قتلها فعلا ، وعما قليل سنراها خارجة من هنا .. ها هى ذى ! ها هى ! .. رباه ! ارأيت ؟ ها هى ذى .. بدينة ، ممتلئة ، كالخروف ! انها تضحك ، ثم تضحك ، وهى مشعثة للغاية ! **وعلى ثديها .. أنظر ! .. دم ! والدم يتناثر منها على كل ما يحيط بها** ! هنا .. تعالى هنا ! لاتتخبطى هكذا ! .. تعالى فاجلسى هنا !

المقتولة (وهى تحاول الجلوس على الاريكة بجواره) : أأنت هنا ؟ يا الهى !.. كيف هذا ؟ كلا ، كلا ! .. معك مرة أخرى ؟ ! ها ها ها ! .. ياله من أبله ! لقد ارسلنى اليك ! وسيأتى هو أيضا . ألا تعلم ؟ جرح نفسه جرحا مميتا بعد أن جرحنى هنا ، أنظر ! (**للفيلسوف**) أنظر انت الآخر يا سيد . ها ها ها ! .. أنظر ياسيدى الى زوجى كم هو مروع ! كلاياعزيزى ! ماذا تقول ؟ .. أتظننى لا أزال مطالبة

بالاحتشام ؟ ! .. هل تعلم يا عزيزى ؟ لقد تركونى هناك طيلة فترة الصباح كلها ، مطروحة فوق الفراش هكذا .. أنظر ! وصدرى كله مكشوف ، هكذا .. وخلق كثيرون يدخلون ليرونى .. وأخشى أيضا ان ساقى كانتا مكشوفتين . نعم ، شيئا ما ، ها ها ها ها ! .. **ياله من أبله ! كان يظن نفسه قادرا على ايذائى ، وقد كنت — بدورى — جد خائفة أن يؤذينى .. أراد أن يطلبنى ، ورغت منه ، ورحت أرقص حوله ، وانا أدور كالمجنونة . أرأيتنى ؟ .. هكذا !** وفجأة ، آه ! طعنة .. ها هنا ، وسقطت ، فرفعنى عن الارض ، وطرحنى على الفراش ، وراح يقبلنى ، ويقبلنى .. ثم بالسلاح نفسه الذى طعننى به ، طعن نفسه وهو فوقى . وسمعت ارتطامه بالارض وهو يئن ويئن تحت قدمى ، وظلت على فمى — حتى المنتهى — حرارة فمه . ولكن لعل تلك الحرارة كانت دما !

الفيلسوف : أجل ، فلم يزل ثمة خيط رفيع من الدم ينساب من فمك على ذقنك

المقتولة (تتحسسه على الفور وتمسحه بيدها) : آه . هاك ! .. اجل ، كان دما . هذا ما أردت أن أقول ، لانه مامن قبلة قبل هذه احرقتنى !.. لقد كنت — وأنا ملقاة على الفراش ، وقد أظلم كل شىء فى ناظرى — أتمنى أن تمنحنى تلك القبلة الاخيرة الحرارة التى طالما كانت أحشائى على الدوام تتمناها ، فلا تحظى — على الدوام أيضا — بغير خيبة الرجاء !

(صمت ، يهز شبح الرجل البدين — خلاله — راسه بمرارة ، ثم يستند بذقنه الى عصاه فى ألم ، بينما يظل شبح الفيلسوف مستغرقا فى تأمل المرأة المقتولة ، وهى تنظر نحو باب المقبرة . وفجأة ترتجف وتنتصب واقفة)

المقتولة (صائحة) : أنظر ! انظر ! أنظر أنت أيضا !.. أنظر ا من ذا يأتى من هناك ، جاريا بخفة على قدمين ورديتين !

الفيلسوف : انه طفل !

المقتولة : ياروحي ! وما هـذا الذى يمسـكه بين كفيـه الصغيرتين ؟ .. رمانة ؟ ! .. تعال . تعـال هنا يا روحي ! هنا بقربي !

الطفل ذو الرمانة : هذه لى ، كلها ! .. كلها لى !

المقتولة : نعم ياحبيبي..ان قشرتها صلبة ، وسأفتحها لك أنا ، وأفرط حباتها لك ، فتأكلها وحدك .. كلها ! انتظـر . هنا فى يدى . اوه !

الطفل ذو الرمانة : نعم .. لى كلها . لى !

المقتولة : نعم كلها ، انتظر ! كل هـذه الحبات . آه ، لماذا تدغدغ شفتاك يدى ياحبيبي ؟ هاك الباقي ! كلها لك كما ترى! .. أتريد أن تعطينى حبة واحدة ، واحدة فقط ؟ كلا ؟ لاأريد شيئا اذن ! .. كلها لك أنت !

الطفل ذو الرمانة : أعطنى مزيدا ! .. أريد ..

المقتولة : لم تبق الا الحبـات الاخـيرة يا حبيبى ، وهذا القشر .. آه ! **(تصرخ اذ تتبين أن الطفل قد تلاشى بعد أن أكل الحبات الاخيرة التى كانت فى يده ، وبقيت فى يدها هى بضع حبات وقعت ، على الارض بجانب قشور الرمانة)**

الفيلسوف : لقد كانت هذه الرمانة هى مشتهـاه الاخير ، فظل متشبثا بها بكلتا يديه !

المقتولة : وأنا ؟ .. ومشتهاى أنا ؟ .. آه !

(تطأطىء رأسها وتضع يديها على وجهها ، وتبكى بحرقة. وعلى صوت نحيبها ، نسمع فى الصمت سقوط العصـا التى كان شبح الرجل البدين يسند اليها يديه وذقنه . فتطل المرأة خلال غدائر شعرها ، لتجد أن مكان البدين خال . وينسحب الفيلسوف خلف الاريكة ، ويلتصق بجذع الشجرة ، ويشـير اليها أن تنظر .. لا الى من لم يعد له وجود ، وانما الى بعض هياكل الحياة التى تبرز من الحقول : فلاح ، وفلاحة ، وحمار عجوز فوقه حمل كبير من الحشـائش ، ومن فوق ذلك كله

طفلة صغيرة . وكأنما أحست الطفلة بغريزتها بوقع عينى المرأة المقتولة الضاريتين ترمقانها من الظلام ، فغطت وجهها بيديها الصغيرتين . ووقف الحمار يتحسس قشر الرمانة بمشفريه الغليظين ، ثم لم يلبث أن تركه وجعل يتشمم الارض)

الفلاح : أنظرى ! .. هذه عصا سقطت من بعض الناس !

الفلاح (للطفلة) : وأنت ، لماذا تضعين يديك على عينيك ؟

الطفلة : انني خائفة !

الفلاح : هيا بنا ، فقد تأخرنا ، ودهمنا الظلام !

الفلاحة : أتل معى صلاة على أرواح الموتى المساكين !

(يسوق الفلاح الحمار بالعصا ، مستأنفا طريقه . فتنهض المرأة المقتولة واقفة ، وتسوى شعرها المشعث ، وترفع ذراعيها بيأس ، وتجرى كالمجنونة وراء الطفلة التى تختفى من المسرح على حمارها .. ويبقى شبح الفيلسوف منتصبا ، عالى الهامة ، ملتصقا فى العتمة بجذع الشجرة العتيقة)

الفيلسوف : اخشى أننى سأبقى وحدى على الدوام هنا ، أواصل التفكير والفلسفة ، فلا انقضاء فيما يظهر لشهوتى هذه !

(ستار)



على أعتاب

شباب الكهولة

كيف يستعد الرجل والمرأة لحياة سعيدة نافعة، بعد سن .. الخامسة والأربعين

للباحث المحقق: سيلفانوس ستال

تلخيص: محمد بدر الدين خليل

حياة جديدة .. بعد الخامسة والاربعين !

◆ « سن اليأس » !.. هذا الاصطلاح الذى يرتجف له قلب المرأة حين تشعر ببوادر الانتقال الى المرحلة التى تصبح فيهـا عاقرا ، غير مخصبة .. ما الذى يعرفه الرجل عنه حتى يستطيع أن يقدم لزوجته المعاملة التى تساعدها على اجتياز هذه النقطة الحرجة ـ من نقاط عمرها ـ بسـلام وأمان ، فلا تعصف ظروف هذا الانقلاب بهنائهما الزوجى ؟.. وهـل يعرف الرجـل انه هـو الآخر ينتقل الى « سن اليأس » ؟.. وان مرحلة الانتقال تبدأ وئيدا وتدريجا عقب تجاوزه الخامسـة والأربعين مباشرة ؟.. وان سهولة هـذا الانتقال وعسره يتوقفان الى حد كبير على مسلكه فى سنى عمره السالفة ، وعلى البرنامج الذى يرسمه لحياته منذ الخامسة والأربعين ؟

ان الكتاب الذى نلخصه لك فيمـا يلى ، من أهم الـكتب التى يجب ان يحتفظ بها الزوجان فى مكتبة البيت ، وان يعودا اليها من آن لآخر ، حتى يجتازا المرحلة العاصفة على خير حال

دراسة تبدأ فى الخامسة والاربعين

◆ **تدل** الظواهر على أن حياة الانسان تنقسم الى مراحل مدى كل منها سبع سنوات .. ففى سن السابعة ، ينتقل من الطفولة الى الصبى .. وفى الرابعة عشرة ، يصبح مراهقا، وفى الحادية والعشرين يبلغ أعتاب الرجولة .. وفى المرحلة السابعة ـ اى فى سن التاسعة والاربعين ـ يبلغ ما يسمونه « شباب الكهولة » !

ولقد يبدو غريبا أن نقول أن الرجل يظل بعد أوسط العمر فى حاجة الى تعليم . **فقد أسفرت دراسـاتنا مع رجال بين الاربعين والخمسين من أعمارهم ، عن جهلهم بالتطورات الهامة التى تطرأ على الرجل ـ أو توشك أن تطرأ ـ فى سن الخامسة والاربعين !** .. واذا كان جهـل ابن الرابعة عشرة بالتطورات التى تعتريه ، كثيراً ما يوقعه فى الرذيلة والضرر ، فكذلك نجد أن الرجل فى أوسط العمر بحاجة الى أن يفهم الحدود الطبيعية

لقواه ، والتطورات التى تتعرض لها طبيعة جسمه، والتطورات التى تعترى زوجته كذلك، والا عانى من نتائج بعيدة التأثير والمدى .

ولكى نفهم كنه هذه التغيرات ، يجب أن نضع نصب أعيننا الغاية العظمى التى منح الله الانسان — من أجلها — القدرة على الانسال والتكاثر . ولكى لا يحجم الرجال والنساء عن تحقيق هذه الغاية ، ازاء الاعباء والآلام والاخطار التى تكتنف الابوة والامومة ، جعل الله الرغبة فى التناسل من القوة بحيث تغالب هذه العقبات ، **وقصرها على الفترة التى يستطيع فيها الانسان أن يورث نسله خير ما أوتى من نعم بدنية وعقلية وخلقية .** فجعل فى وسع الرجل والمرأة أن ينجبا الى السن التى يظل عندهما — فيها — رصيد من العمر يكفلان فيه لنسلهما ميزات البيت ، والتغذية ، والتربية ، حتى يصل الى أعتاب الرجولة ويستطيع الاعتماد على نفسه !

تجاهل يؤدى الى أضرار جسيمة

• **وكثير** من الشباب يغترون اذا وجدوا كهولا يتزوجون بعد سن الستين وينجبون أطفالا ، أو اذا رأوا كهولا أسرفوا فى العبث خلال أعمارهم ، ومع ذلك فقد ظلوا يزدهون بقواهم ويتمشدقون بالحياة التى انتهجوها ومكنتهم من الاستمتاع بأكبر قسط من الملاذ . ولكن هذه الحالات تعتبر شواذا ، استثنائية ، بدليل اننا لا نكاد نصادفها الا ندرة !

كذلك نجد أن كثيرا من الرجال — الذين أوتوا دراية ببعض التغيرات الطبيعية التى تطرأ على المرأة فى أوسط العمر — يجهلون ان الرجل يتعرض هو الآخر لتغيرات ، لاسيما فى الناحية الجنسية ، وأن الحكمة الالهية قدرت العواقب التى تترتب على فقدان المرأة قدرتها الانتاجية — وهى الحمل والوضع — اذا ظل الرجل محتفظا بطاقته ، ومن ثم حرصت على التنسيق والمساواة بين الجنسين — صيانة للرابطة الزوجية،

وللكيان العائلى ـ فعرضت الرجل لتغيرات مشابهة .. **على أن ظواهر هذه التغيرات وأعراضها لا تظهر بنفس الجلاء الذى تظهر به أعراض تحول المرأة . حتى أن الاغلبية الساحقة من الرجال يبلغون الخامسة والاربعين ، دون أن يلموا بشىء عن التطورات التى ترتقبهم ، ولا عن معناها اذا ما حدثت !..** بل ان الرجال الذين تصيبهم هذه التغيرات ، قل أن يفطنوا اليها فى باكورتها ، اذ ان الزهو الغريزى بالقوة والفتوة يجعلهم يرجئون الاعتراف بها بقدر ما يستطيعون ، دون أن يفطنوا الى أن هذا التجاهل يضاعف مما قد يترتب على التغيرات الطارئة من أضرار !

أعراض لا بد من الانتباه اليها

• **وبعض** مظاهر التحول تكون مرئيــة ملحوظة ، فى حين أن بعضا آخر منها لا يبدو ولا يكون ملموسا الا للفرد المعرض لها وحــده . ومن أولى البوادر ، تلك الخيــوط الاولى من المشيب ، التى تدب فى شعر الرأس واللحية ، أو فيهما معا . **وان كان الشيب لا يعتبر قرينه ـ او ظاهرة ـ قاطعــة ، اذ كثيرا ما يدب الشيب فى شعور شباب موفورى القوة والفتوة، نتيجة للوراثة .**

كذلك من أعراض تحول الرجل من أوسط العمر الى مرحلة « شباب الكهولة » ، **نقص فى حضور ذاكرته** . وأول ظــواهر هذا النقص تبدو فى نسيان أسماء الاشخاص ، لاسيما الاغراب منهم . كذلك لا تعود التواريخ والارقام تلصق بالذاكرة كمــا كانت قبل هذه المرحلة .

ومن المحتمل أن يصاب البصر بشىء من الضعف كذلك ، فلا يعود الشخص يميز الاجسام البعيدة بوضوح ، أو يميز الاشياء الدقيقة عن قرب،بدون استخدام عوينات (نظارات) . ويلاحظ أن ضعف البصر هــذا ، كثيرا ما يسبب للشخص

صداعا قاسيا فى أعلى الصدغين ، وربما فوق العينين تقريبا ، اذا اجهد عينيه فى القراءة .

كذلك تضعف مقاومة الجسم وتجدد خلاياه عن ذى قبل . ومن ثم نجد أن المرء يبدأ فى الشكوى من أسنانه. ويلاحظ أن التعب والاعياء يسارعان اليه بعد أى مجهود بدنى أو عقلى ؛ ولا يعود الشخص يطيق الانكباب طويلا على الدراسة ، أو على الحركات البدنية .

.. وأعراض ذات صبغة جنسية

• **وفى** هذه الفترة من فترات التحول ، تتباعد المناسبات التى تكشف فيها الرغبة الجنسية عن نفسها ، كما ان هذه الرغبة تقل من حيث شدتها . **فاذا أفرط الرجل فى ممارسة النشاط الجنسى ، لاحظ أنه يصاب بأعياء يستمر فى كل مرة وقتا أطول من ذى قبل ..** ومن المحتمل أن يزداد ظهور آثار الارهاق العصبى أو الجهد أو الجراح التى كان المرء قدتعرض لها من قبل ثم نسيها . كما أن أى ضعف وراثى أو بدنى — يكون الشخص قد غالبه فى صباه — لا يلبث ان يظهر .

وفى هذه الفترة من مرحلة أوسط العمر، **يحتمل أن تتضخم غدة ((البروستاتا))** فتضغط الحالب عند نقطة حروجه من المثانة ، مما يؤدى الى عواقب سنتعرض لها فيما بعد .

هذه بعض الاعراض التى تبين أن التطورات ذات الصبغة الجنسية قد بدأت تطرأ . وهى تستدعى الاعتراف بها ، والمبادرة الى الاهتمام بأمرها .. وفرق بين ((الاهتمام بأمرها)) و ((القلق)) أو ((الجزع من جرائها)) !.. على انه ليس من الضرورى أن تظهر هذه الاعراض — كلها أو بعضها — لدى كل شخص ، او أن تظهر بدرجة واحدة لدى جميع الاشخاص . ذلك لانها قد تظهر مبكرة لدى الذين كانوا يفرطون فى نشاطهم الجنسى — فى صدر الشباب — عنها لدى المعتدلين

.. والواقع أن كل اعتبارات تكتنف المرء فى صدر الشباب : من تغذية ، ورياضة ، وهواء طلق ، واستحمام ، وما الى ذلك يؤثر فى تحديد سن ظهور هذه التغيرات البدنية .

قد يرجىء الرجل التحول ولكن .. الى حين !

• **وقد** يكون من الضرورى - قبل الانتقال الى نواحى أخرى فى موضوعنا - أن نذكر الرجال الذين فى أوسط العمر، الى أنه لا حاجة هناك الى الخوف من التحول . وهنا نسوق بعض آراء الطب فى الامر :

يقول الدكتور جيمس فوستر سكوت ، فى كتابه الرائع عن « الوراثة والاخلاق » وأثرهما فى الغريزة الجنسية : « تستمر الحياة الجنسية للرجل والمرأة الى سن اليأس ، التى تعتبر تحولا أو أزمة هامة تطرأ على حياة الافراد عندما يختل التوازن بين الانسجة المستهلكة والانسجة الجديدة التى تحل محلها » .. **وهذا التحول يوافى المرأة فجأة ، ودفعة واحدة - فى بعض الاحيان - بين سن الثانية والاربعين والخمسين .. أما لدى الرجال ، فانه يكون تدريجيا ، وفى فترة أطول . ويحدث عادة بين الخمسين والخامسة والستين**

« والقاعدة أن الحيوانات المنوية تختفى من السائل المنوى حوالى الثانية والستين ، وان كان بوسع الفرد أن يظل قادرا على مباشرة النشاط الجنسى - بل والاخصاب - لبضع سنوات أخرى . بل ان هذه القدرة قد تظل الى أرذل العمر عند بعض الرجال . بعكس النساء اللائى يصبحن عاقرات قبل أن يبلغن الخمسين » .

وفى كتاب « الزوج والزوجة » يقول الدكتور ليمان سبيرى : « ان القدرة على انجاب النسل لا تتفتح الا عندما يكون المرء قد أحرز قدرا كبيرا من النمو .. وهى تظل نشيطة ومثمرة الى أن يبدأ الجسم فى الشعور بحاجته الى الاحتفاظ بكل

طاقته لسد العجز فى بناء الانسجة الجديدة ، ولصيانةالصحة العامة ! » .. واستكمالا لهذا ، يقول الدكتور وليم آكتون فى كتابه عن « الاعضاء التناسلية » : « ان الرجل **قد يؤخر هذه الفترة بعض الوقت ، ولكنه لايستطيع ارجاءها باستمرار ، اذ لا بد لهذا القانون من أن ينفذ . فلا تصبح الشهوةوالرغبة أمرا واحدا ، ويفقد الخيال سلطانه القديم على الاعضاء التناسلية ..** ولا يعود الدم يجرى فى الخصيتين الا بكميات بسيطة ، فتتناقص حساسيتهما ، وينكمش الكيس المحتوى على الخصيتين ويتضاءل فى الحجم ، ولا يقل الافراز المنوى فحسب ، بل انه يفقد تماسكه ومفعوله »

ويضيف الدكتور « ج. ه. كيلوج » ـ فى كتابه « حقائق صريحة للكبار والشباب » ـ هذه الاعراض : « .. ويصبح الانسان فى هذه الفترة من الحياة عاقلا حكيما ، فيدرك أنه لم يعد شابا ، وان ظل قادرا على أداء وظائفه الحيوية ، **ويهيىء نفسه ويعدها وفقا لهذا الوضع الجديد ، بحيث يكون الاعتدال ـ بصحيح معناه ـ فى كل ما يتطلب جهدا وانفاق طاقة ، هو القاعدة الرئيسية الاولى فى حياته » .** أما الدكتور « جورج نافيز » ، فيقول ـ فى كتابه « تحول الحياة » ـ عن هذه المرحلة : « على أن ثمة حالات تدل على ان الجسم السليم ، المحوط بالعناية الصحيحة الكافية ، يستطيع أن يفلت من مفعول هذا القانون عدة سنين » .. وهذه نقطة هامة يحسن أن نستبقيها فى الذاكرة ، الى أن نوغل فى الموضوع

الطبيعة تعوض الرجل فى ((شباب الكهولة))

• **واذا** كان الرجل يشعر بحسرة لفقدان شىء من قوى رجولته ، فان الطبيعة تدخر كثيرا من أسباب التعويض له فى « شباب كهولته » . **والواقع أن الذى يحرص خلال حياته على التزام العفة والاستقامة ، لا يشعر بنقص كبير فى قواه**

الجسدية والعقلية فى كبره . ونحن نسلم بأنه ما من شخص يلزم العفة التامة فى جميع مراحل عمره ، لا سيما فى صدر الشباب .. فهو أن عف بجسده ، لا يملك أن يقاوم الرؤى والافكار التى تراود ذهنه ، الا بجهد جبار . ولكن المقصود هنا بالعفة والاستقامة ، هى السيطرة على الجسم والعقل ، سيطرة تزداد بازدياد السن . فاذا بلغ اوسط العمر ، تلفت الى الاعوام السالفة من عمره فى حنان ، ثم تطلع الى الاعوام القادمة فى أمل وادراك وفهم ، وهو يرثى لاولئك الذين تجلب لهم سنوات التداعى عللا وعجزا ..

والرجل الذى يلاحظ شدة التغيرات وعنف الصراع النفسانى الذى يلم بالمرأة فى مرحلة التحول ، لا يملك سوى أن يحمد للطبيعة أن جعلت التطورات المشابهة – فى حياته – تدريجية ، لا تكاد تكون ملموسة بدرجة مزعجة مضنية .

ومن الرجال من لا تتعرض قواهم البدنية والعقلية لكثير عناء ، فى أوسط العمر . ولكن هذه ليست حالا عامة . فان الاغلبية الساحقة من الرجال يصبحون أقل اقداما على المشروعات الجديدة ، وأقل استعدادا لتحمل مسئوليات جسام .. ويصبح نومهم مضطربا بعض الشىء ، ويزداد شعورهم بالهموم والقلق والاضطرابات العصبية ، وتقل قدرتهم على التخلص منها .

ولسنا نورد هذه الحقائق لنفت فى عزيمة كل من تجاوز الخامسة والاربعين ، وأشرف على الخمسين من عمره . وانما نوردها لنواجه الواقع ونعمل على علاجه ، **لا سيما وأن فى مقابل هذه العيوب ، نجد صورة أخرى مشرقة ، تقوم الى جانبها .. فان الرجل الذى يعيش فى استقامة واعتدال وصحة غير معتلة ، لا يصل الى أوج نشاطه الحيوى ، ولا يؤدى أعظم أعمال فى الحياة ، الا بعد أن يتجاوز أوسط العمر .** فعندما تتخلى طبيعة الرجل عن جموحها وتتزن ، تبدأ مواهبه فى

الظهور والتألق . اذ يصبح أكثر استعدادا لدراسة اى موضوع وتحليله ، مزودا بالتجارب التى مرت به ، معززا بالهمة وقوة الجنان التى اكتسبها ، لا سيما وانه يصبح أكثر ميلا الى السمو ، والى تدعيم قوة شخصيته ، والى تدارك عيوب الماضى واصلاح أخطائه .. واذا كان قد حرص فى الماضى على أن يكون وفيا للحاضر ، فانه يلج طورا جديدا ، يكون فيه أبعد نظرا ، وأوسع فكرا ، وأدق دراسة ، وأصوب حكما مما كان فى ماضيه . ذلك لان العقل يكون ــ فى الشباب ــ أشبه بصفحة حساسة ، متحفزة لان تلتقط كل صورة تعرض لها ، بسرعة وعجلة . أما فى أوسط العمر ، وما بعد الوسط ، فان تسرعه يقل ، ولكن دقة صوره تزداد . اذ أن التجربة تبصر المرء باحتمالات الخطأ والفشل ، ويساعده الحذر والتروى على اتخاذ الحيطة لتفاديها . وقد قيل قديما : « الشباب للحرب ، والكبار للمشورة والرأى » !

الهدوء والراحة عنصران رئيسيان

• **ويتوقف** مدى تأثر الرجل بما يطرأ على طبيعته من فتور ، على استعداده الجسمى والعقلى . فالرجل الذى انصرف منذ شبابه الى الاعمال العقلية كالادب ، واستغرق فيها دون أن يضن بجهد او بذل ، **لا يلبث أن يجد أن المجهود الفكرى الذى كان يجود به دون ما ارهاق ــ من قبل ــ أصبح يكبده قدرا من الاعياء . اذ تبدأ الطبيعة فى انذاره من الافراط .. والامر ذاته ينطبق على المجهود البدنى .**

ولا بد ــ فى هذه المرحلة ــ من تفادى القلق والاضطرابات التى تجهد الذهن . فليس من الحكمة الاقدام على مشروعات تنطوى على مغامرة ومجازفة ، كما يجب تجنب المشكلات المعقدة . فان القلق والاضطرابات مرهقة للقوى الذهنية والاعصاب . لان آثار هذه الحالات ليست مما يمكن التخلص

منها فى أيام ، وانما هى تمتد لفترة طويلة ، وتؤدى الى عواقب من العسير علاجها .. على أن أمثال هذه الحيطة لا تقتصر على الحياة العمليـــة للرجل ، بل انها تمتد أيضـــا الى الحياة الاجتماعية . اذ يجب أن يتفادى السهر ـ لا سيما فى الاماكن المزدحمة ـ وان يتجنب الاكثار من الاجتماعات الصاخبة ، وأن يتحاشى المأكولات العسيرة الهضم ، لا سيما فى ساعات متأخرة .. وأن ينأى بنفسه عن كل ما يثير الاعصاب والمشاعر والانفعالات .

وفى هذه الفترة من العمر ، تلح الطبيعة فى المطالبة بنصيبها الوافى من النوم والراحة ، ليتسنى لعمليات التجدد والانشاء فى الجسم ، أن تكتمل ، لاسيما وأنها تتطلب ـ فى هذه الفترة ـ وقتا أطول .. وللذين يعانون الارق ، ويتعرضون لاستفحال وطأته فى هذه الفترة ، نقدم هذه النصيحة : « يحسن صرف العقل عن التفكير الجدى قبل النوم بوقت كاف ، وأن يلجأ المرء الى سريره وهو عاقد العزم على النوم . فاذا شعر بميل الى اليقظة ، فعليه أن يحول ذهنه الى صورة بهيجة ـ كأن يحاول تذكر مقطوعة شعرية مرحة ، أو منظر فكه ، او حديث فيه بشرى وأمل ـ وأن يبتعد عن أى موضـــوع يثير القلق أو الانفعال . فاذا تعذر توجيه الذهن الى شىء من هذا ، فمـا أجدى الانصات الى قطعة موسيقية ناعمة ، وتكرارها مرارا ، الى أن تهدأ حدة يقظة الذهن .. او تصور منظر فيه أفراد أوحيوانات أوأشياء كثيرة ، ومحاولة احصائها واحدا واحدا » !

« هرشة » الكهولة قد تغرى بالتصابى !

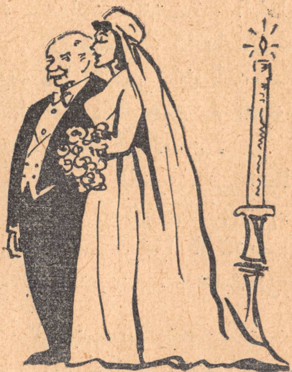
• **ومن** أهم ما ينبغى أن يراعى فى أوسط العمر ، تجنب الافراط والاسراف فى كل شىء ، قبل الانتقـــال الى المرحـــلة التالية من العمر ، فان هـــذا أدعى لتجنيب الرجل كثيرا من العواقب المحزنة .. وأول مايجب أن يراعى فى هذا الصدد ،

تجنب الافراط الجنسى بالذات ، ليتفادى النتائج الخطيرة التى قد يتعرض لها فيما بعد .. **ان الطبيعة ذاتها تنذره بذلك ، فان الرجل يشعر فى أوسط العمر بأن النشاط الجنسى يتلوه - مهما تكن قوة الرجل الطبيعية - تعب أو خمول يزداد أمده شيئا فشيئا مع التقدم فى السن !**

والواقع أن هذه الفترة من العمر ، هى الفترة التى تتطلب من الرجل أن يروض نفسه على الاعتدال فى كل شىء . وللدكتور « م . باريز » - الذى ظل سكرتيرا للاكاديمية الفرنسية سنوات طويلة ، فى مطلع هذا القرن - حديث طريف فى هذا الصدد ، نسوقه فيما يلى : « يجب أن يتجه الحب فى هذه المرحلة اتجاها رفيعا ، فيتحرر من نوازعه الحيوانية .. ان حب الرجل زوجته كشريكة فى الحياة وزميلة ، وحب الاب للابناء ، وحب الوطن .. **كل هذه الوان من الحب تدفىء القلب فى الكهولة (والكهولة فى اللغة العربية تمتد من الاربعين الى الستين) ، وان لم تتسم بعنف هوى الشباب .. وورود الخريف قد لا تكون نفاذة الشذى ، ولكنها ليست مجردة من العبير ! »**

وخليق بالرجل - وهو فى اوسط العمر - أن يذكر أنه بعد سنوات معدودة سينتقل الى الكهولة ، وأن من سمات الكهولة سهولة تغلب الامراض على الجسد . ومن ثم فمن واجبه أن يتفادى كل افراط ، وان يحد من اندفاعاته ، وأن يوجه عقله الى نواحى أرفع وأجمل من ممارسة النشاط الجنسى .. لاسيما اذا عرف أن مقاومة الجموح تهيئه لفترة قد يجد نفسه فيها عاجزا عجزا تاما عن النشاط الجنسى ، وتجنبه صدمة المفاجأة !

ومرة اخرى ، ننقل عن كتاب « الشيخوخة » للدكتور باريز : **« من المكتهلين اغاوين من يحاولون استثارة أعضائهم التناسلية المنهوكة ، دون أن يفطنوا الى ما فى ذلك من خطر**



جسيم . فلا نقض ولا ابرام لحكم الطبيعة وقانونها .. وهم فى هذا قد لا يقنعون من النساء الا بالشابات اللائى فى مقتبل العمر ، أو فتوة الصبا ، فيكبدهم هذا جهدا مضاعفا ، ويلحق بهم – بالتالى – ارهاقا مضاعفا ! .. وفضلا عما فى هذا من استنزاف مستمر للطاقة العصبية ، فان القوى الذهنية هى الاخرى تتأثر تأثرا كبيرا !»

مسلكك فى شبابك ينعكس على كهولتك !

● ولما كانت قوة كل من الجسد والعقل تتوقف على حرص الرجل على صيانة فحولته ، وحسن سيطرته عليها .. وكانت الفحولة – بدورها – تتوقف على الاحوال الطبيعية (البدنية)، لذلك كان لزاما علينا أن نستعرض بايجاز أسباب القضاء على الفحولة ، وخير وسائل صيانتها :

وأول أسباب القضاء على الفحولة وأكثرها ، هو الافراط الجنسى . وهنا ، يحسن أن نذكر القارىء بأن المسلك الذى يعتبر فى حالة الشباب اعتدالا ، يمكن أن يعتبر فى أوسط العمر افراطا ، لان الاعتدال يتباين بتباين مراحل العمر .. كذلك من الاسباب التى ترجع الى صدر الشباب ، نقص التغذية ، والجهد البدنى والعقلى الذى يمتد الى مدى أكثر مما ينبغى ، والاستسلام للهموم والاحزان . ويجمع الاطباء على أن ادمان الخمور والمكيفات – حتى التبغ – يودى بالفحولة قبل الاوان . ذلك لان التهييج المفتعل المؤقت الذى تحدثه ،

يعقب رد فعل يؤدى تكرره الى اتلاف الطاقة الجنسية .. **بل ان للشاى والقهوة عين النتيجة ، اذا ما أفرط الرجل فى ادمانهما !**

وعيب التغذية لايقتصر على نقص المواد الغذائية فيما يأكله المرء ، بل انه يمتد كذلك الى طريقة تناول الطعام . فلا بد للاكل من أن يمضغ جيدا . وهذا معناه وجوب العناية بالاسنان فى كافة مراحل العمر المبكرة ، وفى أوسط العمر بوجه خاص .

وفى هذه المرحلة ، يقل نشاط الاجهزة التى تتولى اعادة بنيان الجسم وحفظ قواه الطبيعية ، ومن ثم فهى تحتاج الى وقت أطول لاداء مهامها . والنوم والراحة من اهم الاسباب التى تيسر هذه العملية . على أنهما ليسا كل شيء ، اذ لابد للرجل الى جانبهما من ترويح وتسلية ، على شريطة أن يحذر كل ما من شأنه اثارة النوازع الجنسية ، أو تنشيط أعضاء الجسد .. ومن الطريف ـ فى هذا الصدد ـ أن نلاحظ أن بعض التوافه قد تؤدى الى التهييج المراد تفاديه بالرياضة . **فما لم يكن مقعد الدراجة ، أو سرج الجواد ـ مثلا ـ مريحا تمام الاراحة، فانه يخشى ان يؤدى الى الضغط على «البروستاتا»، وبالتالى الى اثارة العضو التناسلى !**

وجدير بمن يقترب من « سن اليأس » أن ينشد الصحبة البهيجة السارة ، بقدر ما يستطيع ، وأن يمارس عملا محببا الى نفسه . وكم من رجال اكتهلوا قبل الاوان ، لان الظروف دفعتهم الى أن يمارسوا فى الحياة مهنا أو حرفا لا يميلون اليها .. ولعل أبشع خطأ قد ينزلق اليه الرجل ، هو أن يعمل على جمع ثروة ترضيه، ليعتزل العمل فى اوسط العمر . اذ أنه لا يلبث أن يدفع ثمن ذلك فى كهولته ، جزاء ما كبد جسمه وأعصابه وعقله من مجهود فوق طاقته !

استعد مبكراً لتفادى أمراض الشيخوخة

• **ومرة أخرى** ، نكرر اننا لا نبغى بما ذكرناه أن نرسم للرجال صورا قاتمة ، وانما نحن نبغى أن نبصر أولئك الذين فى الخامسة والاربعين - أو تجاوزوا الاربعين بوجه عام - بالعوامل التى قد تؤثر عليهم ، ليتأهبوا لملاقاتها ، وليعملوا مبكرين على تفادى أسوأ آثارها . ومن أهم ما يجب اتخاذ الحيطة له من سن مبكرة ، العمل على تفادى أمراض الكهولة أو مضاعفاتها . وجدير بمن يعانون الروماتزم ، أو النقرس ، أو الدوار ، أو الصرع ، أو ما اليها من أمراض شائعة الظهور فى أوسط العمر ، أن ينشدوا خير مشورة طبية ممكنة ، وأن يتجنبوا تشخيص حالاتهم بأنفسهم ، واللجوء الى ما يعن لهم من أدوية لم ينصحهم بتعاطيها أخصائى .

ومن الامراض التى تقترن بالكهولة أو الشيخوخة ، ماينأتى عن افراط أو سوء استغلال للاجهزة التناسلية ، أو اصابة بأمراض تناسلية . فالصرع والشلل - مثلا - يمكن أن يصيبا الرجل الذى فى أوسط العمر - بل وقبل ذلك - اذا كان قد أصيب فى شبابه بالزهرى .

وجدير بالرجال الذين يعانون أية اضطرابات فى القلب ، أن يتجنبوا فى أوسط العمر وما بعد ذلك ، كل ألوان الجهد المفاجىء والانفعال القوى .. يجب أن يحذروا الجرى للحاق بالقطار - مثلا - أو صعود السلم عدوا ، وأى نوع من الجهد البدنى الفجائى الزائد عن الحد . **كما يجب أن يحذروا أى انفعال جنسى مفرط الشدة ، كالاتصال بالزوجة بعد طول فراق ، أو الزواج بعد طول ترمل او عزوبة !**

ونسبة الاصابة بالاضطرابات العقلية قد تزيد عند النساء قبل أوسط العمر عنها بعده . أما عند الرجال ، فالامر على العكس . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن شعور الرجل

بتناقص قواه ، يثير فى نفسه القلق والمخاوف . كما أن هذا قد يرجع ـ أحيانا ـ الى الهواجس والهموم التى تكون نتيجة افراط جنسى أو اصابة بأمراض تناسلية من قبل .

صيانة الجهاز التناسلى فى الشباب

• **على** أن هناك ـ الى جانب هذا ـ أمراضا تصيب الجهاز البولى والتناسلى فى أوسط العمر وما بعده ، ولا بد من أن يركن فيها الى عناية اخصائى موثوق به . ومن الامراض التى يحسن أن نلفت اليها نظر الكهول والشباب على السواء ، مرض : « السيلان » . **فان الذى يصاب به فى شبابه ، خليق بأن يعانى منه ويلات فى كبره ، اذا لم يكن قد عنى عناية فائقة بالتأكد من القضاء عليه قضاء تاما . ولا يقتصر أثر هذا الداء الوبيل على الزوج ـ الذى أصيب به وحده ـ بل أن الاثر يمتد الى الزوجة التى تعاشره** . اذ انه يتلف اخصابها ويجعلها عاقرا ، ويحدث التهابات فى الغشاء المخاطى الذى يبطن المهبل والرحم . وكثيرا ماتؤدى أضراره الى ضرورة ازالة المبيضين .. ومن هذه الاضرار يستطيع المرء أن يدرك سر الحاح الطب على الشباب بأن يصون نفسه ، وأن يصون جهازه التناسلى منذ البداية ، حتى لا يعانى الوبال فى الكبر

ومن الامراض التى تنشأ عن الافراط فى المخاوف والهموم والقلق ، حصاة الحالب ، وأمراض الكليتين ، وتضخم غدة البروستاتا . وهذا الداء الاخير من أكثر الاضطرابات التى تطرأ على الرجال فى أوسط العمر ، فخليق بهم أن يعرفوا كنهه وسببه . واظهر أعراضه أن يشعر الرجل ببعض التردد عند البدء فى التبول ، أو يشعر بأن انسياب البول ضعيف . **وما لم يلاحظ الرجل ذلك ، فانه لا يشعر بالتضخم الذى يطرأ على « البروستاتا » لانه يكون بطيئا ومتدرجا ، فلا يغدو محسوسا الا بعد أن يكون قد بلغ درجة تعوق التبول .**

ولا يلبث أن يعرقل افراغ المثانة افراغا كاملا .. ويترتب على ذلك أن يتحلل البول المحتبس ويتحول الى سائل قلوى يهيج المثانة ، ويحدث بها التهابات . وقد يؤدى اهمال هذه الامور الى عواقب وخيمة .

تضخم ((البروستاتا)) وأثره فى الكهولة

• **وعلاقة** « البروستاتا » بالاضطرابات العصبية فى فترة التحول ، تتبين جلية اذا عرفنا أنه لابد لها — لكى تؤدى وظيفتها — من أن تكون متصلة بخارج الجسم عن طريق مراكز عصبية فى كافة ارجاء الجسم تقريبا .. وبسبب هذه العلاقة بالاعصاب — وبالتالى بالمخ — نجد أن الافراط فى النشاط الجنسى ، وتضخم البروستاتا — وغير ذلك من اضطرابات تطرأ على سير الجهاز التناسلى — عرضة لان تكون ذات آثار عصبية ، قد تؤدى — فى حالة استفحالها — الى اختلال عقلى .

وعندما ينتقل الرجل الى مرحلة العقم والفتور الجنسى ، تفقد « البروستاتا » وظيفتها ، وتزداد تضخما ، فتؤدى الى النتائج التى أوردناها فى الفقرة قبل السابقة . ومن شأن التهيج المحلى الذى يحدثه البول المحتبس ، أن يضطر المرء الى مغادرة فراشه للتبول ، فى أثناء الليل ، فيضطرب نومه . ولو أن شيئا من البرد أصاب الجهاز البولى ، فان بعض نقاط من البول قد تفلت من المرء رغم ارادته . وما لم تكف هذه الاعراض الى ضرورة اللجوء الى مشورة الطبيب ، فانها تمضى فى الاستفحال ، فتصبح عملية التبول مصحوبة بكثير من الآلام .

وفى الحالات الشديدة الاستفحال قد يصبح الجلوس ذاته متعبا للمرء ، بسبب ضغط الاجهزة المتصلة بالبروستاتا .

وفى مثل هذه الحالات ، يجب تفادى النشاط الجنسى ، والاطعمة المثيرة ، والمشروبات المنبهة . ويجب كذلك تفادى الجلوس على المقاعد ذات الحشو والوسائد ، والامتناع عن

ركوب الخيل والدراجات . **ومن الضرورى جدا تفادى الامساك وتراكم الفضلات فى الامعاء الغليظة و ((القولون))** . ففى حالة الامساك الطارىء ، أو غير المزمن ، يحسن تناول كوب من الماء — او اثنين — عند الاستيقاظ فى الصباح . فاذا تكرر الامساك فى فترات متقاربة ، فلا غنى عن استعمال «الحقنة الشرجية» مرة أو اثنتين فى الاسبوع .

وعلى أية حال ، فان الخير كل الخير فى اللجوء الى مشورة طبية ، فى حالة الشعور بتضخم « البروستاتا » .. وكلما اسرع المرء الى ذلك ، كان هذا فى صالحه .

الزواج بعد الخامسة والاربعين

• **وتكاد** قوانين الطبيعة تجمع على أن مرحلة النضوج هى أفضل مراحل العمر للزواج ، سواء للرجال أو للنساء . كما أن التكافؤ فى السن من الامور الهامة . وكم من رجال تزوجوا فى أوسط العمر من فتيات يصغرنهم عشر سنوات أو اكثر ، فأدركتهم مرحلة الفتور الجنسى قبل ان تبلغ زوجاتهم سن اليأس . وهذه حال تؤدى الى متاعب للزوجين على السواء ، اذ يصبح الرجل عاجزا عن الاستجابة بدون متاعب أو ضعف لمطالب كانت مبعث لذة له من قبل ، فيصيبه هذا برد فعل نفسى .. ومن ناحية أخرى ، لا تلقى الزوجة من زوجها ارضاء كافيا لرغباتها ، مما يعود هو الآخر برد فعل نفسى عندها .

ولا يكاد العلم يعارض زواج الرجل فى أوسط العمر ، ولكنه يدعو — فى هذه الحال — ويلح فى الدعوة الى ضرورة مراعاة التناسق فى العمر بين الزوجين . فضلا عن الانسجام فى الآراء ، والتكافؤ فى الوسط . واذا حرص الرجل على تجنب الافراط الجنسى — فى زواج كهذا — فان كافة العوامل تبشر باستمرار الحياة الزوجية وهنائها . ومن الرجال من يحتمل أن ينجبوا أطفالا بعد أوسط العمر ، بل وفى الكهولة .

ولكن التفكير السليم لا ينصح بذلك . اذ أن مثل هؤلاء الاطفال غالبا ما يكونون ضعاف الاجسام والعقول . اذ أنهم ثمار حيوانات منوية ضعيفة وشيكة الانحلال .. هذا فضلا عن ان الكهولة قد لاتساعد الاب والام على تبعات تربية أطفالهما فى هذه الاحوال ..

أما اذا كان الرجل عاقلا ، لاينظر الى الزواج من ناحيته الجنسية فحسب ، فان الزواج فى أوسط العمر ، قد يكون مورد سعادة له ، اذ يتيح له بيتا مريحا ، وشريكة فى الكهولة والشيخوخة ، على شريطة أن يكون قد أحسن اختيار هذه الشريكة .

برامج لابن الخامسة والاربعين

• **والرجل** حين يبلغ الخامسة والاربعين ، يدخل فترة ذات علاقات جد هامة بالسنين المقبلة من عمره . فهذه السنوات – التى تبدأ من الخامسة والاربعين الى الخمسين أو ما بعدها بقليل – تعتبر ((**شباب الكهولة**)) ، وهى التى تحدد ما سيكون عليه فى المراحل الباقية من عمره : ضعيفا أو قويا ، عاجزا أو عاملا منتجا ، خائر العزيمة او جادا وراء أهداف وغايات فى الحياة ، رقيقا محبوبا ممن يصغرونه فى السن ، أو متعسفا ثقيل الوطأة على من يحيطون به .

ومن أهم ما يجب على ابن الخامسة والاربعين ، ان يجدد لنفسه برامج بدنية وفكرية وثقافية واجتماعية تتسق مع حالته الطبيعية التى هو مقدم عليها . فاذا هو أهمل مقومات صيانة قواه البدنية – كالرياضة والمران – أو أهمل تغذية فكره بالانصراف عن القراءة والاطلاع ، أو انصرف عن الاختلاط بالناس واعتزل المجتمع ، فانه يجعل سنوات كهولته وشيخوخته ثقيلة الوطأة على نفسه ، مما يجلب عليه الشقاء والضيق بالحياة .

ومع أن استعداد الرجل لسنى الكهولة وما بعدها يتوقف كثيرا على مسلكه فى سنى الصبا والشباب ، الا أن بوسعه أن يبدأ من جديد فى أية مرحلة ، على أن تكون البداية تدريجيـة ومناسبة لظروفه .. فالرجل الذى لم يمارس فى شبابه رياضة ما ، يستطيع أن يبدأ فى سن الخامسة والاربعين ، فى رفق وهوادة وتأن وتجنب للانهاك .. وشيئا فشيئا ، لايلبث المران ان يؤتى ثماره . واذا ماجرى الدم قويا ، حارا فى الجسم ، اكتسبت العضلات نشاطا وقوة ، وانتعش المرء . وقضاء عشر أو خمس عشرة دقائق يوميا فى الرياضة ، كفيل بأن يحدث العجائب .

سن اليأس .. عند المرأة

• وبوسعنا الآن أن ننتقل الى الحديث عما يجب أن يعرفه الرجل — فى سن الخامسة والاربعين — عن زوجته . فمن أجل راحته وهنائه ، وراحتها وهنائها ، يجب أن يكون على الملم بماتتعرض له — هى الاخرى — فى أوسط العمر ، فيوليها عطفه فى الصراع الذى تخوضـه ، **وينشىء معهـا — فى فترة التحول — أسس حياة جديدة، يتوارى فيها الجنس فى مؤخرة الصفوف الخلفية من عناصر السعادة فى الحياة .**

ان فترة التحول الى العقم تكون محنة شديدة الوطأة على معظم النساء .. تكون فترة اضطراب عصبى ونفسى تجعل المرأة أشبه بحمل ثقيل على نفسـها وعلى من حولها ، كمـا تجعلها عازفة عن الاتصال الجنسى بزوجها . ولعل هذا الامر الاخير فى صالحها ، وفى صالح زوجها

وفى حيـاة المرأة فترتا تحـول هامتان .. أولاهمـا عندما يواتيها الحيض للمرة الاولى ، وثانيتهما عند ما تنقطع أعراض الحيض .. **وهذه المرحلة الاخيرة يسموتها ((انقلابا)) ، كمـا يسمونها ((سن اليأس)) — دلالة على اليأس من انجاب الاطفال**

ـ أو ((الذروة)) ، تشبيها للمرء بصاعد الجبل ، فهو حين يبلغ القمة ، يكون قد بلغ ذروة رحلته ، وقطع ـ فى الوقت ذاته ـ نصفها ، فبقى عليه النصف الآخر ، وهو الهبوط ..
وكذلك المرء ـ رجلا كان أو امرأة ـ يبلغ ذروة العمر أو أوجه حين يصل الى اوسط العمر ، فيبدأ فى فقدان خصوبته ، وهى أهم أسباب رسالته فى الحياة .. رسالة حفظ النوع !

((سن اليأس)) مرحلة تفاؤل للمرأة

• **وتميل** بعض النساء الى النظر الى ما بعد انقطاع الحيض فى حيرة وتوجس ، اذ يتوقعن أن يدهمهن الكبر والعجز .. ولكن المرأة التى تكون قد انفقت سنى عمرها السابقة فى حكمة واعتدال ، وفى حرص على قواها وصحتها ، لا تجد مبررا لمثل هذه الهواجس . **بل ان المرأة ـ بوجه عام ـ خليقة بأن تنظر الى مراحل العمر التى تلى انقطاع الحيض نظرة تفاؤل وبشر ، لانها المراحل التى يتألق فيها الحب بوميض أصفى وأطهر من ذى قبل !** .. وما التغيرات التى تدخلها الطبيعة على المرأة والرجل ـ فى هذه الفترة ـ سوى وسائل للتكييف والتهيئة ، تهدف الى صون القوى البدنية والعقلية .

على أن من النساء من يخلن أن كل ماهناك من تحول ـ فى هذه الفترة ـ انما يتمثل فى انقطاع الحيض فحسب .. ولكن هذا ليس سوى مظهر خارجى لتغير كبير يجرى فى داخل الجسم ، ويؤدى الى كثير من الاضطراب البدنى ، نتيجة التطور الذى يلم بالمبيضين تأهبا لانقطاع افراز البويضة ونضجها .. **ومن المعروف أن الحيض عملية ، وان افراز البويضة عملية أخرى . ومن ثم فمن النساء من قد تستمر لديهن القدرة على افراز البويضات ، رغم انقطاع الحيض ..**
ومن أمثلة هؤلاء ما يحدث أحيانا من تعرض نساء مسنات للحمل بعد أن تكون الحيض قد انقطع تماما ! .. ومن ناحية

أخرى ، قد يستمر الحيض بعد توقف افراز البويضات . على ان هذه وتلك حالات شاذة .

ويحدث التحول عادة فيما بين الخامسة والاربعين والخمسين من عمر المرأة . وهناك حالات نادرة حدث فيها التطور فى سن الستين . على أن هناك حالات كثيرة حدث فيها قبل سن الخامسة والاربعين .. بل وفى سن الخامسة والثلاثين فى أحيان قليلة .

التحول يساوى بين الغنية والفقيرة

ومع أن المرأة لا تتعرض لآلام بدنية قاسية فى فترة التحول ـ عادة ـ الا انه من المهم أن تتأهب لها فى مرحلة مبكرة ، حتى تستطيع أن تجتازها فى أكمل راحة . فاذاكانت تعانى من التهابات او قرح أو ضعف ، فعليها أن تعالجها بعناية ، حتى لا تضاعف من الاضطرابات والمتاعب التى تكتنف هذه الفترة . **على أن الحالات البدنية ليست كل شىء ، وانما يلعب المزاج والحالات النفسية دورا كبيرا فى حياة المرأة ابان التحول .**

وليست هناك قاعدة عامة ، فالحالات تختلف من امرأة الى أخرى .. فالمرأة التى تكون قد تعرضت للعوز ، وللقلق الزائد ، وللعمل الشاق لفترات طويلة فى حياتها ، وللحرمان من القدر الضرورى من الراحة ، وللاقامة فى مسكن رطب سىء التهوية .. مثل هذه المرأة تكون فى ظروف غير مواتية لتحمل وطأة فترة « الانقلاب » . **وليست المرأة الغنية ، الميسورة الحال ، بأسعد حظا من الفقيرة ، اذا كانت قد رضخت لقيود المجتمع ، وأسرفت فى السهر ، واللهو ، والاقبال على الولائم المتخمة !**

وخليق بالمرأة فى فترة التحول أن تشغل نفسها ـ قدر المستطاع ـ بما يلذ لها من أعمال ، اذ أن هذا يلهيها عن

الاسراف فى التفكير فى نفسها . على انها يجب أن تتجنب — فى ذلك — الارهاق البدنى والفكرى . ويجب أن يكون الوسط المحيط بها بهيجا بقدر الامكان ، بحيث يجنبها الكدر والكآبة والهواجس .. ولا بد من ايلاء الناحية الغذائية عناية خاصة . اذ يجب أن يكون الغذاء حاويا لكافة المواد الغذائية اللازمة ، كافيا من حيث الكمية .. مع تجنب التخمة واكتظاظ المعدة، ومع الامتناع عن الاطعمة والمشروبات المثيرة والمهيجة .. وعندما يكون الهضم مختلا ، أو الشهية الى الاكل ضعيفة ، يمكن تناول قدح من الكاكاو ، أو كوب من اللبن الذى يخفق فيه زلال بيضة ، بين الوجبات .

أعراض .. فى فترة التحول

• **كذلك** يجب التأهب لاستقبال التحول بممارسة الالعاب الرياضية — عقب الاستيقاظ فى الصباح — لعشر أو خمس عشرة دقيقة يوميا . فان تعود ذلك فى السنين السابقة للتحول ، كفيل بأن يحدث أطيب الآثار . ويحسن الاستمرار على هذه التدريبات — باعتدال — خلال فترة التحول ذاتها . كما ان من الخير الاكثار من الرياضة — فى غير ارهاق — فى الهواء الطلق .. كالمشى والنزهات الخلوية .

والنساء أكثر تعرضا من الرجال للامساك ، ومن الواجب أن يتفادينه فى هذه الفترة أكثر مما يتفادينه فى أية فترة أخرى . ويحسن أن تتبع المرأة ازاء الامساك والارق، ماأوردناه من ارشادات للرجال .

وتختلف بوادر التحول باختلاف المزاج والحالة الصحية وطبيعة تركيب جسم المرأة ، وهى لاتتوالى بترتيب واحد عند كل النساء . فمن النساء من ينقطع الحيض عندهن مرة واحدة ، الى غير رجعة . ومنهن من يفقد الحيض عندهن انتظامه تدريجا ، فتضطرب الفترات التى تفصل بين مرة



وأخرى ، كما تضطرب فترات انسياب الدم وكمياته . وأحيانا يظهر من الاعراض على المرأة ما يوحى اليها بأنها حامل ، ولا حمل هناك . وربما لازمتها هذه الاعراض بضعة أسابيع ، بل وأشهرا أحيانا .. وقد تكون هناك نوبات ترتفع فيها الحرارة ثم تعقبها نوبات من الشعور بالبرد والارتعاش ، واضطراب خفقان القلب ، وآلام فى الظهر والردفين، والامساك أو الاسهال وتورم الاطراف أو تضخم المفاصل ، وامتلاء غير عادى للثديين، ونوبات من الصداع والحرارة الشديدة ، أو الشعور بحرارة لاهبة فى قمة الرأس ، او بآلام فى أسفل المخ . **وفى بعض الاحيان ، تشعر المرأة باعتام البصر ، أو بأجسام دقيقة تسبح أمام عينيها ، أو بدوار ، وباضطراب أثناء المشى وكأنها تسير على أرض غير ثابتة ، وباحتباس الصوت ، وبأوجاع عند قاعدة اللسان ، وبأرق ، وبضيق فى التنفس ، وبأعراض التهاب الاعصاب ، وبهياج عصبى أحيانا .. وقد تصاب بنزيف من الانف ، او تبصق دما فى بعض مرات .**

وغنى عن القول أن هذه الاعراض لا يجب أن تثير انزعاجا ، بل ان من الحكمة المبادرة بالاستعانة بالمشورة الطبية، وباتباع الاساليب الصحية ، والاكثار من الرياضة والنزهات وأسباب التسلية .

المرأة فى حاجة الى عطف الرجل

• **على أن** أهم ماتحتاج اليه المرأة فى هذه الفترة ، هو

الفهم والعطف ممن حولها . اذ أنها تكون معرضة لمزيد من الاكتئاب والهم الذى لا مبرر له ، ولهذا فان الواجب يدعو المحيطين بها - لاسيما زوجها - الى الترفق بها ، والتسرية عنها ، والتهوين من آلامها . وعلى الطبيب عبء دقيق فى هذا الصدد ، فان عليه أن يطامن مخاوفها بدون ان يصرفها عن العناية بالاعراض التى تنتابها .. ان اختفاء الاعراض الشهرية كثيراً مايحدث ذعراً لا مبرر له ، ولو أن الطبيب شرح السيدة علة الاعراض التى تشعر بها فى تبسط ، وأرشدها الى خير تصرف يخفف عنها ، لقدم لها معونة عظيمة . **ولكن معونة الزوج يجب أن تكون أعظم ، اذ أن دبيب الشعر الابيض فى رأس المرأة ، وانقطاع الحيض الشهرى ، والشعور باقتراب فترة العقم ، والجزع على الشباب المولى .. كل هذه عوامل تثير هموم المرأة وحزنها واكتئابها ، وقد تقودها الى شىء من ((الهستيريا)) . وهنا يكون لمواساة الزوج أثر لا يقدر !**

ومن الاعراض التى تصاحب هذه الفترة ، ميل المرأة الى أن تلوم زوجها ، والى أن ترتاب فى مشاعره نحوها .. وهى تذهب فى اللوم الى درجة تحميله مسئولية ما بها من أوجاع وعلل ، فهى قد تتهمه بأنه - فى سبيل مطالبه الجنسية - قد أدى بها الى ماتعانى من آلام .. وبأنه يهملها وأولادهما فى سبيل أعماله والوان نشاطه الاجتماعى .. فاذا فطن الزوج الى أن هذه ظواهر التحول ، استطاع أن يطامن من آلام زوجته النفسية ، وأن يمسك بيدها لتجتاز - ولتجتاز حياتهما الزوجية - هذه الفترة بسلام !

ومن الاعراض التى تثير هموم المرأة فى فترة التحول ، تراكم الانسجة الدهنية فى مؤخر العنق .. كما أن الساقين والذراعين تفقد التفافها وجمالها ، بينما يجمد الثديان ويفقدان انتفاخهما ، وتكبر البطن .. وليس من العسير الكشف عن سبب ذلك . فان المرأة تظل - فيما بين الرابعة عشرة والخامسة

والأربعين من عمرها ـ تفقد ما بين ستة أرطال وثمانية من الدم . فاذا ما امتنع تصريف هذا الدم بعد انقطاع الحيض ، فانه ينصرف الى المساهمة فى بناء انسجة الجسم !

مدخل الى السعادة والنعيم

• **ومن** العجيب أن المرأة تكتسب ـ بعد التحول ـ قوة شخصية ، فى حين يفقد الرجل تحمسه واقدامه ! .. وعندما يكون الزوجان متكافئين ، منسجمين ، متلائمين فى الميول والمشارب والآراء ، فان معظم المخاوف والمتاعب التى تكتنف فترة التحول ـ عند الاثنين ـ تنجاب سريعا ، ولا تعقب آثارا وخيمة . بل ان الفترة ذاتها تصبح مدخلا الى مرحلة اكتمال الرجولة والانوثة ، وازدياد الفرص والاحتمالات لاسباب الهناء والنعيم !



وسمع صرخة زميله ، فاستولى عليه خوف حيوانى أعمى ، فأصم أذنيه عنها ، وتشبث بالمجداف ..

مثال من خسة الانجليز فى المستعمرات يصفه بأمانة ((سومرست موم)) فى ((أرواح هائمة)) فى العدد الجديد من ((مطبوعات كتابى)) . فاحجز نسختك



الترجمة الحرفية للرواية المقررة على الشهاده الثانوية العامة

ملخص ما نشر فى الحلقات السابقة

• كان لابد لى من أن اخوض المخاطر ، لأرضى الفتاة التى احببتها. ولهذا جازفت ، وقابلت الأستاذ « تشالينجر » ، الذى كان الصحفيون والعلماء يرهبونه .. لخشونته ونظافته . وكان قد عاد من رحلة فى امريكا الجنوبية، قائلا ان على ضفاف (الأمازون) منطقة مجهولة، تعتبر « العالم المفقود » حقا .. اذ لا تزال مخوفات ما قبل التاريخ تعيش فيها دون تطور.. وقد تألفت بعثة - لتتحرى صحة أقواله - من الأستاذ سمرلى - وهو من العلماء - واللورد جون روكستون - الرحالة الشهير - وانا .. وانضم الينا تشالينجر ، فانطلقنا حتى انتهى بنا الى ادغال كان الهنود يتحاشون الاقتراب منها ، اعتقادا بان « الكوروبوري » - روح الغابات - تسكنها . وبلغنا مرتفعات صخرية حمراء تؤلف هضبة ، هى الهضبة التى كانت تؤلف « العالم المفقود » .. ولم يكن ثمة مكان فى سفوحها ، يتسنى تسلقها عنده . على أن صخرة ذات شكل هرمى ، كانت تقوم بجوارها ، وتحاذيها ارتفاعا ، وان تصلت بينهما هوة سحيقة . وكانت عليها شجرة بالغة الارتفاع ، فاستطعنا ان نمدها فوق الهوة ، ونعبر الفراغ عليها .. واصبحنا فى « العالم المفقود » ، حيث صادفنا « الديبوصاور » و « الايجوانودون » .. وكلها هائلة الحجم ، رهيبة المنظر .. وأسمينا المكان « أرض ميبل هوايت » ، واتخذنا معسكرا فى أحد الادغال . وفى اليوم التالى ، تعرضنا لهجوم من طيور « البتيرودكتايل » الهائلة ، ثم لهجوم آخر من « الدينوصاور » أكل اللحوم . وفى ذات ليلة ، تسللت من المعسكر وحدى ، لأستطلع معالم الهضبة التى كنت قد ألممت بها عن بعد ، من قمة شجرة فارعة الطول ، واستطعت أن ابلغ بحيرة تتوسطها ، واذا بى أتبين على الضفة الأخرى بقاعا حمراء ، أدركت انها كهوف بداخلها نيران . فكان هذا دليلا على وجود آدميين . وفى عودتى ، طاردنى حيوان « الستيجوساورس المتوحش » وفيما كنت أنشد الفرار منه ، وقعت فى حفرة تبينت أنها فخ لاصطياد الحيوانات .. فكان هذا دليلا آخر على وجود الانسان . واستطعت أخيرا أن أنجو ، وأن أنطلق نحو المعسكر .. وفى هدوء الفجر ، سمعت طلقا ناريا .. واحدا ، اعقبه سكون شامل !

الحلقة الخامسة

بقية الفصل الثانى عشر

• **وظننت** – للحظة – ان خطرا مباغتا قد أحاق بزملائى ، ولكن تفسيرا آخر لم يلبث أن خطر ببالى . فما من شك فى ان غيابى قد انكشف ، فتصوروا اننى ضللت فى الغابات ، وأطلقوا تلك الطلقة ليرشدونى الى المقر ، فبات لزاما على أن أسرع ما استطعت لاطمئنهم .. وكنت جد متعب ، ومن ثم فان تقدمى لم يكن بالسرعة التى رجوتها ، ولكنى وفدت أخيرا على أماكن كنت اعرفها . كان هناك مستنقع «البتيرودكتايل» الى يسارى ، وساحة « الايجوانودون » أمامى . ثم أصبحت قريبا من الاشجار التى كانت تفصل بينى وبين (حصن تشالينجر) . ورفعت صوتى لاحييهم وأبدد مخاوفهم ، فلم يواتنى رد التحية . وغاص قلبى ازاء هذا السكون الغريب . وشرعت أجرى الى أن وصلت الى المعسكر .

وكان الباب الخارجى مفتوحا ، فاندفعت الى الداخل .. **وكان المنظر الذى لاقى عينى – فى ضوء الصباح الواهن – مرعبا . كانت أمتعتنا مبعثرة على الارض – هنا وهناك – وقد اختفى زملائى .. وبقرب نار المعسكر ، كانت ثمة بركة من الدم على العشب !**

وجزعت لهذا ، حتى اننى كنت وشيكا – فى بعض الوقت – أن أفقد عقلى ولا بد . واندفعت أجوس الغابة ، حول المعسكر الخالى ، أنادى زملائى كالمجنون . ولم يواتنى رد من الظلال الساكنة ! .. وجننت للفكرة الرهيبة التى اوحت الى أننى قد لا أراهم ثانية ، واننى قد أجد نفسى وحيدا فى ذلك المكان البغيض ، دون ما طريقة محتملة للهبوط الى العالم القائم تحته ، واننى قد أعيش واموت فى هذه البلاد الفظيعة .

وكدت أمزق شعرى وأدق راسى فى يأسى ، فقد تبينت ـ اذ ذاك فقط ـ مدى ماكنت أعتمد على زملائى .. كنت بدونهم **كطفل فى الظلام ، بلا نصير ولا حول . فما كنت أعرف الى اين أولى وجهى ، ولا ما ينبغى أن افعله أولا ! ..** وبعدفترة، حملت نفسى على محاولة استطلاع اية نكبة مفاجئة يحتمل أن تكون قد حلت برفاقى . وابان مظهر الفوضى الشاملة فى المعسكر عن أن ثمة نوعا من الهجوم قد حدث ، وان طلقة البندقية تعبن ـ ولا ريب ـ الوقت الذى حدث فيه . وكان الاقتصار على طلقة واحدة ، يبين أن الامر تم فى لحظة خاطفة فقد كانت البنادق ملقاة على الارض ، ولم تطلق منها سوى واحدة ، هى بندقية اللورد جون . وكان كل شىء مبعثرا ، ولكن ما من شىء كان مفتقدا . ومن ناحية اخرى ، كانت مؤننا ـ واذكر انه كانت ثمة كمية كبيرة منها ـ قد اختفت . **ولكن ، اذا كانت ثمة حيوانات ، أو حيوان واحد ، قد هاجمت المعسكر ، فما الذى أصاب زملائى ؟ .. لم تكن هناك بقايا ! .. وكلما حاولت تفسير الامر ، عز على عقلى المضنى أن يجد اى تفسير له .** ورحت أنقب فى الغابة ، ولكننى لم أستطع أن أرى أية آثار تساعدنى على الوصول الى اى استنتاج !

وفجأة ، واتتنى فكرة ، فحملت الى قلبى قليلا من العزاء ! .. لم أكن وحيدا فى الدنيا ، فهناك فى أسفل الهضبة ، وعلى مسمع من ندائى ،كان « زامبو » الوفى ينتظر .. وذهبت الى حافة الهضبة وأطللت .. وحقا ، كان يجلس بجوار نار أشعلها فى معسكره الصغير . ولكن ادهشنى ان كان هناك رجل آخر يجلس أمامه . وامتلأ قلبى حبورا للحظة خاطفة ، اذ ظننت أن أحد جماعتى قد هبط بأمان . ولكن الشمس المشرقة ، انعكست عن بشرة حمراء ، فقد كان الرجل من الهنود . وصحت بصوت عال ، ورحت ألوح بمنديلى . وسرعان ماتطلع « زامبو » ، ولوح بيده ، وتحول يصعد الربوة . وبعد برهة

قصيرة ، كان يقف قريبا (على الجانب الآخر من الهوة) ، ينصت محزونا الى القصة التى رحت أرويها له . ثم قال : ((**من المؤكد ان الشيطان اختطفهم ياسيد مالون. لقداقتحمتم بلد الشيطان يا سيد ، وقد استولى عليكم جميعا . فخذ بنصحى يا سيد مالون ، واهبط سريعا ، والا ظفر بك أنت الآخر !**)) . فتساءلت : ((وكيف أستطيع هبوطا يا زامبو ؟))

ـ هات فروعا من أشجار النباتات المتسلقة يا سيد مالون، وطوح بها لكى أربطها الى جذر هذه الشجرة ، فتحصل على معبر!

قلت : ((لقد فكرنا فى هذا .. لاتوجد هنا نباتات متسلقة تتحملنا)) . فقال : ((ابعث فى طلب حبال يا سيد مالون !)) . وتساءلت : ((ومن الذى أرسله ، والى أين ؟)) . فأجاب : ((ارسل الى قرى الهنود يا سيدى .. هناك هندى تحت ، فارسله !)) . وعدت أتساءل : ((ومن هو ؟)) .. فأجاب : ((**انه أحد الهنود الذين كانوا معنا ، وقد ضربه الآخرون واستولوا على اجره ، فعاد الينا . انه الآن على استعداد لان يحمل رسالة ، ويحضر حبلا .. ويفعل أى شىء !**)) .. يحمل رسالة ؟ ! .. ولم لا ؟ . لعله يحضر نجدة . انه ـ على أية حال ـ كفيل بأن يؤكد أن حياتنا لم تذهب هباء ، ولن تلبث أنباء كل ما ظفرنا به للعلم أن تصل الى أصدقائنا فى الوطن . وكان لدى رسالتان كاملتان ، فى الانتظار ، ومن الممكن أن اقضى يوما فى كتابة ثالثة تتضمن آخر تجاربى . ويستطيع الهندى أن يحمل هذه الى العالم المعمور . لذلك أمرت زامبو بأن يعود فى المساء ، وقضيت يومى فى شقاء ووحدة ، أكتب المغامرات التى صادفتها فى الليلة السابقة . كما كتبت مذكرة تسلم لاى تاجر أبيض أو ربان باخرة ـ يعثر عليه الهندى ـ أناشده فيها أن يعنى بارسال حبال لنا ، اذ أن حياتنا تتوقف عليها . وألقيت بهذه الرسائل الى ((زامبو)) فى المساء ، كما ألقيت اليه بكيس نقودى ، الذى كان

يحتوى على ثلاثة جنيهات . وكان عليه أن يسلمها الى الهندى، وأن يعده بضعفها اذا عاد بالحبال !

من هذا تفهم ، يا عزيزى السيد مكاردل ، كيف وصلك هذا الخطاب .. وتعلم كذلك الحقيقة ، اذا لم يقدر لك أن تسمع عنى ثانية ! . اننى الليلة جد مضنى ، وجد حزين ، فلن استطيع أن أرسم خططى . ولا بد لى من أن أفكر غدا فى طريقة أظل بها على اتصال بهذا المعسكر ، وأبحث ـ فى الوقت ذاته ـ عن أية آثار لاصدقائى المتعوسين !

(١٣) ـ « منظر لن أنساه أبدا ! »

* فى اللحظة التى كانت الشمس تغرب فيها ، رأيت طيف هندى وحيد فى السهل الشاسع تحتى ، فراقبته حتى اختفى فى ضباب المساء المصاعد فى الجو . وكان الظلام قد ساد ، عندما تحولت ـ أخيرا ـ الى معسكرنا ..وكان آخر ما رأيت ـ وأنا أسعى اليه ـ نار « زامبو » .. النقطة المضيئة الوحيدة ، فى الدنيا الشاسعة فى أسفل الهضبة . ومع ذلك فقد شعرت بأننى أسعد من ذى قبل ، لأن الدنيا لن تلبث أن تعرف ما فعلنا ، ومن ثم فان أسماءنا ـ على الأقل ـ لن تموت مع أجسادنا ، وانما ستظل متناقلة فى الدنيا مع نتيجة جهودنا الشاقة !

وكان من المفزع أن أنام فى ذلك المعسكر المنحوس ، ومع ذلك فقد كان النوم فى الغابة أشد خطرا . ولم يكن ثمة بد من أحد الأمرين . فأغلقت ـ فى النهاية ـ باب المعسكر ، وأوقدت ثلاث نيران منفصلة ، على شكل مثلث. وما أن تناولت عشاء دسما ، حتى استغرقت فى نعاس عميق ، أخرجتنى منه يقظة غريبة ، هى أجدر اليقظات بالترحيب . ففى الصباح البكر ، عندما أوشك النهار أن يبزغ ، استقرت يد على ذراعى . واذ قفزت والخوف يملأ قلبى ، أطلقت صيحة مغتبطة ، اذ تبينت ـ على الضوء الواهن المعتم ـ اللورد جون جاثيا بجوارى . كان هو .. ومع ذلك لم يكن هو ! .. كان شاحبا ، يبدو الذعر فى عينيه ، لاهث الأنفاس ، متعبا ، كشخص جرى طويلا ، وبسرعة . وكان وجهه مجرحا داميا ، وملابسه مهلهلة متهلهلة ، وقبعته قد ضاعت . وأردت أن أسأله عما حدث ، ولكنه لم يتح لى فرصة السؤال ، بل راح يجمع بعض الأطعمة ، بينما كان يتكلم : « أسرع أيها الزميل الشاب !

.. سريعا ! فلكل لحظة حساب . هات البندقيتين معا ، ولدى اثنتان اخريان .. وعليك بكل ما تستطيع جمعه من رصاصات . املأ جيوبك . والآن ، عليك بجمع بعض الطعام . تكفى ست علب .. هذا بديع ! لا تتريث لتتكلم أو تفكر ، بل هيا والا قضى علينا ! »

ووجدتنى أجرى كالمجنون خلفه فى الغابة ، وانا لم أستيقظ تماما ، وقد عجزت عن ان أتصور لكل هذا معنى .. وتحت كل ذراع بندقية ، وفى يدى علب الطعام . وجرى موغلا فى أشد أجزاء الغابة كثافة ، حتى انتهى الى ركن شديد الكثافة ، فاندفع اليه غير حافل بالأشواك ، ثم ألقى بنفسه فى جوفه ، وهو يجذبنى الى جواره . وقال لاهثا : « والآن ، أعتقد أننا هنا بمأمن . اننى متأكد من انهم سيتجهون الى المعسكر .. ستكون هذه أول فكرة تخطر لهم . ولكن هذا سيحيرهم ! » . فقلت عندما استرددت أنفاسى : « ما كل هذا ؟ أين الاستاذان ؟ ومن الذى يسعى وراءنا ؟ » .. فصاح : « الآدميون القردة . يا الهى ! يا لهم من وحوش !.. لا ترفع صوتك ، فان لهم آذانا طويلة .. وعيونا حادة ، كذلك . ولكنهم لم يؤتوا قدرة على الشم ـ على قدر ما حدست ـ ومن ثم فلا أظنهم يستطيعون أن يهتدوا الينا بالشم . أين كنت أيها الزميل الشاب ؟.. من حظك انك كنت بعيدا عما حدث ! » . وبعبارات قلائل أنبأته بما فعلت . فقال عندما سمع عن الدينوصاور والحفرة : « أمر سىء جدا . انه مكان لا يليق للراحة . ماذا ؟ ولكنى لم أكن أتصور مدى سوئه ، حتى أمسك بنا أولئك الشياطين . لقد أمسكنى مرة آكلة لحوم البشر فى (بابوا) ، ولكنهم ملائكة اذا قيسوا بهؤلاء الآدميين القردة ! »

وسألته : « وكيف حدث هذا ؟ » . فقال : « كان ذلك فى الصباح الباكر ، وقد استيقظ صديقانا العالمان لتوهما . وفجأة ، أمطرت السماء قردة . انهالوا كتفاح يهوى من شجرة . كانوا قد تجمعوا فى الظلام ـ على ما أظن ـ حتى امتلأت بهم تلك الشجرة الضخمة التى كانت تظلنا . وأطلقت رصاصة اخترقت قلب واحد منهم ، وقبل أن أعرف أين كنت ، كانوا قد ألقوا بنا على ظهورنا . اننى أسميهم قردة ، ولكنهم كانوا يحملون عصيا وأحجارا فى أيديهم ، وكانوا يتبادلون الكلام . وانتهى بهم الأمر الى أن أوثقوا أيدينا ، فهم لذلك متقدمون عن أى من الوحوش التى رأيتها فى أسفارى . آدميون قردة .. هكذا هم .. « الحلقات المفقودة » . كانوا أشخاصا ضخاما ، فى ضخامة الانسان ، ولكنهم اقوى منه ، وقد أوتوا تحت حواجبهم الحمراء الكثة ، عيونا براقة ، رمادية . وليس تشالينجر بالضعيف ، ولكنه هزم هو الآخر . واستطاع أن يقف على قدميه ، وأن يصرخ فيهم . وأظنه قد فقد شيئا من عقله

للمفاجأة ، اذ اهتاج وراح يسبهم كالمجنون . ولو أنهم كانوا نفرا من «أعزائه» الصحفيين ، لما استخدم لغة أسوأ مما أطلقها عليهم ! »

وقلت وأنا فى عجب من القصة الغريبة التى كان زميلى يهمس بها فى أذنى ، بينما كانت عيناه تتفرسان – طيلة الوقت – فى كل اتجاه ، ويده متأهبة لاطلاق بندقيته : « وبعد .. ماذا فعلوا ؟ » . فقال : « ظننت أن نهايتنا حانت ، ولكن هذا جعلهم يتجهون اتجاها آخر . فراحوا يتكلمون جميعا، بعضهم الى بعض ، ثم تقدم أحدهم فوقف بجوار تشالينجر . ولسوف تبتسم ياصديقى الشاب ، ولكنى أقسم أنهما كانا أشبه بشقيقين !.. وما كنت لأصدق ذلك ، لو لم أره بعينى رأسى . كان الرجل القرد المسن – وهو رئيسهم – بمثابة تشالينجر أحمر ، له كل ما لصديقنا من نواحى الجمال ، لا يفترق عنه الا فى أنه أجمل منه قليلا . كان له عين الجسم القصير ، والمنكبين الكبيرين ، والصدر المقوس ، والرقبة التى لا تكاد تبين ، ولحية ضخمة يميل لونها الى الحمرة ، وحاجبين كثيفين ، ونظرة وقحة تنبعث من عينيه . وعندما وقف الرجل القرد الى جوار تشالينجر ، ووضع مخلبه على كتفه ، اكتمل الشبه . فضحك سمرلى حتى دمعت عيناه . وضحك الرجل القرد كذلك . ثم شرعوا يجروننا خلال الغابة . وأبوا أن يمسوا البنادق والأشياء ، وأحسبهم قد ظنوها خطرة . ولكنهم حملوا جميع غذائنا . ولقد عوملت وسمرلى أسوأ معاملة فى الطريق ، وان جلدى وثيابى لتشهد بذلك . أما تشالينجر فكان بخير ، وقد حمله أربعة منهم على أكتافهم ، وكأنه امبراطور رومانى .. ما هذا ؟ »

كانت ثمة جلبة غريبة على بعد منا . فقال زميلى وهو يشهر بندقيته : « ها هم أولاء ! املأ بندقيتك عن آخرها ياصديقى الشاب الصغير ، لأننا لن نسلم نفسينا حيين ، ولا يخطرن ببالك أن نفعل ! هذه هى الجلبة التى يحدثونها عندما يكونون مهتاجين . بحق القديس جورج ! لسوف يلقون ما يهيجهم فعلا ، اذا عثروا علينا . هل تسمعهم الآن ؟ » . فأجبت : « على بعد كبير » . فعاد يقول : « حسنا ، كنت أروى لك قصتى .. انهم سرعان ما وصلوا بنا الى بلدتهم .. حوالى ألف كوخ من فروع وأوراق الشجر ، فى حرش كبير ، على مقربة من حافة الهضبة .. على ثلاثة أميال أو أربعة من هنا. وأوثقوا كتافنا وألقونا على ظهورنا تحت شجرة ، بينما وقف انسان قرد ضخم على حراستنا ، وفى يده هراوة.وحين أقول «نحن» ، فانما أعنى سمرلى وأنا .

« أما صاحبنا تشالينجر فكان فوق شجرة يأكل فاكهة ويستمتع بحياته . على انه تمكن من أن يحضر لنا بعض الفاكهة ، وفك وثاقنا بيديه . ولو انك

رايته جالسا فوق تلك الشجرة يلاعب اخوته ويغنى بصوت عال - اذ لاح أن أية موسيقى كانت تسرهم - لابتسمت . أما نحن فلم نكن فى حال تسمح لنا بالضحك . وكان مما طيب خاطرنا جميعا أن كنا نعلم انك طليق ، وان لديك ورقا تحمله معك .. والآن يازميلى الشاب ، سأروى لك ما يدهشك . انك تقول انك رأيت آثار آدميين ، ونيرانا ، ودخانا ، وما الى ذلك . أما نحن ، فقد رأينا أولئك البشر أنفسهم . كانوا مخلوقات مسكينة .. كائنات صغيرة تعسة . وكان لديهم ما يجعلهم كذلك . ويبدو أن البشر يستولون على جانب من الهضبة .. هناك ، حيث رأيت الكهوف !.. ويستولى الآدميون القردة على الجانب الآخر . وهناك حرب دامية بينهما طيلة الوقت . هذا هو الموقف، على قدر ما استطعت أن أتبينه . ولقد حدث بالأمس أن أسر الآدميون القردة حوالى اثنى عشر من البشر ، وأحضروهم الى بلدتهم أسرى . وكان البشر صغار الأجسام ، حمر البشرة ، وقد أوسعوا عضا وخمشا حتى انهم كانوا يسيرون بعناء . وقتل الآدميون القردة اثنين منهم فى التو .. وانتزعوا ذراع واحد منهم من جسده .. كان الأمر فظيعا !.. ولكن البشر كانوا ذوى جلد، فلم يكد واحد منهم يصرخ !.. على أن ما جرى جعل نفوسنا تغثى .. واغمى على سمرلى . ولم يستطع تشالينجر أن يحتمل .. اظنهم قد انصرفوا الآن ، ألا ترى ذلك ؟ »

وأرهفنا آذاننا ، فلم نسمع شيئا .. واستطرد اللورد جون يروى قصته :

« أعتقد انك نجوت بجلدك يازميلى الشاب الصغير . وكان استيلاء الآدميين القردة على أولئك الهنود هو الذى جعلك تغيب عن خواطرهم ، والا لكانوا قد عادوا الى المعسكر من أجلك ، وضموك الينا . ولقد كانوا - كما قلت - يراقبوننا من فوق تلك الشجرة من البداية ، ولابد أنهم عرفوا تمام المعرفة أن عددنا كان ينقص واحدا . بيد انهم لم يفكروا الا فى أسراهم الجدد ، ولهذا فقد كنت أنا الذى فاجاك صباح اليوم وليسوا الآدميين القردة ، وبعد ، لقد اجتزنا وقتا رهيبا ، عقب ذلك . يا الهى !.. لكم يشبه الأمر كله حلما فظيعا !.. هل تذكر العصى الطويلة الحادة التى وجدناها تحت ، حيث عثرنا على الهيكل العظمى للرجل الامريكى ؟.. حسنا ، لقد كان ذلك أسفل بلدة الآدميين القردة ، وهذا هو المكان الذين يقسرون أسراهم على أن يقفزوا اليه ! .. وأحسب أننا كنا سنجد أكواما من الهياكل العظمية ، لو اننا بحثنا .. ان لديهم أرضا فضاء على القمة ، حيث يقيمون احتفالاتهم . وعلى المنكودين المساكين (الأسرى) أن يقفزوا واحدا بعد آخر .. وملهاة القرود هى فى ان يروا ما اذا كانوا قد تمزقوا اربا ، أو علقوا بالعصى القائمة . ولقد اخذونا

لنرى ذلك ، واصطفت القبيلة بأسرها على الحافة ، وقفز اربعة من الهنود ، فاخترمتهم العصى كما تغوص السكين فى الزبد . فلا عجب أن وجدنا هيكل الامريكى والعصى قائمة خلال عظامه . كان المنظر فظيعا ، ولكنه كان عجيبا ، فى الوقت ذاته . ولقد اشتد بنا جميعا الانفعال ونحن نراهم يغوصون فى الفضاء ، حتى ونحن نرى أن دورنا لن يلبث أن يحين !..

« ولكن دورنا لم يحن ، فلقد استبقوا ستة من الهنود لليوم .. هكذا ادركت .. ولكننى أظنهم كانوا يعدوننا لنكون النجوم اللامعة فى الاستعراض. وكان من المحتمل أن ينجو تشالينجر، أما سمرلى وأنا ، فقد كنا فى القائمة.. ان لغتهم تعتمد على الاشارات الى حد كبير ، فلم يشق علينا أن نتتبع أحاديثهم . ومن ثم فقد رأيت أن الوقت قد حان لكى نهرب . واقتصر الامر على ، اذ لم تكن ثمة جدوى من سمرلى ، ولم يكن تشالينجر خيرا منه . وما أن اجتمعا - للمرة الوحيدة - حتى اشتجرا لأنهما لم يتفقا على الاسم العلمى لهؤلاء الأبالسة !.. وأعتقد أنهما معا مجنونان !.. على اننى - كما قلت - كنت قد فكرت فى أمر أو اثنين يساعدان على الفرار . أحدهما أن الآدميين القردة لا يستطيعون أن يجروا بسرعة البشر فى الأراضى الخلاء . ذلك لأن لهم سيقانا قصيرة وأجسادا ثقيلة . والأمر الآخر هو انهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن البنادق ، ولا أعتقد أنهم فهموا اطلاقا كيف مات زميلهم الذى رميته بالرصاصة . فلو استطعنا الوصول الى بنادقنا ، لكان فى وسعنا ان نقاومهم مقاومة تذكر !.. ولهذا هربت فى باكورة هذا الصباح ، اذ ركلت حارسى فى بطنه ، وجريت نحو المعسكر . وهناك ، عثرت عليك وعلى البنادق . وها نحن هذان هنا ! »

فصحت فى قلق : « ولكن .. الأستاذان ؟ » . فقال : « حسنا ، يجب أن نعود لاحضارهما ، اذ اننى لم أستطع احضارهما معى ، فقد كان تشالينجر فوق الشجرة ، ولم يكن بوسع سمرلى أن يتحرك . وكانت الفرصة الوحيدة هى أن أحصل على البنادق وأحاول انقاذهما . ومن الطبيعى أنهم قد يقتلونهما فى أية لحظة . على اننى لا أعتقد أنهم سيمسون تشالينجر ، وان لم أكن مطمئنا بصدد سمرلى . ولكننا يجب أن نعود لاحضارهما أو نموت معهما . ومن ثم فعليك أن تفكر فى الأمر يازميلى الشاب الصغير ، اذ لابد من أن نستقر على أمر قبل المساء ! » . وكنا نهم بالنهوض من مخبانا حين شعرت بقبضته تشتد فجأة على ذراعى ، وهو يهمس : « بحق القديس جورج !.. ها هم أولاء قادمون ! » . وكان بوسعنا أن نطل - من حيث كنا - على طريق كونته الجذوع والأغصان . وعلى هذا الطريق كانت جماعة من الآدميين القردة تمر . وكانوا

يسيرون فى صف - واحدا وراء الآخر - بسيقان مقوسة وظهور منحنية ، وأيديهم تمس الأرض احيانا ، ورؤوسهم تستدير يمنة ويسرة وهم يسيرون. كانوا يبلغون حوالى خمس أقدام طولا ، ولهم أذرع طويلة ، وصدور ضخمة جدا . وكان كثيرون منهم يحملون عصيا . ولقد تأملتهم بجلاء للحظة ، ثم غابوا عن بصرى بين الاشجار .

وقال اللورد جون ، الذى كان قد أمسك ببندقيته : « لقد أفلتنا فى هذه المرة . ان خير فرصة لنا هى أن نرقد ساكنين الى أن ييأسوا من البحث . ثم نرى ما اذا كان بوسعنا أن نعود الى بلدهم ، وأن نضربهم حيث نوجعهم. أمهلهم ساعة ، ثم ننطلق ! » . وفى خلال هذه الفترة ، تناولنا فطورنا .ولم يكن اللورد روكستون قد تناول شيئا - سوى بعض الفاكهة - منذ صباح اليوم السابق ، فأكل كمن يلتهم آخر زاده . ثم شرعنا أخيرا فى رحلتنا لانقاذ صاحبينا ، وجيوبنا مليئة بالرصاص ، وفى كل يد بندقية . ومضينا خلال الادغال فى صمت ، حتى وصلنا الى أقصى حافة الهضبة ، على مقربة من معسكرنا القديم . وهناك وقفنا ، وأطلعنى اللورد جون على طرف من خططه ، قائلا : « طالما كنا بين الأشجار الضخمة ، فسيكون لهؤلاء الآدميين القردة التفوق علينا ، ففى وسعهم أن يرونا ، وليس بوسعنا أن نراهم . أما فى الخلاء ، فان الأمر يختلف ، فهناك نستطيع أن نكون أسرع منهم حركة . لذلك يجب أن نلزم الخلاء ما استطعنا .. ان الاشجار الضخمة تقل على حافة الهضبة عنها فى الداخل ، ومن ثم فهذا هو خط زحفنا . فامض وئيدا ، وافتح عينيك ، والزم بندقيتك . وفوق كل شىء ، لا تدعهم يأسروك طالما كانت لديك رصاصة فى بندقيتك..هذه نصيحتى الاخيرة لك أيها الزميل الشاب ! »

وعندما بلغنا حافة الهضبة ، أطللت فرأيت صديقنا الاسود الطيب «زامبو» جالسا - على صخرة تحتنا - يدخن . وكنت على استعداد لأن أضحى بالكثير فى سبيل أن أنبئه بمغامراتنا ، ولكن الامر كان جد خطير ، خشية أن يسمع صوتنا . وكان يبدو أن الغابة مليئة بالآدميين القردة ، اذ سمعناهم يتكلمون مرارا . وفى مثل تلك الفترات ، كنا نختبىء فى أقرب الادغال الكثيفة ، ونرقد ساكنين الى أن تتلاشى الأصوات . ومن ثم كان زحفنا جد بطىء ، ولابد أن ساعتين - على الاقل - قد مرتا قبل أن أرى من اشارات اللورد جون اننا أصبحنا ولابد جد قريبين من بلدة الآدميين القرود . وأمرنى - بالاشارات - أن أجمد فى مكانى ، ثم زحف بنفسه الى الأمام . وان هى الا دقيقة ، حتى عاد قائلا : « تعال !.. تعال بسرعة !.. آمل أن لا نكون قد تأخرنا ! »

وتقدمت ، ورقدت بجواره ، ورحت أطل خلال الاشجار على الفضاء الذى

امتد أمامنا .. وكان منظرا لن أنساه أبدا ، الى يوم مماتى . كانت ثمة ساحة تمتد أمامى ، قطرها بضع مئات من الياردات ، وقد اكتست بعشب شديد الخضرة ، يصل الى أقصى حافة الهضبة . وحول هذه الساحة كانت ثمة نصف دائرة من الاشجار ، وقد تراصت بين الاغصان أكواخ غريبة من أوراق الشجر ، الواحد فوق الآخر .. وكانت فتحات هذه الاكواخ ، وأغصان الاشجار ، زاخرة بالآدميين القردة ، أدركت من حجمهم أنهم اناث العشيرة وأطفالها ، وكانوا يشهدون ما يجرى فى الارض الخالية من الاشجار .. وفى الفضاء ، وبالقرب من حافة الهضبة ، اجتمع حشد - يتألف من حوالى مائة - من أولئك المخلوقات ذات الشعر الاحمر ، كثيرون منهم ضخام الاحجام ، وكلهم ممن تستبشع النظر اليهم . وكان بينهم نظام معين ، اذ لم يجرؤ أحد منهم على أن يخرق الصف الذى كانوا يؤلفونه . وفى المقدمة ، وقف عدد صغير من الهنود .. اشخاص صغار الجسم ، مطهرون من الشعر ، تلمع جلودهم - كالبرونز المصقول - تحت أشعة الشمس القوية . والى جوارهم وقف رجل أبيض طويل ، منكس الرأس ، مكتوف الذراعين . ولم أكن لأخطئه ، فانه كان .. الاستاذ سمرلى !

وامام الأسرى وحولهم كان ثمة نفر من الآدميين القردة ، كانوا يراقبونهم عن كثب ويجعلون كل فرار مستحيلا . وبعيدا ، وعلى مقربة من حافة الهضبة ، كان ثمة شخصان كانا من الغرابة والطرافة بحيث اجتذبا انتباهنا . وكان أحدهما صديقنا تشالينجر ، ولا تزال بقايا سترته متدلية عن كتفه ، ولكن قميصه كان قد تمزق عن آخره ، واختلط شعر لحيته بشعر صدره . وكان قد فقد قبعته ، فتطاير شعره - الذى كان قد استطال - فى فوضى . كان يوم واحد قد حوله من أرقى نتاج المدنية الحديثة الى أبشع وحش فى أمريكا الجنوبية . والى جانبه وقف مولاه ، ملك الآدميين القردة . كان صورة من تشالينجر فى كل شىء ، عدا ان لونه كان أحمر وليس اسود !.. ولقد انطبع أثر كل هذا - الذى أطلت وصفه - فى نفسى ، فى ثوان معدودة . ثم اتجه انتباهى ناحية أخرى ، فقد أمسك اثنان من الآدميين القردة بأحد الهنود وجراه الى حافة الهضبة . ورفع الملك يده اشارة ، فرفعا الرجل من ساقه وذراعه ، وطوحاه ثلاث مرات الى الخلف والى الأمام ، ثم ألقيا بالمسكين - بقوة عظيمة - من فوق الهضبة . وبلغ من القوة التى ألقياه بها انه ارتفع فى نصف دائرة فى الهواء ، قبل أن يشرع فى السقوط . واذ اختفى عن الانظار ، اندفع الجمع كله - عدا الحراس - الى الأمام ، وأطلوا من فوق حافة الهضبة . ومرت فترة طويلة من الصمت التام ، خرقتها فجأة صيحة ابتهاج . وراحوا يتواثبون محركين أذرعهم الطويلة المشعرة فى الهواء ، وهم يعوون فرحا . ثم

تراجعوا عن الحافة ، وانتظموا ثانية فى صف ، وانتظروا الضحية الثانية !
وكان « سمرلى » هو الضحية فى هذه المرة . وأمسك به حارسان من رسغيه ، وجذباه فى ضراوة الى الامام ، وذهل للحظات . وكان تشالينجر قد التفت الى الملك ، وراح يلوح بيديه أمامه كمجنون . كان يتوسل من أجل حياة صديقه . ودفعه الملك العرد جانبا فى عنف ، وهز رأسه . وكانت آخر حركة قدر له أن يصدرها على الارض ، اذ أطلق اللورد جون بندقيته ، فهوى الملك على الأرض مضرجا بدمه . وصاح زميلى : « أطلق على جمعهم !.. أطلق يابنى ! أطلق ! » . واستطعنا معا أن نودع ببنادقنا الاربعة دمارا فظيعا . وهوى الحارسان اللذان كانا يمسكان بسمرلى ، فاذا به يسير مخبطا كالسكران ، وهو عاجز عن أن يتبين انه صار حرا . وأخذ الآدميون القردة يجرون فى المكان مأخوذين ، لا يدرون من أين أتتهم عاصفة الموت هذه ، ولا ما قد يكون لها من معنى . واندفعوا جميعا متزاحمين الى الاشجار ينشدون ملاذا ، تاركين الارض وراءهم مغطاة بجثث أصدقائهم . وبقى الاسرى لحظة وحيدين وسط الخلاء .
وأدرك تشالينجر الموقف بسرعة بديهته ، فأمسك بذراع سمرلى ، وهرعا نحونا . وجرى خلفهما اثنان من حراسهما ، فسقطا برصاصتين من اللورد جون . وجرينا نحو الساحة لنستقبل صديقينا ، ودفعنا ببندقيه مشحونة فى يد كل منهما . ولكن سمرلى كان نافد القوة ، لا يكاد يقوى على السير . وكان الآدميون القردة يفيقون من المفاجأة ، ويقفزون خلال الغابة ، مزمعين أن يقطعوا الطريق علينا . فعاون تشالينجر واياى سمرلى على الجرى وجاء اللورد جون خلفنا ، وهو يطلق النار تباعا على مطاردينا . وظل الشياطين قريبين من أعقابنا مسافة ميل أو أكثر ، ولكنهم أخذوا يتقاعدون رويدا ، خيفة التعرض لبنادقنا . وعندما وصلنا الى معسكرنا أخيرا ، التفتنا خلفنا فوجدنا أنفسنا وحيدين .. هكذا خيل الينا ، ولكننا كنا مخطئين . فما أن أغلقنا باب معسكرنا ، حتى سمعنا حركة أقدام ، ثم صياحا خفيفا من خارج المدخل ، واندفع اللورد جون — وفى يده بندقية — وفتح الباب . وهناك ، كانت أجسام الهنود الأربعة الصغيرة الحمراء مستلقية ووجوهها الى الارض ، وكانوا يرتجفون خوفا منا ، ومع ذلك فقد كانوا ينشدون حمايتنا . وأشار أحدهم بيديه نحو الغابات المحيطة بنا ، مبديا انها كانت مليئة بالخطر . ثم ألقى بذراعيه حول ساقى اللورد جون ، وأسند وجهه اليهما . فصاح هذا وهو يجذب شعيرات شاربيه : « بحق القديس جورج !.. عجبا ، ماذا ينبغى علينا أن نفعل لهؤلاء ؟ انهض أيها الرجل الصغير ، وارفع وجهك عن حذاءى ! »

وقال سمرلى وهو يدس بعض التبغ فى غليونه العتيق : « علينا ان نعني بسلامتهم . لقد انتزعتمانا جميعا من أيدى الموت . لعمرى !.. لقد كان عملا مجيدا ! » . وصاح تشالينجر : « رائعا ! رائعا ! .. ان العلم ذاته ـ ولسنا وحدنا شخصيا ـ مدين لكما بالعرفان العميق لما أديتما . ولست أتردد فى أن أقول ان اختفاء الاستاذ سمرلى وأنا كن كفيلا بأن يترك فى التاريخ الحيوانى الحديث ثغرة كبيرة . لقد أبلى صديقنا الشاب واياك أبدع بلاء ! ». ورمقنا بالابتسامة الأبوية المعهودة ، ولكن العالم كان خليقا بأن يدهش لو أنه رأى طفله المصطفى ، أمل المستقبل ، بشعره المشعث ، وصدره العارى ، وثيابه المهلهلة . وكانت بين ركبتيه علبة من علب اللحم المحفوظ ، وقد جلس ممسكا بين أصابعه بقطعة كبيرة من لحم الضأن الاسترالى البارد . وتطلع الهندى اليه ، ثم أمسك بساق اللورد جون ، وقد أطلق صرخة خافتة . فقال اللورد جون وهو يربت رأسه : « لا تخف يابنى الصغير .. انه لا يحتمل مظهرك يا تشالينجر ، ولست أعجب لذلك ، بحق القديس جورج !.. لا بأس أيها الصغير ، انه مجرد انسان ، ككل واحد منا » . فصاح الاستاذ : « حقا ياسيدى ! »

ـ من حسن حظك يا تشالينجر انك تشذ عن الانسان العادى قليلا . فلو لم تكن شديد الشبه بالملك ..

ـ أرجو أن تغير الموضوع ياسيدى ، فليست كلماتك بالمعقولة . ان المسألة الماثلة أمامنا هى : ما الذى ينبغى أن نفعله ازاء هؤلاء الهنود ؟.. والأمر الجلى هو أن نأخذهم الى موطنهم .. اذا كنا نعرف أين موطنهم

فقلت : « لا عناء فى ذلك ، فهم يقيمون فى الكهوف ، على الضفة الاخرى للبحيرة الوسطى » . وقال اللورد : « ان صديقنا الشاب يعرف أين يقيمون. وأحسب أن المسافة بعيدة بعض الشيء » . فقلت :« عشرون ميلا على الاقل !». فأطلق سمرلى صيحة خافتة وقال : « أنا بالذات لا أستطيع ان أصل الى هناك . فانى لأسمع أولئك الوحوش وهم لا يزالون يعوون فى آثارنا » . وفيما كان يتكلم ، سمعنا من أركان الغابة المظلمة ، صيحات الآدميين القرود مقبلة من بعد . وعاد الهنود يصرخون رعبا . فقال اللورد جون : « يجب أن نتحرك ، ونتحرك سريعا !.. ساعد سمرلى أيها الزميل الشاب . وهؤلاء الهنود سيحملون المؤن . والآن ، هيا قبل أن يبصرونا ! » .. وفى أقل من ساعة وصلنا الى المكان الذى كنا قد اختبأنا فيه . وظللنا طيلة النهار نسمع نداء الآدميين القردة من ناحية معسكرنا القديم ، ولكن أحدا منهم لم يأت فى اتجاهنا ، فنعمنا جميعا ـ حمرا وبيضا ـ بنوم طويل عميق . وكنت نصف

نائم ـ فى باكورة المساء ـ عندما جذب شخص ما كمى . ووجدت تشالينجر راكعا بجوارى ، فقال فى جد بالغ : « انك تحتفظ بيوميات لهذه الاحداث ، وتتوقع أن تنشرها ياسيد مالون » . فأجبت : « لست هنا الا كمخبر صحفى » . فقال : « تماما .. ولعلك سمعت بعض ملاحظات سخيفة من اللورد جون عن شيء .. شيء من الشبه .. » . فقطعت تردده قائلا : « أجل، سمعتها » . فقال : « لست بحاجة الى أن أقول لك ان اية اشارة لهـا ستسوءنى جدا »

قلت : « سالزم حدود الصدق تماما » . فقال : « سأركن اليك فى الأمر » . وما لبث أن أردف بعد صمت طويل : « لقد كان ملك الآدميين القردة ذا شخصية عظيمة حقا . الم يخطر لك هذا ؟ » . قلت : « كان من أبدع المخلوقات ! » . واستلقى الاستاذ لينام مرة أخرى ، وقد هدأ باله !

(١٤) ـ « كانت تلك هى الغزوات الحقيقية ! »

• **كنا** نخال أن مطاردينا ـ الآدميين القردة ـ لا يعرفون شيئا عن مخبئنا . ولكن قدر لنا أن نتبين سراعا أننا كنا مخطئين . ولم يكن ثمة صوت فى الغابات ، فلم تكن تتحرك ورقة واحدة على الاشجار ، وكانت السكينة تسود حولنا . ولكنا كنا خليقين ـ بعد الذى تكبدناه ـ أن ندرك كيف أن هذه المخلوقات كانت صبورة ، تستطيع ان تراقب وأن تنتظر حتى تحين فرصتها . **ومهما يكن المصير المقدور لى فى حياتى ، فانى جد متأكد من أننى لن أكون أقرب الى الموت مما كنت فى ذلك الصباح. ولكنى سأروى لكم الامر فى ترتيبه الصحيح :** فلقد استيقظنا جميعا متعبين ، بعد الذى عانيناه فى اليوم السابق . وكان سمرلى لا يزال شديد الضعف ، ومن ثم اتفقنا على أن ننتظر حيث كنا ـ فى هدوء ـ ساعة أو ساعتين، وأن نتناول فطورنا الذى كنا فى مسيس الحاجة اليه ، ثم نشق طريقنا ـ خلال الهضبة وحول البحيرة الوسطى ـ الى الكهوف التى كان الهنود يقطنونها . وكنا واثقين من أننا جديرون بأن نلقى استقبالا حارا من أصدقاء الاسرى الذين أنقذناهم . واذ ذاك يجب ان نولي أفكارنا جميعا ـ وقد انتهت

بعثتنا ، وحصلنا على معلومات وافية عن أرض ميبل هوايت - الى اهم مشكلة ، وهى نجاتنا وعودتنا .. **حتى تشالينجر كان متاهبا للموافقة على أن واجبنا الاول - من ذلك الحين - هو أن نحمل الى «الحضارة» ما أنجزنا من اكتشافات مدهشة !**

وأصبح بوسعنا أن نفحص الهنود فى روية . فاذا هم بشر صغار الاجسام ، نشيطون ، متناسقو البنيان ، ذوو شعور سوداء مربوطة - من خلف رؤوسهم - بأشرطة من الجلد . كما كانت ثيابهم - المحيطة بأردافهم - من الجلد . وكانت وجوههم خالية من الشعر ، متناسقة القسمات ، بشوشة . وكان حديثهم - رغم جهلنا به - طلقا فيما بينهم ، وكان كل منهم يشير للآخر ويردد كلمة « اكالا » عدة مرات ، فأدركنا ان هذا كان اسم قومهم . وكانوا - من حين الى آخر - يهزون قبضاتهم نحو الغابات المحيطة ، ويصيحون بوجوه تكشف عن كراهية وخوف : « دودا !.. دودا ! » . وهو بالتأكيد اسم أعدائهم ! .. وتساءل اللورد جون : « ما الذى تراه فيهم يا تشالينجر ؟ .. هناك أمر واضح جدا بالنسبة لى . ذلك هو أن الشخص ذا الرأس الحليق المقدمة ، زعيم عليهم ! » . **وكان من الواضح حقا أن هذا الرجل كان ممتازا عن الآخرين ، وانهم ما كانوا يخاطبونه دون امارات الاحترام العميق . وكان يبدو أصغرهم جميعا ، ومع ذلك فقد كان جم الكبرياء والانفة ، حتى أنه أجفل كالجواد - حين بساط - عندما وضع تشالينجر يده الضخمة على رأسه .** وابتعد عن الاستاذ وقد أومضت عيناه السوداوان بوميض سريع . ثم راح يردد كلمة « مارتاس » مرارا ، واضعا يده على صدره ، شادا قامته باعتدال .

على ان الاستاذ امسك بكتف أقرب هندى اليه ، وشرع يلقى درسا عنه ، وكأنه فى فصل مدرسى : « ليس من الممكن اعتبار نوع هؤلاء القوم من الانواع المنحطة ، بل يجب ان

نضعه — على العكس — فى مكانة أرفع من مكانة كثير من قبائل أمريكا الجنوبية ، التى أستطيع ذكرها . ان ثغرة واسعة تفصل الآدميين القردة عن الحيوانات البدائية التى تعيش على هذه الهضبة . ومن ثم فليس من الممكن أن يكونوا قد تطوروا حيث وجدناهم ! » . فتساءل اللورد جون : « اذن ، فمن أين جاءوا ؟ » . فأجاب الاستاذ وهو يرفع صدره الى أقصى حد ، ويتلفت حوله بازدراء نحو مصدر الكلمات : « ان تفسيرى الوحيد للموقف ، بقدر ما يستحق من تفسير ، هو انهم جاءوا من خارج الهضبة . **ومن المحتمل أنه كان يوجد فى أمريكا الجنوبية قردة شبيهة بالانسان ، وقد وجدت طريقها — فى العصور الماضية — الى هذا المكان ، وتطورت الى المخلوقات التى رأيناها ، والتى أوتى بعضها ..** » . وهنا رمقنى بنظرة حادة ، وهو يستطرد : « شكلا ومظهرا لو أنهما اقترنا بالذكاء ، فلست أتردد فى أن أقول انها كانت جديرة بأن تكون فخرا لاى عنصر على قيد الحياة . أما الهنود ، فلست أشك فى انهم جاءوا من أسفل الهضبة الى هنا . فى عصور أحدث من الآدميين القردة . واذ قوبلوا بمخلوقات رهيبة لم يكونوا قد رأوها قط من قبل ، فانهم لاذوا بالكهوف التى وصفها زميلنا الشاب ، ولكنهم خاضوا صراعا مريرا ليصمدوا أمام الوحوش الكاسرة ، لاسيما أمام الادميين القردة الذين يرونهم بمثابة أعداء . والآن يا سادة ، أترونني أصبت فى شرح الامر ، ام ان هناك نقطة تحبون السؤال عنها ؟ »

وكان الاستاذ سمرلى أضعف من أن يجادل ، وان هز رأسه بعنف ، اشارة الى عدم موافقته . أما اللورد جون ، فاكتفى بأن حك شعره . على أننى أشرت — لاوقف النقاش — الى أن احد الهنود قد اختفى . فقال اللورد روكستون : « لقد ذهب ليجلب بعض الماء .. أعطيناه صفيحة فارغة ، فانطلق بها ! » . وتساءلت : « الى المعسكر القديم ؟ » .

فأجاب : «لا ، بل الى الجدول . انه هناك ، بين الاشجار ، ولا يمكن أن يبعد بأكثر من مائتى ياردة . ولكن الوغد استغرق وقتا طويلا حقا ! » . فقلت : « سأذهب لابحث عنه » . والتقطت بندقيتي ، وانطلقت فى اتجاه الجدول ، تاركا أصدقائى ليعدوا الفطور . وكنت أسمع خرير الماء على مسافة أمامي ، ولكن كانت ثمة ثلة من الاشجار الكثيفة والشجيرات الكثة بينى وبينه . **وكنت أشق طريقي بين هذه - فى نقطة كنت فيها بعيدا عن بصر زملائى - عندما لاحظت ، تحت احدى الاشجار شيئا أحمر بين الشجيرات المنخفضة . وبهت حين رايت - عندما اقتربت - انه جثة الهندى الغائب ..** كان مستلقيا على جنبه ، وأطرافه مرفوعة الى أعلى ، ورأسه ملتفا الى الوراء بدرجة غير عادية ، بحيث بدا كأنه كان ينظر فوق كتفه مباشرة .

وأطلقت صيحة لانذر أصدقائى بأن ثمة شيئا غير طبيعى ، وجريت الى الامام ، فانحنيت على الجثة . ولكن شيئا جعلنى - فى تلك اللحظة - أتطلع الى أعلى . وخلال الاوراق الخضراء الكثيفة - التى كانت جد منخفضة فوق رأسى .- كانت ثمة ذراعان طويلتان قويتان ، ذاتا شعر احمر ، تهبطان ببطء . وكانت اليدان الضخمتان توشكان - فى الثانية التالية - أن تطبقا على عنقى . فقفزت الى الخلف ، ولكن اليدين كانتا أسرع منى ، رغم سرعتى ، فأصابت احداهما قفاى ، والاخرى وجهى . **ورفعت يدى لاحمي عنقى ، ولكن تخلبا هائلا هبط - فى اللحظة التالية - عن عنقى ، وأطبق عليهما . ورفعت عن الارض ، وشعرت برأسي تدفع الى الخلف حتى بات الالم أشد مما أطيق . واهتزت مشاعرى ، ولكنى ظللت أشد اليدحتى أبعدتها عنوة عن ذقنى .** واذ تطلعت رايت وجها مخيفا ، ذا عينين زرقاوين باردتين ، يطل على .. كان فى تلكما العينين شيء رهيب . ولم أعد أقوى على النضال . وشعرت بذقنى

تدمع عنوة الى أعلى والى الخلف . واهتزت عيناى ، وسمعت أصواتا غريبة فى أذنى . ثم سمعت قرقعة منبعثة من بعد . وشعرت بهزة ، ثم سقطت على الارض دون ما وعى أو شعور !

وصحوت لاجد نفسى على ظهرى ، على الحشائش ، فى مخبئنا . وكان شخص ما قد أحضر ماء من الجدول ، وراح ينضح راسى به ، بينما كان الاستاذان يساعداننى على النهوض . وكان الخوف ـ لا أى ضرر ـ هو الذى أفقدنى رشدى ، وان هو الا نصف ساعة حتى كنت جالسا ، ومتأهبا لكل شىء ، بالرغم من رأسى الموجوع وعنقى المتصلب .. وقال اللورد جون : « **لقد نجوت بجلدك يازميلى الشاب الصغير . عندما سمعت صرختك ، وجريت ، ورأيت رأسك يلوى وساقيك تركلان الهواء ، ظننت أن عددنا قد نقص واحدا . ولقد طاشت رصاصتى فلم أصب الوحش فى تعجلى ، ولكنه أسقطك وهرب .** وحق القديس جورج ! .. لكم اتمنى لو كان معى خمسون رجلا بالبنادق ، اذن لمحوت كل عصبتهم ، وتركت هذه البلاد أنظف قليلا مما وجدناها ! » .. وبات من الواضح ان الآدميين القردة قد اهتدوا الينا ، واننا كنا مراقبين من كل ناحية . ولم يكن بنا كثير خوف منهم فى النهار ، ولكن .. كان من المحتمل جدا أن يهاجمونا بالليل . ومن ثم كان الاسراع بالنزوح من هذه المنطقة أفضل . وكانت الغابات الكثيفة تحيط بنا من ثلاث نواحى . أما الرابعة ـ وهى التى تنحدر فى اتجاه البحيرة ـ فلم تكن ثمة سوى أشجار متناثرة . والواقع انها كانت الدرب الذى سلكته بنفسى فى رحلتى الى البحيرة ، وكانت تفضى بنا مباشرة الى الكهوف الهندية . ومن ثم فلا بد أن تكون طريقنا ! »

وشرعنا فى رحلتنا فى العصر ، فسار الزعيم الشاب أمامنا كدليل لنا ، ولكنه رفض أن يحمل شيئا . وسار خلفه الهنديان

اللذان بقيا على قيد الحياة ، وأمتعتنا القليلة على ظهريهما .
أما نحن البيض الاربعة فقد سرنا فى المؤخرة وبنادقنا مليئة ومعدة . واذ بدأنا ، انبعثت من الادغال الكثيفة صيحات عالية من الآدميين القردة ، كانت — بلا شك — اشارة الفرح برحيلنا . واذ التفتنا خلفنا ، لم نر سوى أشجار الغابة. ونحن صيحاتهم أنبأتنا بكثرة أعدائنا المختفين خلفها . على انه لم تكن ثمة مطاردة ، وسرعان ما وصلنا الى منطقة اكثر تجردا من الشجر ، وبعيدا عن منالهم . وكان أصدقائى الثلاثة قد فقدوا جميعا قبعاتهم، وعصبوا رؤوسهم بمناديل ، وقد تهدلت ثيابهم مهلهلة حولهم ، وأصبح من العسير التعرف على وجوههم غير الحليقة . وكان كل من سمرلى وتشالينجر يعرج بشدة ، بينما كنت أجر قدمى من الضعف ، بعد مفاجأة الصباح .. كنا — فى الواقع — جماعة تدعو للرثاء ، فلم ادهش اذ رأيت رفاقنا الهنود يتلفتون الينا — من وقت لآخر — والعجب على وجوههم . وفى ساعة متأخرة من الاصيل ، وصلنا الى البحيرة . وما ان خرجنا من منطقة الاشجار ورأينا الماء ممتدا أمامنا ، حتى أطلق أصدقاؤنا من أهل البلاد صرخة فرح ، وأشاروا أمامهم فى لهفة . وكان المنظر الذى استلقى أمامنا بديعا فعلا :

كان ثمة عدد كبير من القوارب يجتاح سطح البحيرة قادما الى الشاطىء الذى وقفنا عليه مباشرة . وكانوا على بضعة أميال حين رأونا ، ولكنهم اندفعوا بسرعة عظيمة . وسرعان ما اقتربوا حتى أصبح بوسع المجذفين ان يروا أشخاصنا . وفى الحال انطلقت منهم صرخة فرح عظيمة، ورأيناهم ينهضون عن مقاعدهم ، ملوحين بأيديهم وحرابهم فى الهواء بجنون . ثم شرعوا فى التجذيف من جديد ، فبلغوا الشاطىء بسرعة ، واندفعوا نحونا ، مرتمين على الارض أمام الزعيم الشاب ، وهم يصرخون عاليا مرحبين. وأخيرا ، جرى نحونا أحدهم ، وكان

رجل مسنا ، ذا قلادة من الخرز الزجاجي الملون . وقد غطى كتفيه بجلد حيواني جميل أصفر اللون . وقبل الشاب — الذي أنقذناه — بحنان . ثم نظر الينا ، وألقى بعض أسئلة ، قبل — بعدها — كلا منا بدوره . ثم سجدت العشيرة كلها على الارض أمامنا باحترام ، بأمر منه . وشعر اللورد جون وسمرلى وانا بخجل شديد وحرج ازاء هذا التصرف ، ولكن تشالينجر انتفش كزهرة فى ضوء الشمس . **وكان من الجلى ان الاهالى أقبلوا متأهبين للحرب .. كان كل رجل يحمل حربته — عود طويل من الغاب ينتهى بقطعة من العظام — وقوسه وسهامه ، ونوعا من الهراوات أو الفؤوس الصخرية معلقا الى خصره !** .. وكانت نظراتهم القاتمة الى الغابات التى تقدمنا منها ، وصيحات : « الدودا » تبين بجلاء أن هذه كانت نجدة أقبلت لتنقذ ابن الزعيم الكهل — كما أدركنا حقيقة الشاب — أو تثأر له .

وعقدت العشيرة بأسرها اجتماعا ، فجلسوا فى حلقة ، بينما جلسنا على صخرة قريبة نرقبهم . وتكلم اثنان أو ثلاثة من المحاربين ، ثم شرع صديقنا الشاب فى الكلام ، ملوحا بيديه ورأسه بحيث استطعنا أن نفهم حديثه بوضوح ، وكأننا كنا نعرف لغته .. كان يقول : **« ما جدوى العودة ؟ .. لا بد من أداء الامر عاجلا أو آجلا . لقد قتل أصدقاؤكم ، فما قيمة أن أعود سالما ؟ .. لقد سيق الآخرون الى الموت . فليس ثمة سلامة لأى منا . اننا الآن محشودون ومتأهبون »** . وأشار الينا مستطردا : « هؤلاء الاغراب أصدقاؤنا ، وهم محاربون كبار ، ويكرهون الآدميين القردة بقدر ما نكرههم . وهم يسيطرون على الرعد والبرق . فمتى تتاح لنا مثل هذه الفرصة ثانية ؟ .. لنمض قدما ، فاما أن نموت الان ، أو نعيش بسلام فى المستقبل . والا فكيف نعود الى نسائنا بدون خجل ؟ » . وكان المحاربون الحمر الصغار الاجسام يتتبعون

كلمات الخطيب باصغاء ، حتى اذا انتهى انطلقوا فى صياح مرتفع دليل الموافقة ، ملوحين بأسلحتهم فى الهواء . وتقدم الزعيم المسن منا ، وسألنا بعض أسئلة مشيرا — فى الوقت ذاته — نحو الغابات . فأشار له اللورد جون ان ينتظر ، ثم التفت الينا ، قائلا : « لكم أن تقولوا ما الذى ستفعلون ؟ .. أما أنا ، فلدى أمور كثيرة لا بد من تسويتها مع أولئك القردة، ولو انتهت بمحوهم عن وجه الارض لسررت بانى ساهمت فى هذه المهمة . لذلك فسوف أذهب مع أصدقائنا الحمر الصغار الاجسام ، وقد عقدت العزم على أن امكنهم من الانتصار . فما رأيك أيها الزميل الشاب ؟ » . فأجبت : « سآتى طبعا ! »

— وأنت ياتشالينجر ؟ — سأساعد بالتأكيد !

فقال : « وأنت يا سمرلى ؟ » . فأجاب هذا : « اذا كنتم جميعا ذاهبين ، فلست أرى كيف يكون لى ان أتخلف ! » . فقال اللورد جون : « استقر الرأى اذن ! » . ثم التفت الى الشيخ فهز رأسه ورفع بندقيته . فهز الشيخ أيدينا — كلا بدوره — بينما هتف رجاله بأصوات أكثر ارتفاعا من ذى قبل . وكان الوقت أكثر تأخرا من أن يسمح بزحف فى تلك الليلة ، ومن ثم أعد الهنود معسكراتهم وأوقدوا النيران . وكان بعضهم قد اختفوا فى الاحراش ، ثم عادوا يسوقون أمامهم « أجوانودون » صغيرا . وكانت له — كالاجوانودونات الاخرى — علامة أسفلتية على كتفه ، ولم ندرك — الا حين رأينا أحد الاهالى يتقدم بروح المالك فيبدى قبوله ذبح الوحش — ان هذه المخلوقات الضخمة كانت مقتنيات خاصة ، مثلها مثل أى قطيع من الماشية ، وان هذه العلامات الاسفلتية لم تكن اكثر من علامات تدل على المالك . وان هى الا دقائق قلائل ، حتى كان الوحش الضخم قد قطع ، وعلقت قطع منه على عشر نيران فى المعسكر ، مع أسماك كبيرة اصطيدت بالحراب من البحيرة .

وكان سمرلى قد رقد على الرمال ونام ، ولكنا — معشر الباقين — رحنا نتمشي على حافة الماء ، سعيا الى الامام بمزيد عن هذه البلاد الغريبة . **وعثرنا مرتين على حفر من الطمى الازرق، كتلك التى كنت قد رأيتها فى مستنقع «ابتيرودكتايل» .. تلك كانت فوهات بركانية قديمة ، وقد أثارت أكبر قدر من اهتمام اللورد جون ، لسبب ما .** فى حين أن الذى أجتذب اهتمام تشالينجر ، كان حفرة طينية أخذ غاز غريب يحدث فيها فقاعات ضخمة كانت تنفجر فوق السطح . فدفع الاستاذ فيها قصبة مجوفة ، وصاح فى أغتباط — كتلميذ صغير — حين مسها بعود ثقاب مشتعل فأحدث لهبا أزرق عند الطرف الاقصى للانبوبة . وازداد ابتهاجا حين وضع كيسا جلديا على طرف القصبة ، فملأه بالغاز واستطاع بذلك ان يجعله يطير فى الهواء . وقال : « انه غاز قابل للاشتعال ، وهو أخف من الهواء . ولى أن أقول بدون ما شك أنه يحتوى على قدر كبير من الهيدروجين الطلق . ان عقل « ج . ا . تشالينجر » الكبير لا يزال يعمل ، يا صديقى الشاب . لا نزال بوسعى ان أريك كيف يستطيع عقل عظيم أن يحول الطبيعة كلها الى الافادة » . وانتفخ لسبب خفى ، ولكنه أبى ان يقول شيئا آخر .

ولم نعد الى حيث بدأنا حتى هبط الليل ، وتألقت نيران أصدقائنا الهنود فى الظلام . فاستلقينا على الرمال . وعند الفجر ، عادت الحياة تملأ المعسكر . وان هى الا ساعة حتى شرعنا فى حملتنا الكبرى . وكثيرا ما خطر لى فى أحلامى أننى قد أعيش الى ان أصبح مراسلا صحفيا حربيا . فها هى ذى — اذن — أولى رسائلى من ميدان المعركة :

كانت أعدادنا قد تزايدت — أثناء الليل — بجماعة جديدة من سكان الكهوف ، حتى صرنا أربعمائة أو خمسمائة من الاشداء ، عندما أقدمنا على الزحف . وأوفد عدد من الكشافين

أمامنا ، ثم انطلقت القوة بأسرها - خلفهم - فى كتلة واحدة ، مجتازة السفح المنحدر ، فى الاقليم الذى تنمو فيه الاشجار ، حتى اقتربنا من حافة الغابة . وهنا ، انتشروا فى صف طويل من حملة الحراب وحملة الاقواس . **واتخذ روكستون وتشالينجر مركزيهما فى الجناح الايمن ، بينما كنت وسمرلى فى الايسر .. كان الجيش الذى رافقناه الى القتال - نحن الذين كنا نحمل احدث البنادق من لندن - حشداً من العصر الحجرى !** .. ولم يطل بنا انتظار عدونا . فقد انبعثت من حافة الغابة صيحة ضارية ، ثم اندفعت ثلة من الآدميين القردة ، مسلحة بالهراوات والاحجار ، واتجهت صوب منتصف الصف الهندى . وكانت حركة جريئة ولكنها حمقاء ، لان تلك المخلوقات الضخمة - ذات السيقان القصيرة - كانت بطيئة السير ، فى حين أن أعداءها الهنود كانوا خفاف الحركة كالقطط ! .. وكان مرأى الوحوش الكاسرة رهيباً ، بأفواهها المفتوحة ، وعيونها المتأججة ، وهى تنقض على أعدائها النشيطى الحركة ، فتخطئهم بينما كانت السهام تغوص تباعاً فى أجسادها الكبيرة . وصاح أحد الضخام ألماً ، وهو يجرى قريباً منى ، وقد انغرس فى صدره وظهره حوالى اثنى عشر سهماً . وأطلقت على رأسه رصاصة - رحمة به - فخر ميتاً . وما أظن ان واحداً من جميع الآدميين القردة - الذين اندفعوا الى الارض الخلاء - قد عاد الى الغابة .

على أن المسألة صارت أشد احتداماً ، حين أصبحنا بين الاشجار . ودار قتال مستميت - لساعة أو أكثر ، عقب دخولنا الغابة - كنا فيه نصمد بعناء . فقد كان الآدميون القردة يقفزون من بين الاشجار ، بهراوات هائلة ، وينقضون على الهنود . وفى أكثر الاحيان ، كانوا يسقطون منهم ثلاثة أو اربعة ، قبل أن تنال منهم الحراب . **وكانت ضرباتهم الفظيعة تهشم كل ما تقع عليه . ولقد هشم احدهم بندقية سمرلى**



الى شظايا بحجم أعواد الثقاب . وكاد آخر أن يحطم رأسه لو لم يطعن أحد الهنود هذا الوحش بسكين غاصت الى قلبه ! .. وراح آدميون قردة آخرون - على الاشجار - يرموننا بأحجار وكتل خشبية ، ويهبطون بأجسامهم علينا احيانا ، فيقاتلون في هياج حتى يقتلوا . ولقد تقهقر أصدقاؤنا مرة - تحت الضغط - ولولا الفتك الذى أحدثته بنادقنا - لاضطروا الى الفرار بالتأكيد . ولكنهم عادوا الى التجمع ببسالة ، بفضل زعيمهم ، واقبلوا في اندفاع بدأ الآدميون القردة ازاءه في التقهقر بدورهم . وكان سمرلى بدون بندقية ، ولكنى كنت أطلق بندقيتي بغاية ما وسعني من سرعة . وكنا نسمع الطلقات المستمرة من بندقيتي زميلينا ، في الجانب الآخر . ثم أقبل النصر في لحظة ، اذ اندفعت المخلوقات الضخمة في كل اتجاه - موغلة في الغابة - وهي تصرخ وتعوى ، بينما صاح أصدقاؤنا فرحا ، وتعقبوا مسرعين أعداءهم الهاربين .. **وأخيرا ، قدرت السيادة للبشر !**

وكنت أتبع الآخرين حين وجدت اللورد جون وتشالينجر مقبلين لينضما الينا . وقال اللورد جون : « انتهى القتال ، وأرى أن نترك عملية التطهير لهم . فلعل نومنا يكون اهدأ اذا نحن لم نشهدها » . وكانت عينا تشالينجر تومضان بالرغبة في القتل . فصاح وهو يسير كالديك مختالا : « لقد كان شرفا لنا أن حضرنا احدى معارك التاريخ الكبرى .. المعارك التى

قررت مصير العالم . ما قيمة غزو أمة لاخرى ، يا أصدقائي ؟ .. ليس لهذا قيمة ، فكل الغزوات تؤدى الى نتيجة واحدة . أما هذه الحروب الوحشية ، عندما كان البشر الاولون – فى فجر العصور – يصمدون ضد النمور والفيلة التى وجدت للمرة الاولى أن هناك من يسودها .. فهذه هى الغزوات الحقيقية . والآن ، لا بد للمستقبل من أن يظل للانسان دائما ، على هذه الهضبة ! »

واذ تقدمنا معا خلال الغابات ، وجدنا الآدميين القردة مجندلين على الارض فى جماعات كبيرة ، وقد اخترقتهم الحراب والسهام . كان الآدميون القردة قد تقهقروا الى مدينتهم ، حيث صمدوا للمرة الاخيرة . ولكنهم انكسروا مرة أخرى ، ووصلنا فى الوقت المناسب لنرى المشهد الختامى الرهيب للأمر كله .. كان حوالى ثمانين أو مائة من ذكورهم قد سيقوا الى عين الخلاء الذى يفضى الى حافة الهضبة ، والذى كان مسرحا لمغامرتنا منذ يومين . وعندما وصلنا ، كان الهنود قد أطبقوا عليهم – فى نصف دائرة من حملة الحراب – فان هى الا دقيقة حتى كان كل شىء قد انتهى . فمات ثلاثون أو أربعون وهم وقوف . أما الآخرون ، فقد ألقوا من فوق الهضبة – وهم يصرخون ويقبضون الهواء بمخالبهم ، فهووا – كما كان يهوى أسراهم من قبل – على أعواد الغاب الحادة ، على عمق ستمائة قدم . كان الامر كما قال تشالينجر ، فقد استقر حكم البشر لارض (ميبل هوايت) الى الابد . اذ قتل الذكور جميعا ، ودمرت مدينة القرود ، واقتيدت الاناث والصغار ليعيشوا عبيدا ، وانتهى الصراع الطويل الذى دام قرونا لا عدد لها .

وقد جلب النصر نفعا كثيرا لنا . فقد أصبحنا قادرين مرة أخرى ، على زيارة معسكرنا – حصن تشالينجر – والحصول على مختزناتنا . كما أصبح بوسعنا – مرة أخرى – أن نتصل

بزامبو ، الذى روعه ـ على البعد ـ منظر عدد كبير من القردة يهوون من فوق حافة الهضبة . فصاح وعيناه تكادان تخرجان من رأسه : ((**تعالوا أيها السادة ، تعالوا ! أسـوف يستولى الشيطان عليكم ـ بالتأكيد ـ اذا مكثتم هناك !**)) .. فقال سمرلى : ((انها نصيحة حقة ! لقد حصـلنا على كفايتنا من المغامرات ، وهى ليست مما يناسب شخصياتنا ولا مراكزنا . اننى أطالبك بوعدك يا تشالينجر . من الآن فصاعدا ، عليك أن تكرس كل قواك الفكرية لاخراجنا من هذه البلاد الرهيبة ، والعودة بنا الى المدينة ثانية !))

(١٥) ـ ((لقد رأت أعيننا عجائب عظيمة !))

• **أكتب** هذا يوما بيوم ، ولكنى أرجو أن أستطيع ـ قبل أن أصل الى ختامه ـ أن أقول أن متاعبنا كانت قد انتهت ، أخيرا .. انما يؤخرنا هنا عدم اهتدائنا الى وسيلة واضحة للنجاة ، ولكنى أخال أنه لن يلبث أن يحين يوم نسر فيه لبقائنا هنا ـ رغم ارادتنا ـ اذ نرى مزيدا من عجائب هـذا المكان الغريب ، والمخلوقات التى تعيش فيه .. **لقد جعلنا انتصار الهنود ومصرع الآدميين القردة ، سادة الهضـبة حقا ، لان الاهالى تطلعوا الينا فى عرفان وخوف ، اذ ساعدناهم بقوانا العجيبة على تدمير عدوهم . ولعلهم كانوا يسرون بأن يشهدوا رحيلنا ـ لمصلحتهم الخاصة ـ ولكنهم لم يقترحوا من لدنهم أية طريقة نستطيع بها أن نهبط الى السهل .** ولقد كان هناك ـ على ما فهمنا من اشاراتهم ـ ممر يتسنى بلوغ المكان خلاله ، وهو الذى كنا قد رأينا فوهته الدنيا فى أسفل الهضـبة . وخلاله استطاع كل من الآدميين القردة والهنود أن يصلوا ـ فى أزمان مختلفة ـ الى القمة ، وقد سلك ((ميبـل هوايت)) وزميله الطـريق ذاته . على أن زلزالا فظيعا حـدث فى العام السابق مباشرة ، فاذا الطرف العلوى للممر ينهار فى جوفه ،

حيث اختفى تماما . ولم يعد الهنود يملكون سوى أن يهزوا رؤوسهم ، حين أطلعناهم بالاشارات على رغبتنا فى الهبوط . ولعل ذلك كان راجعا لانهم لم يكونوا يستطيعون مساعدتنا . ولكن من المحتمل كذلك أنه كان راجعا الى أنهم كانوا يأبون مساعدتنا على الرحيل .

وعدنا — عبر الهضبة — مع أصدقائنا ، عقب المعركة بيومين ، وضربنا معسكرنا أسفل كهوفهم . وكانوا ميالين الى أن يحملونا على مشاطرتهم كهوفهم . ولكن اللورد جون لم يشأ أن يقبل البتة ، لان ذلك يضعنا فى قبضتهم اذا هم انقلبوا علينا . لذلك حافظنا على حريتنا ، وأعددنا أسلحتنا لاية ملمة ، بينما ظللنا معهم على أشد العلاقات مودة . كذلك واصلنا زيارة كهوفهم ، التى كانت من أعجب الاماكن ، ولكنا لم نستطع أن ندرك ما اذا كانت من صنع أيديهم ، أو من صنع الطبيعة .. كانت فتحاتها على حوالى ثمانين قدما فوق الارض ، فكانوا يبلغونها بدرجات حجرية طويلة ، بالغة الضيق ، بحيث لا يستطيع أى حيوان ضخم أن يتسلقها . وكانت دافئة جافة فى الداخل ، وتمتد — فى جوف سفح التل — فى ممرات مستقيمة ، متباينة الطول ، ذات جدران رمادية ناعمة ، مزدانة بكثير من الصور البديعة ، التى رسمت بعصى محروقة ، مبينة مختلف الحيوانات فى الهضبة ..

كانت ثمة حقيقة اكتشفناها سريعا ، تلك هى أن الهنود لن يفعلوا شيئا لمساعدتنا . وكانوا فى كل ما عدا ذلك أصدقاءنا ، بل وعبيدنا ! ولكن ما أن نقترح أن يساعدونا فى صنع ومد جسر فوق الهوة ، أو ما أن نبدى رغبة فى الحصول منهم على قطع من الجلد لصنع حبال قد تساعدنا ، حتى كانوا يبتسمون ، ويهزون رؤوسهم ، وينتهى الامر عند هذا ! ..

حتى الزعيم الكهل نفسه قابلنا بهذا الرفض . وكان «ماريتاس» — الشاب الذى كنا قد أنقذناه — هو الوحيد الذى كان يتطلع

الينا بأسى ، ويخبرنا - بحركات يديه - بأنه كان حزينا لما حدث .. كانوا - منذ انتصارهم العظيم على الآدميين القردة - يتطلعون الينا كبشر فوق مستوى البشر ، ويعتقدون بأن الحظ سيواتيهم طالما بقينا معهم . وعرض على كل منا بسرور زوجة صغيرة الجسم حمراء البشرة ، وكهفا ، لو اننا نسينا أهلنا وعشنا على الهضبة الى الابد . ومن ثم قررنا أن تظل خططنا الفعلية للهبوط سرا ، اذ وجدنا ما يدعو الى الخوف من انهم قد يحاولون استبقاءنا بالقوة ، فى نهاية الامر .

وبالرغم من خطر الدينوصاورات ، فانني ذهبت مرتين - فى الاسابيع الثلاثة الاخيرة - الى معسكرنا القديم ، لكى أرى تابعنا الزنجى ، الذى ظل قائما فى أسفل الهضبة . وكنت أتطلع بلهفة بطول التل ، على أمل أن أرى النجدة التى كنت أرجوها .. ولكنى لم أكن ارى سوى خلاء خاو ..

- لن يلبثوا أن يأتوا سراعا يا سيد مالون .. سيعود الهندى قبل انقضاء أسبوع آخر ، ويحضر الحبال، ويساعدكم على الهبوط !

هكذا كانت صيحة الاستبشار من تابعنا البارع « زامبو » !

وتعرضت لتجربة غريبة أثناء عودتى من الزيارة الثانية . كنت راجعا فى الطريق الذى عرفته تماما ، ووصلت الى بقعة على مسافة ميل - أو ما يقرب من ذلك - من مستنقع البتيرودكتايل ، واذا بى أرى جسما غريبا يقترب منى . **كان رجلا يسير بداخل قفص من الخيزران المحنى ، على شكل ناقوس .. ولما اقتربت، ازددت دهشة اذ رأيت أنه كان اللورد جون . وعندما رآنى ، انساب من تحت قفصه ، واقبل نحوى ضاحكا ، وقال : « عجبا أيها الزميل الشاب ، من كان يظن انه سيلقاك هنا ؟ » . فسألته : « ما الذى تراك تفعله ؟ » . فقال : « أزور أصدقائى البتيرودكتايل ! »** . قلت : « ولكن ، لماذا ؟ » . وأجاب : « انها وحوش طريفة ، ألا ترى ذلك ؟

ولكنها لا تحب الاغراب ، كما قد تذكر ، ومن ثم وضعت هذا القفص لاحمي نفسي ! » . وعدت أسأله : « ولكن ، ما الذي تبتغيه من المستنقع ؟ » . فنظر الى بعينين شديدتي التريب . وقرأت التردد على وجهه . وما لبث ان قال : « ألا يخطر لك أن غير العلماء يمكن أن يبتغوا معرفة الامور ؟ .. انني أدرس الطيور العزيزة . وهذا يكفيك ! » . فقلت : « لا بأس ! » . فضحك قائلا : « **لسوف أحصل على شيطان صغير لتشالينجر . هذه احدى مهامي . لا ، لست أريد صحبتك ، فأنا بمأمن في هذا القفص ، وأنت لست بمأمن . فالى اللقاء ، وسأعود الى المعسكر عندما يحل الليل ! »**

وتحول ، فتركته هائما وقفصه العجيب يحبط به .. وكان سمرلي قد وجه كل اهتمامه ــ طيلة الوقت ــ الى حياة الحشرات والطيور على الهضبة ، وراح يقضي كل وقته في تنظيم وتنسيق عيناته . ومع ذلك فقد كان قسط كبير من وقته يضيع في سباب تشالينجر لانه لم يخرجنا من مصاعبنا !

وفي مساء اليوم ذاته ، طرأ على أقدارنا تغير . فلقد قلت أن الشخص الوحيد الذي أصبنا منه بعض العطف في محاولاتنا للنجاة ، هو الزعيم الشاب الذي كنا قد أنقذناه . فهو وحده الذي لم يكن راغبا في استبقائنا رغم ارادتنا . **وفي ذلك المساء ، هبط الى معسكرنا الصغير ــ بعد الغروب ــ وأسلمني قطعة صغيرة من لحاء الشجر ، ثم أشار الى صف الكهوف فوقنا ، ووضع اصبعه على شفتيه اشارة التكتم ، وتسلل عائدا الى قومه .** وأخذنا قطعة اللحاء الى الضوء ، وفحصناها معا ، فاذا هي حوالي قدم مربع ، وقد بدا على جانبها الداخلي صف غريب من الخطوط التي أنقلها هنا :

وكانت مرسومة بوضوح ، بخشب محروق ، على السطح الابيض . فقلت : « مهما تكن ، فبوسعي أن أقسم أنها ذات أهمية لها .. هذا ، ما استطعت أن أقرأه على وجهه وهو

يعطينيها ! » . فقال تشالينجر : « من الواضح أنها نوع من الكتابة » . وظل اللورد جون يتأملهـا ، ثم مد يده فجأة ، وأمسك بها . وصاح : « **بحق القديس جورج ! .. أعتقد أنني أدركتها . أنظروا هنا ! .. كم عدد العلامات التى على الورقة ؟ ثمانى عشرة . لو فكرتم لوجدتم أن على سفح التل فوقنا ثمانى عشرة فوهة كهف !** » . فقلت : « لقد أشار الى الكهوف حين أعطانيها ! » . واذ ذاك صـاح : « هذا يحسم الامر . فهذه خريطة للكهوف . ماذا ؟ .. ثمانية عشر كهفا ، كلها فى صف واحد ، بعضها قصيرة ، وبعضها عميقة ، وبعضها متفرعة ، كما نرى . انها خـريطة . وهاكم صليبا عليها ، فلماذا الصليب ؟ .. لقد وضع ليدل على كهف أكثر عمقا من الاخرى ! » . وصرخت : « **كهف يفضى الى خارج التل !** » . فقال تشالينجر : « أعتقد أن صديقنا الشـاب قد أصاب المعنى . اذا لم يكن الكهف يخترق التل ، فلست أفهم السر فى أن يجتذب اهتمامنا اليه هذا الشاب ، الذى أوتى كل ما يجعله يبتغى الخير لنا . ولكن .. اذا كان الكهف يمتد عبر السفح ، ويصل الى نقطة على الجانب الآخر ، لكان أمامنا أكثر من مائة قدم لنهبطها ! »

وتساءل سمرلى : « مائة قدم ؟ » . فصحت : « ان حبلنا أطول من مائة قدم . فبوسعنا أن نهبط بالتأكيد ! » . وقال سمرلى معترضا : « وما قولكم فى الهنود الذين فى الكهف ؟ » .

ترى ما الذى سينتهى اليـه أمر أصحابنا الاربعة ؟ ..
وهل تقـدر لهم النجـاة من .. « العالم المفقـود » ؟
هذا ما سـوف تقـرأه فى الحلقـة السادسـة
والاخيرة من هـذه القصـة الرائعـة العجيبـة



وأخذ يناضل ليبتعد عنها ، ولكنها عضت يده ..

بين نخيل جوز الهند السامقة ، وعلى ضفاف البحيرات والخلجان المحوطة بالفتنة الشاعرية في (هونولولو) .. وبين أدغال (الملايو) ، وأحراش (سيام) الملتفة بالغموض ، والتي تختلط بين أشجارها الرهبة بالمرح ، والخطر باللهو .. ووسط أقوام بدائيين ، سذج .. جاس الكاتب الروائي الكبير ، ذو الشهرة العالمية الواسعة "سومرست موم" ، فخرج بأروع مادة خليقة بأن تكتب له الخلود في :

أرواح هائمة في الأدغال !

مادة نسجت من ألياف الواقع وخيوط الخيال ، وتخللها تحليل بديع لأسمى ألوان الحب ، وأشد الغرائز بهيمية .. ووصف منصف ، منزه ، لضراوة الإنسان الأبيض حين تخرجه غطرسة الاستعمار عن نطاق الطبائع البشرية ...

ترقب هذا العدد من مجلتك المفضلة "مطبوعات كتابي" .. بعد أيام



يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية